دافيد سوفير

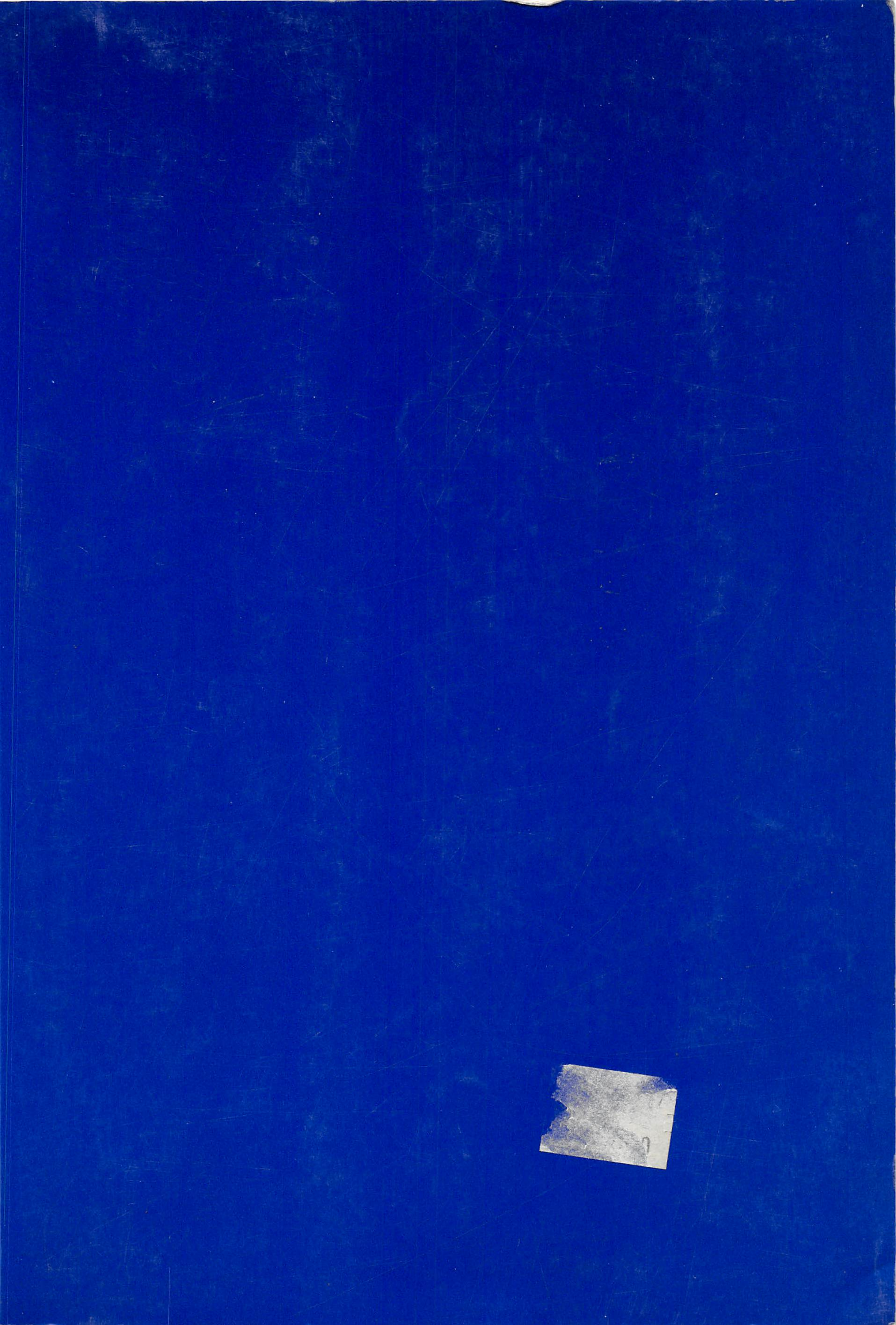
جغرافية الأديان



ترجمة

أحمد غسان سبانو

دار قتيبة



جغرافية الأديان

بسم الله الرحمن الرحيم

جغرافية الأديان

تأليف
دافيد سوفير

ترجمة
أحمد غسان سبانو

دار قتيبة

الطبعة الأولى
١٩٩٠م



للطباعة والنشر والتوزيع

● دمشق ـ ص.ب. ١٣٤١٤ ● بيروت ـ ص.ب. ١٤/٦٣٦٤

مقدمة المؤلف

إن الكتابات الواقعية والمنهجية التي تعالج القضايا الدينية ضمن إطار الجغرافية قليلة جداً وهي مبعثرة بشكل نُتف بين المؤلفات المختلفة في عدة لغات. ومع أن علماء الجغرافية قد صرَّحوا منذ عهد طويل أن الأفكار الدينية تلعب دوراً هاماً في الطريقة التي يعمد فيها الإنسان إلى احتلال وتشكيل الأرض إلا أن الدراسات الجغرافية الجادّة حول هذا الموضوع لم تظهر إلا منذ عهد قريب والحقيقة أن هذا الكتاب الصغير الذي يعتمد على بعض هذه الدراسات الرائدة التي حرصنا على إبرازها في أماكنها المختصَّة، هذا الكتاب ما هو إلا خريطة هامشية لتعيين مناطق الحدود مع إيراد بعض التفاسير حول تلك الحدود وأماكن وجودها. وعند الفحص وإنعام النظر في المواقع الأرضية حَرِصت على الانتباه والاستيعاب التام لتلك المصادر الواسعة التي تمثلها النصوص الدينية بما فيها من ظواهر وتاريخ وقضايا اجتماعية. ولكنني أعترف آسفاً أن معرفتي الخاصة بهذه المصادر محدودة جداً حيث تعيق هذه المعرفة الضئيلة كل شيء ما عدا السعي الحثيث لتدوين العلامات والرموز المختصة بهذه الأبحاث في هذا الكتاب.

إنني مدين إلى مؤلف هذه السلسلة من الأبحاث الجغرافية الثقافية الأستاذ فيليب واجنَرْ وإلى زملائي الأستاذ إسماعيل الفاروقي والأستاذ دونالد مينيج. وأتقدم بالشكر أيضاً إلى الأستاذ ريتشارد داهليرج وجون فولدا والدائرة

الجغرافية في جامعة سيراقوسة لمساعدتهم الكريمة القيمة في إعداد التصاميم والخرائط.

هذا وإني أعلن شكري العميق لزوجتي تيري التي شجعتني وساهمت في إعداد الأفكار والخرائط والتعليقات الانتقادية وقامت بإتمام وإنجاز ذلك العمل الصعب وهو طبع الصفحات العديدة للمخطوطة المكتوبة بخطي على الآلة الكاتبة.

وأعلن شكري لمطابع جامعة أكسفورد لسماحها بنقل وتصوير الشكل رقم (١) من هذا الكتاب وكذلك لمطابع جامعة أوتاه لسماحها بنقل وتصوير الشكل رقم (٢) أ. وللدائرة الجغرافية في جامعة شيكاغو لسماحها بنقـل وتصوير الخرائط رقم (١٠) المأخوذة من مجموعة (جود) وكذلك بخريطة رقم ٥، ٦.

وأعلن شكري للدكتورة هيلين والس التي تعمل في غرفة الخرائط في المتحف البريطاني لمساعدتها في الحصول على نسخة من خريطة الدكتور هيوم في الشكل (١١) والسادة دارتون لونجمان وتود لسماحهم بتطبيق ونقل مادة الخريطة في الشكل ١٢ و١٣.

دافيد ي. سوفير

الفصل الأول

الدراسة الجغرافية للأديان

تهتم الجغرافيا الثقافية بالميادين البشرية وبالإنسان ليس كفردٍ مستقل فحسب وإنما كمُساهم وحامل للقضايا الثقافية. وهي تهتم بشكلٍ خاص بنوعين من العلاقات: الأول: التفاعل الثقافي بين الثقافات والبيئة الأرضية المعقّدة. والثاني التفاعل المتبادل بين مختلف الثقافات. وتحاول الجغرافية الثقافية الدينية البحث والاستقصاء حول هذه العلاقات وهي تركز اهتمامها بالعنصر الديني في الثقافات.

لا تستطيع الجغرافية معالجة التجارب الدينية الشخصية التي يعتبرها البعض لُب الدين وأساسه. فلقد عُرف الدين بكونه نظاماً من أنظمة الإيمان والعبادة، فهو عبارة عن مجموعة من المعتقدات المقدسة المؤكدة والمتواترة مع إيراد بعض التكاليف الواجب مراعاتها وبعض الممارسات الاجتماعية. وهكذا تستطيع الجغرافية دراسة الأنظمة الدينية المقررة وكذلك دراسة السلوك الديني المتواتر.

هنالك صعوبات أخرى بالنسبة للدراسة الجغرافية للظواهر الدينية، فهنالك مشكلة معقدة قد أثّرت في طبيعة الاتجاهات التاريخية والعلمية لتلك الدراسات. ولكن مما لا شك فيه أن الأرض تؤلف سجلاً كاملاً للدين مُعرّضاً للتأثيرات الجغرافية ويمكن استعماله لفحص مدى دقة بعض المسائل التي يتطرق إليها البحث والاستفهام. وأما الصعوبة الثانية فهي تقتصر على المعايير

السلوكية. فهناك شرائح كبيرة من المجتمع يمكن انحرافها عن تقديم بعض التكاليف. والممارسات الاجتماعية لدينهم الذي اعتنقوه. فجغرافية الأديان والحالة هذه عليها الاهتمام بصورة رئيسية بالسلوك الوسطي. ولكننا لا نستطيع أن نتأكد من الاختلافات الميدانية حول الابتعاد عن المعايير الدينية. وكما قال بعض العلماء المسيحيين هنالك فرق بين كونك متديناً أو كونك معتنقاً لدين ما. إذ يمكننا القول أن جميع بني البشر يعتنقون ديناً أو آخر. ولهذا فإن دراستنا الجغرافية تنحصر في مثل هذه القضايا. ولهذا فإن معالجتنا للدين على هذا الأساس تنحصر في أربعة مواضيع جغرافية ثقافية وهي /١/ أهمية الوسط والبيئة بالنسبة لتطور الأنظمة الدينية والمؤسسات الدينية المختلفة. /٢/ الطريقة التي تستطيع بها الأنظمة والمؤسسات الدينية تعديل البيئة والمجتمع /٣/ الطرق المختلفة التي تستطيع بها الأنظمة الدينية احتلال وتنظيم شرائح على صعيد الفضاء الأرضي. /٤/ التوزيع الجغرافي للأديان والطرق التي تنتشر بها الأنظمة الدينية وتتفاعل بعضها مع البعض الآخر.

تصنيف الأنظمة الدينية:

علينا أوّلاً اختيار وفرز المدلولات الدينية خلال إطار جغرافي مناسب ولكن تصنيف الأنظمة الدينية نفسها لا يخلو من عددٍ من الصعوبات. فالمفاهيم الدينية في الغرب التي تعتمد على العلاقة الثابتة بين الإنسان والإله، لا تروق ولا تنسجم مع الأنظمة الدينية الشرقية. إذ لا يستطيع المرء التكلم عن الناس في العالم الشرقي بكونهم يعتنقون ديناً ما بنفس الدقة التي يعتبر بها الأشخاص أنهم مسيحيين أو مسلمين فهنالك فروق حادة بين المسيحي والمسلم واليهودي. فهذه الأديان تعتبر كل ما عداها زائفة وهكذا فهي متميزة عن الأديان السائدة في جنوب وشرق آسيا حيث تنطمس الحدود بين تلك الأديان حيث نرى المشايعة والولاء لدرجة التشابك والتداخل بين تلك الأديان.

وبينما نرى أن الأديان في أوروبا الغربية القديمة مقصورة ومنحصرة، إلا أنها كانت توحيدية بينما لم تكن كل الأديان الشرقية كذلك.

وهنالك قضية تستحق البحث وهي فيما إذا كان باستطاعة الإنسان معالجة حتى الأديان المقصورة والمحصورة كأنظمة وحيدة الجانب. فالمسيحية ذاتها خصوصاً في القرون الحديثة لم تستطع أن تظل نظاماً واحداً إذ أن الصورة كانت تتغيَّر من حين لآخر. ولكن النماذج الحقيقية للأنظمة وطبيعة العلاقات المتبادلة بين مختلف الفئات المسيحية تجعلنا نميل إلى وصف المسيحية بكونها مجموعة من الأنظمة الثانوية المستقلة نسبياً مع وجود مظاهر عديدة مشتركة. وأحد هذه المظاهر المشتركة هو الموقف تجاه المقصورية والحصر. فمن خلال المذهب البروتستانتي نجد المقصورية سائدة ومتغلغلة بشكل طائفي ناتج عن مراحل متعددة من الإنقسام. وأما في الإسلام فالانقسام إلى الشيعة والسُنة مختلف عن هذا إذ لم ينتج عنه انقسام المجتمع الإسلامي ككل إلى جزأين منفصلين. ولكننا نجد من جهة أخرى أن كِلا الإسلام والمسيحية قد تغلغلت فيهما بعض الأشكال المنحرفة كالمورمون بالنسبة للمسيحية. وهو مذهب غير مقبول بالنسبة للديانة الأم.

إن تصنيف أديان المجتمعات المختلفة في الشرق الأقصى والهند ليس سهلاً. ولكن يمكننا تصنيف جزء صغير من العالم الشرقي وهي البلدان التي تدين بالبوذية في جنوب شرق آسيا وبلاد التّيبت ومنغوليا حيث نجد مؤسسات بوذيّة تؤلف عنصراً متحداً ومندمجاً في المجتمع بحيث نستطيع القول بحرية أن تلك المجتمعات هي مجتمعات تدين بالبوذية.

بينما نجد في مجتمعات أخرى تتخللها البوذية بعض النُسّاك وهم يعتبرون أنفسهم المجتمع البوذي الأصيل، وعلينا تمييزهم من كلا المؤيدين للبوذية وغير المؤيدين. فمؤيدو البوذية يظهرون أحياناً أطيافاً عريضة من المعتقدات تجعل من الصعب اعتبارهم بوذيين حقيقيين.

ففي الصين البوذية في القرن السابع والثامن الميلادي وفي الهند حوالي

بداية العصر المسيحي، عندما كان نجم البوذية بادئاً بالبزوغ رأينا السكان المؤيدين للبوذية يؤلفون جزءاً ضئيلاً من السكان الأصليين. وفي اليابان حيث نجحت البوذية أكثر من الصين، يعتبر الجزء الأكبر من السكان ثنائيي المعتقد. فالبوذيون اليابانيون المتحمسون يمارسون تعاليم الديانة الشنتوية والعكس بالعكس.

وفي الصين وكوريا وفيتنام حيث يقل نشاط المؤسسات البوذية عما هي عليه في اليابان، نجد قليلاً من السكان الأصليين بوذيين حقيقيين. ونتيجة لذلك نجد أن تقدير عدد السكان البوذيين في الصين قبل فترة الانقلاب الشيوعي في تلك البلاد، يختلف اختلافاً عظيماً، فقد كان لمعظم الصينيين ارتباطات متعددة بمختلف أشكال المعتقدات الدينية والطقوس. وما عدا بعض البوذيين الملتزمين وبعض الأعداد الصغيرة من المسلمين والمسيحيين نجد مزيجاً غير متجانس من الطقوس البوذية والكونفوشوسية والطاوية مع عدد من الأديان المحلية الأخرى.

أمّا في الهند فالتركيب الديني المعقد ليس منظماً فهو يحتوي على عناصر مختلفة، وهنالك صفة مشتركة تطلق على الأديان في الهند وهي كلمة «الهندوسية» ويقصد بها نظام الأديان المختلفة في الهند. ولسوء الحظ ليس هنالك من كلمة عامة كهذه لتطلق على مجموع الأديان في الصين وكوريا واليابان وفيتنام.

وتُعرف الهندوسية بأنها نظام ديني غير مندمج إذ يجد الإنسان في هذا النظام بعض المؤمنين بتعدد الآلهة وبعض المؤمنين بالتوحيد فضلاً عن بعض أنواع الإلحاد بين الهندوس. ولكن الجميع متفقون على كلمة الهندوسية ويجد الهندوس أنه من الصعب عليهم فهم أو تصديق مواقف الحصر الموجودة في المسيحية والإسلام، بينما يصعب على الرجل الغربي فهم المواقف الاصطفائية والإنتقائية لهؤلاء الهندوس أي أخذهم بعض المعتقدات من دين ودمجها على معتقدات أخرى من دين آخر حسب أهوائهم وأمزجتهم.

فالهندوسي يعتقد جازماً أن جميع الكائنات البشرية على هذه الأرض هم بالحقيقة هندوسيون في معتقداتهم سواء كانوا يعرفون أو يرغبون بذلك أم لا.

تميل الأنظمة الهندوسية الدينية لامتصاص عدد كبير من الطوائف والمعتقدات وحتى الأنظمة الدينية الخاصّة جداً كالجانيّة Jainism التي امتصّتها الهندوسية بشكل أو بآخر. ولم يحدث تطور دين جديد مستقل في الهند كديانة السيخ إلا حين بروز بعض السمات الغربية في ذلك الدين.

وهنالك مشكلة أخرى تبرز عند تصنيف الأديان بالنسبة للأغراض الجغرافية، وذلك من وجود عشرات الأديان الجديدة والمذاهب والمعتقدات والكنائس. ومعظم هذه الأديان تظهر لدى المجموعات العرقية المتأخرة وهي من المجتمعات الأميَّة التي تعرفت فجأة إلى حضارات غربية طاغية وغالباً من الحضارات الأوروبية الحديثة. وإن بعض هذه الأنظمة الصغيرة الجديدة هي أديان متميزة مثل دين البيوت Peyoite الذي تعتنقه بعض المجتمعات الهندية الأمريكية في الولايات المتحدة ومعتقدات الكارجو Cargo وجزر مالينيزيا Malanesia. وأما في إفريقيا فهنالك مئات من الكنائس الأفريقية وهي ذات ارتباطات غامضة غير واضحة المعالم مع المسيحية بينما نجد عدداً كبيراً منها لا يدين بالمسيحية مطلقاً.

الخصائص الجغرافية للأنظمة الدينية:

يمكن تمييز الأنظمة الدينية ببعض الخصائص التالية:

١ ـ التوزيع: أي توزيع جميع النماذج الجغرافية على مدى التوسع الاجتماعي.
٢ ـ البُنية المكانية: وهي الآلية التي تنظم فيها الأديان جميع معتنقي تلك الديانات.
٣ ـ الوسائل التي يستخدمها النظام الديني لنموه عدداً وحجماً.

ويمكن قسمة الأديان ذات الأكثرية الساحقة في العالم إلى فئتين: الفئة الأولى: الأديان ذات الصبغة العرقية في مظاهرها. والفئة الثانية: الأديان ذات الصبغة العالمية الأممية. وهنالك بعض الأنظمة الدينية التي تعتبر لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، ويمكننا دعوتها الأديان الجزئية.

تختلف الأديان ذات الطابع العرقي في حجمها وامتدادها الجغرافي بالنسبة لمعتنقيها. وهكذا ينشأ لدينا بعض الأقسام الثانوية التي يمكن تلخيصها في ثلاثة أقسام عرقية وهي (١) الأنظمة العرقية البسيطة أو القبلية (٢) الأنظمة العرقية المركبة وهي الأنظمة القومية (٣) الأنظمة العرقية المعقدة التي تتواكب مع الحضارات الرئيسية الموجودة ويجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن باستطاعتنا قسمة الأنظمة الجغرافية إلى أقسام محددة، إنما القصد من هذه التقسيمات الاعتراف بوجود بعض النماذج القوية الملحّة وعلاقات بعض الأنظمة الدينية بالنسبة للعالم الخارجي حولها.

الأنظمة الدينية العرقية البسيطة (القبلية):

إن هذه الأنظمة موجودة الآن في المجتمعات السكانية الصغيرة الحجم والعدد والتي شاعت فيها الكتابة مؤخراً. وهي متجانسة ثقافياً وليس فيها فروق ملموسة بالنسبة للمكان وترتبط هذه المجتمعات ارتباطاً وثيقاً بأواصر القرابة والمكان وتتصل ببعض الممارسات فيها بشكل مباشر بطبيعة البيئة والطريقة التي تُستغَل فيها تلك الممارسات. ويمكن وضع هذه الأديان تحت عنوان الأرواحية[1] وهي الأديان التي تتسم مظاهرها الرئيسية بالإيمان بوجود الأرواح وعادة الأرواح الطبيعية. ولكن الأرواحية هذه ليست نظاماً منفصلاً عن الأنظمة الدينية بالنسبة للمجتمع، مع أن الأديان العرقية البسيطة ربما كانت تتصف

---

(١) الأرواحية: هو مذهب حيوية المادة وهو الاعتقاد بأن كل ما في الكون حتى الكون ذاته عبارة عن روح أو نفس وأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي المنظم للكون.

بعناصر مشتركة كثيرة. فهنالك الطقوس الدينية المتبعة في الصيد في كثير من المجتمعات القبلية في جنوب شرق آسيا وجنوب أمريكا، وبعض أشكال الطقوس الشامانية الموجودة لدى القبائل التي تسكن في منطقة الدائرة القطبية في كلا العالم القديم والعالم الجديد. وإن حيازة مثل هذه السمات الدينية لا تعيق الشعور بوجود العلاقات الاجتماعية بين هذه القبائل. بل حدث أن تلك القبائل طالما تشددت بإظهار مظاهر الفرقة والتباعد لتأكيد شخصيتها المنفصلة وذلك باختلاق بعض الفروق البسيطة في الممارسات الدينية فيما بينها.

ومع ذلك فقد وجدت هنالك بعض التمايزات والفروق الجزئية بين الأنظمة الدينية في اليونان القديمة في زمن البطاركة ولكن وُجد بينهم نظام الأحلاف الدينية الذي يُقصد به تعاون واجتماع جميع القبائل المتجاورة والمرتبطة بأواصر القرابة الدموية لحماية مركز من المراكز الدينية والاحتفال بالأعياد الدينية المشتركة. وإن عدد الأديان في هذه المجموعة يشمل عدة مئات بما فيها بعض الأديان الموجودة في الولايات المتحدة مثل دين الهوبي Hopi والنافاجو Navago. ومع أن هذه الأديان الثانوية مهملة جغرافياً إلا أن عدد معتنقيها يبلغ حوالي (١٥٠) مليوناً منتشرين فوق عدة ملايين من الأميال المربعة فوق الكرة الأرضية هذا وقد قضي على مئات من هذه الأديان في القرن الماضي عن طريق تقدم الديانة المسيحية والإسلام.

وقبل ألف عام من ذلك التاريخ وعند بزوغ فجر المدنية بدأت هذه الأنظمة العرقية البسيطة (القبلية) في الزوال وحلّت محلها الأنظمة العرقية المركبة. وهذه الأنظمة المركبة التي كانت جديدة بالنسبة للأمة والدولة تعكس الحالة المعقدة للمنظمات السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة بين أتباع ومعتنقي تلك الديانات. وقد رافق هذه الأنظمة العرقية المركبة وجود مجتمعات عرفت الكتابة وخصوصاً كتابة التشريعات الدينية الرسمية والمسائل الاقتصادية حسب مقتضيات حاجات المدن ونشوئها. وكان الدين العرقي المركب ذا روابط قوية ليس بأمكنة معينة أو بأشخاص معينين شأن دين

المجتمعات القبلية البسيطة. ويمكننا القول أن هذا الدين كان مقصوراً على جماعات من الناس متجانسين ثقافياً. وإذا صدف أن أراد أي شخص غريب الدخول في هذا الدين، خضع هذا الشخص إلى سلسلة من التطبيعات حتى يصبح معتبراً كأحد أفراد الشعب.

إن معظم هذه الأنظمة قديمة قد بادت ولا يُعرف عنها شيء الآن سوى ما ذُكر في بعض النصوص التاريخية فديانة الشنتو Shinto وهي الديانة الفطرية القديمة في اليابان هي خير مَثَل على ما أوردناه وهنالك نظام ديانة المايان Mayan القديمة وكذلك مجموعة العبادات في وادي النيل كعبادة نهر النيل والشمس والآلهة الأخرى التي كانت تؤلف نظام العبادة في مصر القديمة.

وكذلك عدد من الأديان والعبادات المحلية القديمة في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ومع أن الأديان القديمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط تميّزت ببعض المظاهر كعبادة الآلهة العظمى إلا أن هذه الأديان كانت ملتصقة بمدينة معينة أو إقليم معين. وفي أزمنة الحضارة الهلينتية والرومانية انتقلت بعض هذه الأديان على أيدي معتنقيها إلى أماكن جديدة حيث جذبت بعض الأتباع بعد أن أصبحت تتسم بالسرّية والغموض، ولكنها بقيت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمكان منشئها وقد انتشرت الديانة اليهودية ذات الطابع العرقي العنصري بهذه الطريقة.

ويمكننا اعتبار الديانة اليهودية ديناً عنصرياً عرقياً وذلك لأن مؤسسات ذلك الدين وممارساته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مجتمعهم، فاليهودية هي دين ذلك المجتمع الذي ساهم في حفظ تقاليد تلك الروابط. فتعاليم هذا الدين وطقوسه تؤلف مجموعة فريدة محتفظة بالتقاليد ومحافظة على الهوية المميزة لذلك المجتمع. ويمكن إظهار الشخصية العرقية لليهودية بعدة طرق. ولكن ليس هنالك من طريق أوضح من ملاحظة تلك الحقيقة وهي أنه بينما نرى المسيحيين يميزون أنفسهم عن الوثنيين، ونرى المسلمين يميزون أنفسهم عن الكفار، إلا أننا نرى اليهود يميزون أنفسهم عن سائر بني البشر ويعتبرون

الشخص غير اليهودي جوي goi وهذه الكلمة تحتوي فيها معنى عنصرياً.
وهكذا أصبح اليهودي متميّزاً عن جميع الفئات العنصرية على هذه الأرض.

أما الأنظمة الدينية المعقدة في الهند والصين فهي عبارة عن أنظمة كبيرة تفترق عن كثير من الأديان المحلية ولكن هذه الأديان تبقى محترمة وتنال شيئاً من التشجيع من قبل الأنظمة الكبرى، وإن مجموع المعتقدات الصينية الدينية المركبة تحتوي بشكل تقليدي على دين رسمي يخدم بكونه عاملاً هامّاً من عوامل الدمج والتوحيد المكانية. فالطقوس التي ترمز إلى الحاجات والمتطلبات القومية كانت تُنجز على يد موظفي الدولة، وهكذا أصبح الدين فرعاً من فروع المؤسسات الحكومية. ولقد ساعد هذا الدين الرسمي على تقديم التعبيرات القومية لمزيج غريب من المؤسسات الدينية المختلفة التي تشمل على ممارسات محلية عالية المقام يصحبها الشعور بالاحترام والتوقير العظيم للأجداد. وتشترك الديانة الكورية والفيتنامية مع الديانات الصينية على هذا الصعيد. وذلك بسبب النفوذ الصيني في تلك البلدان. ولكن كل ديانة من تلك الديانات مبنية على عرق منفصل. وهكذا يتميز الكوريون والفيتناميون بوجود هوية شخصية قديمة تختلف عن هوية وشخصية الصينيين.

إن أكبر وأوسع هذه الأنظمة العرقية هو النظام الهندوسي الذي يبدو وكأنه قد أصبح نظاماً عالمياً وذلك بسبب وجود خاصة الاصطفاء الممتازة تجاه المحتوى الديني. ولكن محتوى هذه الأنظمة لا يفترق كثيراً عن محتوى المجتمع ذي الطبقات المنغلقة في الهند الذي ترتبط به تلك الأنظمة ارتباطاً وثيقاً مما يُميّز تلك الأنظمة بجعلها ذات صفات وشخصية عرقية.

إن روابط الهندوسية بالمكان يعبر عنها بالمفاهيم القديمة بقداسة الأمكنة الهندية كالكنج المقدس والمدنْ المقدسة مثل براهمافارتا Brahmavarta وهي أرض البراهمة. وفي أخفض المستويات نجد الهندوسية مرتبطة بالمكان والقرابة الدموية بسبب طبيعة نظام الطبقات المُنغلقة، تلك الطبقات الاجتماعية المتميزة التي تعيش في أمكنة محصورة والتي تقع على

عاتقها المسؤولية الكاملة ضمن المجتمع في ظل أرض بذاتها، وأن الالتزام بعدم التمسك بهذه المسؤولية من غيرها من نماذج الأنظمة المُنْغَلقة بما يختص بالسلوك الاجتماعي والطقوس، كل هذه تؤلف ما يدعى الدهاما Dhama أو دين الطبقة المُنْغَلقة. وتبقى لكل طبقة مُنْغَلقة دينها الخاص بها. غير أن هنالك خيوط مشتركة تتشابك وتجري خلال قوانين الطبقات بصورة عامة. فالهندوسية تقدم لنا الطرق الكفيلة بالتخلص من نظام الطبقات المنغلقة وقيودها الدموية والمكانية ولكن هذه الطرق لا تطبق إلا على أقلية ضئيلة نسبياً.

ومع أن عناصر هذا الدين الهندوسي قد ظهرت في المراحل الأولى من الحضارة في جنوب شرقي آسيا إلا أننا لا نستطيع اعتبار هذا الدين نظاماً عالمياً. فالعناصر الهندوسية غالباً ما تنتشر مع البوذية التي تعتبر نظاماً عالمياً بحق. إذ هنالك عدد قليل من التجار الهندوس والمثقفين الذين يمثلون شريحة ضيّقة ولكنها ذات نفوذ بالنسبة لمجموع السكـان. هؤلاء التجار والمثقفون ربما كانوا قد هاجروا ومن خلال اتصالاتهم قد اختاروا بعض عناصر الديانة الهندوسية ونشروهـا. ولكن من المعلوم أن بُنية الـطبقات المنغلقة في الهند لم تنتقل إلى الخارج وليس هنالك من ارتباطات لتلك الطبقات المنغلقة كما هي الحال في الديانة البوذية التي تغلغلت في صميم بلاد الهند فبعد عام ١٢٠٠ م بدأت البوذية والإسلام في خلق مجموعة دينية متكاملة ومُندمجة في جنوب شرق آسيا. وحتى ذلك العهد بقيت العناصر الدينية ذات الأصول الهندية ممتزجة مع الأديان المحلية ذات البُنية البسيطة، تشكل أنظمة أديان عرقية مركبة كالأنظمة الموجودة في آسيا الشرقية.

ويمكننا اعتبار الأديان الشرقية أنظمة دينية مندمجة لأنها مؤلفة من عدة عناصر مستقلة فكل دين من أديان الطبقات المنغلقة منحصر بأمور تلك الطبقة بالذات ولكن ممارسات أيّة طبقة تعتمد على ممارسات الأديان في الطبقات الأخرى. ففي الصين القديمة الأمبراطورية كانت الديانة الرسمية ومعـابد

الأديان الشعبية مع الآلهة المحلية المختصة بالطبيعة والطقوس الوطنية تكريماً للأجداد كلها تؤلف خصائص تعتبر جزءاً صغيراً من المجموع. ولكن عند وجود نظام مستقل مثل البوذية التي فشلت في السيطرة والهيمنة على المجموع، اضطر هذا النظام قبول السير في دور مستقل خلال المجتمع يشترك مع النظام الصيني الديني بأكمله. وتظهر استقلالية البوذية والأديان العرقية المحلية بصورة خاصة في اليابان حيث يتزوج معظم اليابانيين طبقاً لطقوس الشنتو Shinto على يد كاهن من كهنة الشنتو ولكن عند الوفاة يحرق الميت طبقاً للطقوس البوذية. وإن هذا الاستقلال لا ينطبق على العلاقات مع الأديان الغربية في العالم القديم أو الأديان القبلية الموجودة بين الأنظمة الشرقية القديمة الرئيسية.

كان نمو وانتشار هذه الأديان محدوداً بسبب عرقيتها وعنصريتها والأمر الذي أثّر تأثيراً مباشراً على توزيعها. فعدا عن النمو الطبعي والهجرة، يمكن للأنظمة العرقية التوسع تدريجياً حول حدودها الإقليمية نتيجة للاتصالات المكثفة مع الأنظمة الدينية الأخرى وخصوصاً القبليّة البسيطة. وهكذا تحدث عمليات التحول التي تكون عناصر التحول العادية فيها كتل اجتماعية بأجمعها ويصبح التحوُّل عملية ثقافية عامّة. فالتحول في هذه المجالات لا يشبه التحول إلى الديانة المسيحية أو الإسلامية إذ ربما أصبح بشكل انتقال تدريجي لأنَّ التحول إلى النظام الديني العرقي لا يقتضي جلب معتقدات دينية جديدة بقدر ما يجلب من العناصر العرقية.

لقد استمرت هذه العمليات في الهند منذ زمن طويل. فهي لا تزال تجتذب الشعوب القبلية غير الهندوسية إلى الحظيرة الهندوسية مثل البهل Bhils والجوند Gonds والسانتال Santals الذين يسكنون أواسط الهند في مناطق الغابات.

ولقد توسعت الديانات الصينية بامتصاص الكائنات البسيطة البربرية من الجوار. فالأديان من هذا النوع لا تمتلك أية ميكانيكية لزيادة أتباعها الجدد

بنسب كبيرة. وأما الهندوسية في الأزمنة الحديثة وبما فيها من صفات الاصطفائية وحريّة الاختيار فقد بادرت بإرسال المبشرين ولكن على نطاق ضيق وكان هدف بعثاتها التبشيرية عادة الإسراع في عمليات التثقيف بين شعوب القبائل أو استرجاع الهندوسيين الذين تحولوا إلى المسيحية أو الإسلام، أما الأنظمة الدينية العرقية فتظهر جامدة إلى حد ما رغم بعض التحركات التي تقوم بها بعض المجتمعات أثناء عصور الشتات وذلك بالنسبة للهندوسيين والصينيين.

الأنظمة الدينية العالمية:

إن الأنظمة الدينية العالمية هي الأنظمة التي: (أ) يعتبرها معتنقوها صالحة لجميع بني البشر. (ب) تمتلك بعض الميكانيكيات القادرة على تسهيل عمليات بثها ونقلها إلى بقية الأمم. (جـ) استطاعت في زمن من الأزمان كسر القيود وتحطيم المحاولات لإبقائها منحصرة في مجموعة أو فئة خاصة محصورة. (د) استطاعت أن تظل في طليعة الأديان على الصعيد الإقليمي على الأقل.

إن البوذية والمسيحية والإسلام هي من الأديان العالمية حسب ترتيبها الزمني وتدعى الأديان العالمية «بأديان الوحي» مع أنها تبدأ بشكل دائم تقريباً ضمن نطاق عرقي مغلق. فرسالة يسوع المسيح كانت مختصة بقومه عند نشأتها. وقد اعتبرت هذه الأديان موجهة إلى جميع البشرية، ولهذا أصبحت أساس الأنظمة العالمية بعد أن نجحت في الوصول إلى العالم الخارجي.

لقد سهلت عمليات التحول البسيطة ومجهودات البعثات التبشيرية سرعة توسع وانتشار هذه الأديان العالمية. فقبول الشخص في عداد المؤمنين كان يتم بشروط بسيطة سهلة إذا قورنت مع شروط الأديان العرقية، ففي الديانة البوذية ليس هنالك أية رسميات للقبول أو الطرد والمهم هو قبول الولاء والالتزام دون إكراه. أما بالنسبة للإسلام فيقبل الشخص بعد شهادة أن لا إله

إلّا الله وأن محمداً رسول الله. وأما في المسيحية فتعتبر طقوس التعميد وتناول القربان المقدس ضرورية للقبول في المجتمع المسيحي. فهذه الأعمال البسيطة ما هي إلا رموز للتبادل الدرامي التي يتضمنها الاصطلاح المعروف وهو التحوُّل.

لا تمتلك هذه الأديان العالمية دوماً مؤسسات تبشيرية متطورة. فالإسلام تنعدم فيه هذه المؤسسات كلياً. ولكن جميع هذه الأديان تحاول إيصال رسالتها إلى أوسع المجتمعات حتى يصبح حماس المهتدين الجدد إلى الدين من الالتزامات الأخلاقية المقررة. ونجد في الديانة الإسلامية والمسيحية أن حماس المهتدين الجدد قد أمده وقواه ذلك الشعور بأن الأنظمة الأخرى كاذبة ومن الواجب إزالتها وحذفها.

إن نشوء الأنظمة الدينية العالمية في غرب آسيا قد بدأ قبل ظهور المسيحية. فقد عبَّر الأنبياء العبرانيون عن بعض الأفكار العالمية ولكن نظامهم الديني لم يستطع تحقيق تلك الأفكار العالمية. ولكن ظهرت حركة أخرى هي الدين الذي بشر به زرداشت في بلاد فارس في القرن السادس ق. م غير أن هذا الدين فشل في التوسع فيما وراء حدود فارس. وأصبح ديناً رسمياً دون وجود رصيد شعبي له وقد حلّ محله الإسلام أخيراً ولكن بقيت له بعض البقايا في الهند حيث ظل عدة قرون في وضع نظام ديني عرقي.

ولكن عادت العناصر العالمية للظهور في الديانة الزرداشتية في الدين الجديد وهو الدين المشراسي الذي تطوّر في آسيا الصغرى في القرن الأول ق. م بعد الفتح الروماني لتلك البلاد. ولقد حازت هذه الديانة على شعبية عظيمة بين صفوف الجيش الروماني بسبب انعدام وجود دور الكهنة فيها وتأكيدها على دور الذكور فقط. وقد أصبحت هذه الديانة إحدى المنافسين للديانة المسيحية وذلك بانتشارها الواسع فقد وجدت آثارها في منطقة واسعة من العالم تمتد من بلاد فارس إلى اسكتلندة. فقد كانت الولايات الرومانية الشرقية تؤلف مركزاً مناسباً ومناخاً جيداً لانتشار الديانات العرقية ففي الأزمنة

السابقة أصبحت الديانات المنحصرة في بعض الأمكنة كديانة ايزيس وسابيلي Cybele ذات شعبية عظيمة فقد اعتبرت أدياناً مملوءة بالأسرار التي تجذب المريدين من مختلف الثقافات برسالة الخلاص والحياة الأبدية، وهكذا يمكننا اعتبار هذه الديانات في عداد الأنظمة العالمية.

إن نجاح الأديان العالمية كالمسيحية والبوذية. قدَّم نموذجاً ممتازاً للتطور الديني مع أنه لم يحرز سوى الإسلام مثل هذا النجاح. وفي القرن الثالث الميلادي ظهر الدين (الجرمانية) وأحرز نجاحاً على حدود وحواشي الامبراطورية الرومانية في منطقة ما بين النهرين حيث بدأ الصراع بينه وبين الديانة المسيحية وبعدها انتشرت الجرمانية بين الرعاة وسكان الواحات من أتراك آسيا الوسطى ولكن ظهور الإسلام في تلك المناطق قضى على الجرمانية نهائياً واختفت في القرن الرابع عشر الميلادي.

ولقد ظهرت حركات إصلاحية في بعض الأديان العالمية في العصر الحديث. وإن الصفة العالمية التي تمتعت بها المسيحية والبوذية والإسلام، كانت مهددة بقيام بعض العمليات العرقية خصوصاً في المؤسسات المحلية. ففي تاريخ مبكر حصل نوع من الانقسام الإقليمي في المجتمع المسيحي، إذ كانت سلطة الكنيسة الكاثوليكية تمتد إلى حدود الحضارة اللاتينية. أما كنيسة بيزنطة فكانت تحكم المنطقة الهيلينية فالمجتمع المسيحي الذي كان يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة، هذا المجتمع كان يحتل منطقة الشرق الأوسط الهيلينية (سوريا وأرمينيا ومصر) بينما انتشرت الكنيسة النسطورية في منطقة ما بين النهرين وبقية العالم الروماني الآسيوي وما أتى عام ١٢٠٠ م حتى أصبح للكنيسة النسطورية والكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح، أتباع كثيرون لا يقلون عن أتباع الأنظمة الثانوية في الكنائس الأوروبية. ولكن بظهور الإسلام اضمحلت أهمية النسطوريين وبقيت كنائسهم متفرقة وثانوية الأهمية تستعمل لغة طقوسية خاصة. وبقيت الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية محافظة على استقلالها العرقي بسبب بعدها عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وتعتبر الكنيسة

الحبشية فرعاً من فروع حركة الطبيعة الواحدة للمسيح.

إن انقسام المسيحية إلى كنائس مستقلة وغالباً متخاصمة، تلك الحركة التي بدأت بالإصلاح الديني، وتعززت وقويت به، تمثل رفضاً للأهداف العالمية لذلك النظام. ومع أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لم تمارس أي انشقاق منذ حركة الإصلاح الديني، إلا أنها لم تنجح في التغلب على النزعات العرقية. فقد أبدى ملوك إسبانيا والبرتغال الرغبة في الاستقلال عن الكنيسة الكاثوليكية في إدارتهم لمستعمراتهم فيما وراء البحار. وفي هذا القرن ظهرت عدة نزعات انفصالية كالحركة التي ظهرت في جزر الفلبين عام ١٩٠٢ والتي أيدها حوالي ٥ ٪ من السكان الفلبينيين للانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية أما بقية السكان فقد استمروا في ولائهم للكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

إن مثل هذه الانقسامات الثانوية من الديانات العالمية من الممكن أن تحصل على صفة عرقية كما فعلت الكنيسة الحبشية تحت ظروف استمرارية الانعزال الجغرافي والافتقار إلى الديناميكية والنشاط الداخلي.

هنالك بعض الأنظمة الثانوية المسيحية التي تأسست أصلاً ضمن أسس قومية وهذا ينطبق على الكنيسة الانجليكانية (كنيسة انكلترة وتوابعها) وهي تقوم بنشاطات تبشيرية والملاحظ أن هذه الكنيسة مع الكنيسة البروتستانتية في الولايات المتحدة لم تظهر الانفصال التام ولكنها اعترفت ببعض الروابط مع النظم المسيحية الثانوية الأخرى.

وعلى العموم نجد أن الأديان العالمية حتى الأكثر نجاحاً فيها قد اكتسبت بعض الصفات العرقية التي تميزها عن الأنظمة الدينية الأخرى وخصوصاً بعد أن توسعت الآفاق الثقافية بحيث أصبحت تشمل العالم بأجمعه. فالمسيحية التي اكتسبت بعض الصفات الشخصية العرقية في بعض البلدان. أصبح عليها في الأزمنة الحديثة مواجهة تلك الحقيقة التي سادت في

آسيا وإفريقيا من أن المسيحية هي دين الرجل الأبيض. ويظهر أن هذه الصورة التي تمثل المسيحية بالعرقية بدلاً من العالمية قد نتجت من موقف تلك الكنائس البروتستانتية في جنوب إفريقيا وفي الولايات المتحدة الجنوبية والتي أخذت تفصل المجتمعات هناك إلى عناصر عرقية محضة تتمثل بالبيض والسود هذا وقد فطنت الكنيسة الكاثوليكية إلى ذلك الخطر العرقي فأخذت تعمل على تقليص النفوذ الأوروبي من المراتب العليا في تلك الكنيسة.

وهكـذا نجد الكنيسـة الكاثـوليكية والكنيسـة الأرثوذكسيـة والكنيسة البروتستانتية شأن الفروع المنفصلة للبوذية كلها تعمل كأنظمة عالمية مستقلة وذلك لوجود التنظيم أساساً في داخلها وفي تاريخ المسيحية الأولى قام النظام الثانوي النسـطوري رغم اعتباره نـظاماً ملحـداً من قبل رومـا وبيزنـطة، بمجهودات عظيمة لنشر المسيحية في أواسط وغربي آسيا. وقد ظهرت بعض الأنظمة الثانوية التي لم تَنل عطف الكنائس الكبرى، منذ ذلك العهد. وتعتبر كنيسة المورمون (وهي كنيسة يسوع المسيح والقديسين الحديثين في العصر الحاضر) مثلاً حيّاً لهذه المظاهر. وقد واجه نظام المورمون هذا الانتقاد والتعذيب والنفي، ثم أصبح يميل ليصبح ديناً عرقياً عنصرياً ولكنه سرعان ما استعاد ثقته بنفسه وأصبح يرسل البعثات التبشيرية وينظم المؤسسات الدينية الحديثة بحيث أصبح اليوم نظاماً دينياً مستقلاً ضمن بُنية المذهب البروتستانتي المسيحي.

الأنظمة الدينية الهامشية:

يحتل النظام الديني الهامشي جزءاً من إطار اجتماعي كبير، ولا يملك هذا النظام أية طموحات عالمية. وبعض الأنظمة الهامشية مقصورة على بعض التوزيعات الأرضية بحيث تصبح الدين السائد لطبقة ما من الناس، بينما نجد أنظمة هامشية أخرى تسود في مناطق خاصة وتميل إلى خلق بعض الفروق العرقية الجديدة.

وتعتبر مذاهب الكارجو Cargo في مالينيزيا أدياناً هامشية وذلك لأنها تقف موقفاً وسطاً بين الثقافة الأوروبية ونظام الثقافة المحلي التقليدي هناك، وهذه الأديان تستخدم أحياناً بعض ممارسات وألفاظ الأديان العالمية إلا أنها لا تُعتبر عالمية أبداً ما دام أنها تعمد إلى خلق الفروق العرقية بين معتنقيها وبين الآخرين الذين هم عادة من الأوروبيين البيض. ولكن هذه الأديان تقطع الطريق على الحدود القبلية القديمة ولهذا يمكننا اعتبارها عرقية حديثة. ويعتبر دين /جميع الهنود/ في أمريكا جزءاً حيوياً هاماً من الفتنة والإغراء التي تتمتع بها كنيسة البيوت Peyote وهي كنيسة الأمريكيين الوطنيين. فهي تلم شمل جميع السكان الهنود الأصليين عرقياً، وبنفس الوقت تؤسس نفسها على تحقيق وجود ذلك البرزخ الذي يفصل بين الهنود والبيض.

ولقد ساعد الاحتكاك الذي نشأ بين الثقافة الأوروبية وبين الأنظمة الدينية الضعيفة التنظيم في المشرق على نشوء بعض الديانات الهامشية الجديدة مثل دين الكاوداي Cao - Dai في جنوب فيتنام ودين الشوندوكيو Chondo - Kyo في كوريا وبعض الأديان المتفرعة عن البوذيـة مثل دين السوكاجاكاي Soka gakkai في اليابان وهو دين شبه سياسي. وتدعي بعض الأديان الجديدة الانتماء إلى بعض الأنظمة العالمية كما تفعل بعض الكنائس الإفريقية الوطنية ولكنها مستقلة فعلاً. ويعتبر البوذيون الجدد الذين ظهروا بين الطبقات المسحوقة في الهند والمسلمون السود في الولايات المتحدة أمثلة أخرى تعبر عن هذه الظاهرة.

وفي بعض الأحوال تصبح مثل هذه الأنظمة الدينية النامية وثيقة الاتصال بالأنظمة الكبرى التي تدعي الانتماء إليها. ففي جنوب إفريقيا وفي حوض نهر الكونغو وإفريقية الغربية هنالك أطياف من كنائس صغيرة منشقة تنتشر عبر الحدود المعترف بها من قبل المسيحية. وكانت البعثات التبشيرية ترفض وتستنكر وجود مثل هذه الكنائس التي تدعي أنها مسيحية ولكنها هرطقية وتعتبر نقطة الضعف في الإرساليات التبشيرية. ولكن أخذت بعض البعثات التبشيرية

مؤخراً تتبنى وجهة النظر القائلة أن هذه الكنائس البدائية تشهد على مقدرة المسيحية في التغلغل والانطلاق بنجاح الأمر الذي يُثبت عالميتها.

وتظهر هذه الفروع التي تنطلق من الأنظمة العالمية بشكل أنظمة هامشية وغالباً ما تمتلك خصائص وميول عرقية حديثة ويعتبر نظام هؤلاء الديني مثلاً لهذا القول إذ مع أن هذا النظام هو نظام ثانوي من أنظمة الدين الأساسي، فهو لا يحاول زيادة عدد معتنقيه. وبنفس الوقت لا تسمح بردة أبنائه عن مذهبهم وهو بذلك يشكل مجتمعاً عرقياً مغلقاً له قاعدته الأرضية الخاصة به ولولا أن (المورمون) في أوتاه Utah في الولايات المتحدة قد تطوروا وانسلخوا عن عزلتهم وانشأوا مؤسساتهم الخاصة بالمؤمنين الجدد لاعتبرنا هذه الفئة فئة مثالية على الأديان أو المذاهب المتفرعة التي أصبحت عرقية.

وهنالك نوع آخر من الديانات الهامشية وهو الدين العالمي غير الناجح الذي ربما أُتيح له البقاء كدين مختص بشريحة معينة من المجتمع. فحراكة البراهموسماج Brahmo Samaj يمكن اعتبارها ديناً جديداً وصل إلى هذه الدرجة ولكن الجانية Jainism وهي دين معاصر للبوذية قد حصل على نجاحٍ محدد في الهند وأصبح محصوراً كدين طبقي يختص بالطبقة الوسطى من السكان المدنيين في غربي الهند. وهنالك إحدى الطوائف ذات الصفة الطبقية المنبثقة عن (الجانية) تمتاز بأنها لا تقبل انضمام الفلاحين والزراع إلى صفوفها وذلك لأنها تعتبر أعمال الفلاحة والزراعة مدنسة لأنها تشمل على تخريب واستئصال بعض الحياة النباتية الصغرى. وأما السيخ فإن معظم رجاله من الفلاحين والمزارعين من البنجاب. ومع أن ديانة السيخ تحتفظ بنواياها العالمية إلا أنها لم تنسلخ أبداً عن معتنقيها البنجابيين وبقيت ديانة هامشية ذات صفات عرقية حديثة. وهنالك بعض الطوائف البروتستانتية الأمريكية مثل طائفة الأميش Amish تمتلك صفات هامشية مشابهة ضمن المجتمع الأمريكي. وتعمل خلال ذلك المجتمع بشكل مستقل نوعاً ما يشبه الأنظمة المغلقة الثانوية تقريباً.

إن الديانات الرسمية الدولية تمثل نوعاً آخر من الديـانات الـطبقية خصوصاً عندما تصبح ممارسة تلك الأديان إحدى الامتيازات التي تتمتع بها الطبقة الحاكمة. وقد كان هذا النوع هو الصفة المميزة للديانة الرومانية الأمبراطورية حيث كان القيصر هو الإله وروما هي الآلهة ثم ظهرت عبادة إله الشمس سول انفكتس Sol Invictus. وهكذا شكلت الديانات الرسمية عنصراً من العناصر الطبقية في أديان مصر القديمة والصين الكونفوشوسية.

ولا يسعنا ألا ذكر كلمة عن الأديان ذات الاتساع والمدى المحدود. فقد وُجدت هنالك بعض المعتقدات الشخصية وأشكال العبادة التي اعتنقها بعض الأفراد وبعض المجموعات الصغيرة المنظمة. وهذا يشمل معتقدات بعض الهراطقة والملحدين وأنواعاً أخرى من اللاّأدريين[1] الذين لم تجمعهم أية رابطة من الروابط.

لقد بدأت الأديان السماوية كأديان شخصية متميزة زمنياً. وقد انحصرت في أول أمرها بحفنة من الرجال المؤمنين والمخلصين لها ولا شك أن كثيراً من الأديان التي ادعت الوحي، لم تتطور أكثر من تلك المرحلة واختفت نهائياً.

ولقد ظهرت بعض الأديان التي أوحى بها وابتدعها بعض الحكام أو المتنفذين. ومع أنها نالت القبول مدة من الزمن إلا أنها فشلت في البقاء بعد موت مبتدعيها وكمثل على هذه نجد ديانة أخناتون التوحيدية في مصر التي حاول بها الفرعون أخناتون خلق ديانة رسمية للدولة تعتمد على التوحيد. وكذلك محاولة الأمبراطور جوليان إعادة تنظيم الديانة الوثنية في القرن الرابع الميلادي كرد فعل لانتشار المسيحية. وكذلك (الدين الإلهي) الذي اخترعه الأمبراطور المغولي (أكبر) Akbar عندما واجهته مشكلة حفظ السلام بين أتباعه الذين كانوا معتنقين أدياناً مختلفة. وكذلك المذهب الذي اخترعه

(١) اللاأدريين agnostics هـم جماعة يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها (المترجم).

روبسبير وهو ديانة الكائن الأعظم والطبيعة وقد انتشر هذا الدين واعْتُبر الدين الوطني القومي أثناء الثورة الفرنسية.

إن اختلاف الأنظمة الدينية التي ذكرنا قسماً منها يختفي وراء الاحصاءات التي تخص الأديان الكبرى. فالجدول رقم (١) هو محاولة لتقديم صورة عن الأديان العالمية ككل. وقد حصلنا على المعلومات من عدد من المصادر ولكن الأرقام تقريبية. وقد اعتبرت المعلومات الواردة منطبقة على العالم المؤلف من ثلاثة بلايين نسمة كما كانت الحالة في منتصف الستينات أي عام ١٩٦٣ والأرقام هنا عبارة عن تقديرات إجمالية.

الجدول رقم (١)

أديان العالم في عام ١٩٦٣

تمثل الأرقام التي تشير إلى الأعداد «بالمليون»

الديانة	الأعداد الإجمالية	الأعداد التفصيلية للمذاهب	المجموع العام
الأنظمة الدينية العرقية			١,١٧٤ مليون
الأنظمة القبلية البسيطة	١٥٠		
اليهودية	١٣		
الشنتوية	٣٥		
الديانات الفيتنامية والكورية	٣٦		
الديانات الصينية	٥٤٠ ؟		
الهندوسية	٤٠٠		

الأنظمة الدينية العالمية			١٥٥٧ مليون
البوذية	٢٤٠		
الثيرافادية	-	٦٥ ؟	
الماهايانية		١٧٥	
المسيحية	٨٩٧		
الكاثوليكية		٥٣٠	
البروتستانتية		٢٦٠	
اللوثرية		٧٠	
البرسبتارية والكلفينية		٤٥	
المعمدانية		٤٠	
الأنجليكانية		٣٠	
الميتودستية		٣٠	
فروع أخرى		٤٥	
الديانات الشرقية	١٠٧		
الأرثوذوكس الروس		٥٠ ؟	
أورثوذوكس شرقيون آخرون		٥٧	
الإسلام	٤٢٠		
أنظمة ديانات هامشية			١٤
السيخ		٧,٥	
الكاودای والكوندوكيو؛ الخ		٤,٥	
الجانية		٢	
أديان صغرى غير منتسبة لأي نظام ديني			٢٥٥
مجموع الأديان في العالم			٣٠٠٠

الفصل الثاني

الأنظمة الدينية والقواعد الجغرافية

تستطيع الجغرافية مساعدتنا في تقرير تلك الحقيقة وهي إلى أي مدى كانت الأنظمة الدينية أو عناصرها المؤلفة لها معبّرة عن ظروف البيئة. ولهذا فنحن بحاجة للحرص على الدقة والعناية التامة عند استعمال المدلولات الجغرافية والتاريخية حتى نتجنب الوقوع في ذلك الخطأ الذي ذكره ايرتيس إسحق Erich Isaac ودعاه «بالمغالطة البيئية». وقد حدثت هذه المغالطة عندما استخدمت الجغرافية بشكل غير مناسب في صياغة التعميمات البيئية لتفسير أصول الأديان والممارسات الدينية.

مثلاً يفسرون قداسة نهر الكنج بالنسبة للمعتقدات الهندوسية بما يلي: «إن هذا النهر ذو أهمية اقتصادية كبرى بالنسبة للشعوب التي تعيش حول ضفتيه وهكذا فقد استحوذ هذا النهر على الاحترام وبالتالي العبادة». ويبدو هذا الرأي معقولاً ومقبولاً وهذا ينطبق على النيل واهب الحياة لمصر كنهرٍ مقدس. ولكننا نجد قداسة نهر الكنج ممتدة من منبعه إلى مصبه وهي قوية في مفعولها في المناطق التي يصعب الوصول إليها والاستفادة منها كما هي في المناطق الكثيفة السكان. وليس نهر الكنج هو النهر الوحيد المقدس في الهند، فهنالك درجات من القداسة على نفس مستوى قداسة الكنج تُعزى لأنهار أخرى في الهند، مثل نهر نارٻادا Narbada المقدس ولكن هذا النهر ليس له أية قيمة اقتصادية تُذكر.

وهكذا نجد أن قداسة نهر الكنج ونهر نارბادا وكافيري Kaveri وغيرها من الأنهار الهندية لم تنشأ من اعتبار النهر جزء من نظام بيئي كبير. ففي الهند يعتبر الماء الجاري مطهّراً ولهذا نرى أن فرصة إزالة التلوث والقذارة التي يتمتع بها نهر الكنج وغيره من الأنهار هي التي جعلت هذه الأنهار ذات صفة طقوسية مقدسة بالنسبة لغيرها من الجداول ومجاري المياه الموجودة.

وهنالك قضية لها علاقة بالبيئة وقد أصبحت مجالاً للشك وعدم التصديق وهي قضية أصول الفكرة التوحيدية في الأديان. ففي القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين كانت الصحراء أو بالحري الحياة البدوية الرعوية تعتبر مصدر المفاهيم التوحيدية. فقد كان المؤرخ الفرنسي في القرن التاسع عشر (ايرنست رينان Earnest Renan) ينادي بهذه المقولة «الصحراء هي التوحيد» فقد ذكر هؤلاء العلماء والباحثون أن منظر القبّة السماوية المرصعة بالنجوم وخشونة الحياة الصحراوية والشعور بتفاهة الإنسان كل ذلك أنتج الفكرة التوحيدية فالمجتمع البدوي الرعوي يتصف بالشيخيّة. فقد كان هنالك زعيم أعطي مسؤولية تنسيق الأمور السريعة الضرورية لمجموعة من البشر سريعة الحركة تواجهها مقتضيات ومستلزمات الحياة اليومية. فوجود إله أبوي لديه اهتمام حميم بمصالح القبيلة هي الطريقة التي تمّ بها التعبير عن الوحدانية كإبرازٍ للترتيبات العادية الطبيعية للحياة الرعوية.

وعدا عن أولئك الذين ينتمون إلى الأديان العالمية التاريخية، هنالك بعض المجموعات البدوية الرعوية التي لديها اعتقاد بوجود إله السماء الأعظم. وهذا الإله يكون أحياناً إلهاً لا يعمل شيئاً ولا يُعبد بنشاط ويرافقه عادة عدد من الآلهة الصغار ذكوراً وإناثاً. ولا ينحصر هذا المفهوم بالرعاة فحسب، بل هنالك بعض الأديان العرقية البسيطة للمجتمعات البدائية التي لديها اعتقاد بوجود إله عالٍ سامٍ غالباً ما يُعتبر كخالق وحافظ لهذا العالم. وكل هذه الأديان البسيطة وجدت في الصحراء وفي الغابات الاستوائية وفي أراضي التندرا.

ولكننا نجد بنفس الوقت أن المفاهيم التوحيدية في الفترة الزمنية فيما قبل المسيحية لم تكن شائعة لدى جميع البدو الرعاة. فقد كان العرب قبل الإسلام يعبدون الشمس والقمر ولم تكن محصورة أيضاً بالرعاة البدو أو أنسالهم من الحضر. فقد وجدت تصاريح وأقوال مبعثرة عن أفكار توحيدية يُفهم منها عبادة إله واحد، في أمكنة أخرى مع وجود بعض التطورات المجهضة لمؤسسات وأنظمة معتمدة على تلك الأفكار. فقد ظهرت هذه الأفكار في الدين الذي أسسه أخناتون في الألف الثاني ق. م وكذلك في الديانة الزرادشتية في بلاد فارس في القرن السادس ق. م وفي الفلسفة الرواقية اليونانية.

والشيء الملاحظ أن جميع هذه التطورات قد حدثت بين مجموعات صغيرة من الشعوب الذكية المثقفة التي تعيش قرب أو ضمن بعض العواصم في الحضارات المتقدمة. وتظهر هذه المعتقدات كمحاولات لسيادة النظام الذي يجب أن ينسجم مع التنظيمات السياسية السائدة في بيئتهم. ولا يبدو أنه من المحتمل أن تكون هذه المفاهيم التوحيدية التي حملها الشعب الصحراوي المهاجر البدوي قادرة على تقديم وإيجاد مفاتيح الحل لتلك التطورات العقلية. وفي حالة تلك الفترة الطارئة القصيرة الأمد التي سادت بها عبادة (أتون) الإله الواحد المتمثل بالشمس في مصر نجد أن قرب حضارة وادي النيل من الطرق التجارية للبدو السوريين تشير إلى عكس الواقع أي إلى تسرب المعتقدات من الحضارات العالية إلى الشعب البدوي الهامشي. وهذا أمر منتظر في زمن كان فيه الرعاة في الأراضي المجاورة للحضارات الكائنة على ضفاف الأنهار العظمى، مجرد مجموعات ذات ثقافات هامشية، تصل إليها الأمور والشؤون الثقافية من داخل ضفاف الأنهار العظمى بدلاً من العكس. وأما قضية العبرانيين وتظاهرهم بالتوحيد ورحلتهم من مصر فإن أفضل تاريخ يمكننا الاعتماد عليه بالنسبة لتلك الحوادث طبقاً للنصوص التوراتية فهو الزمن الذي تلا عصر أخناتون ويتساءل البعض فيما إذا كان اليهود قد أخذوا الأفكار التوحيدية من أخناتون.

إن الفكرة التوحيدية الأخلاقية يمكن أن تكون قد نشأت بسبب الحاجة لجلب النظام العقلاني لعالم مؤلف من عدة ثقافات وطبقات. فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الفكرة سوف تصور وتوضح العلاقة بين المجالات الدينية وبين الأبعاد الاجتماعية التي تستوعب هذه المجالات. فالقبائل الرعوية مثل العبرانيين والدول الصغيرة مثل دولة اسرائيل ويهودا القديمة ربما امتلكت بعض المفاهيم بوجود أب عالمي والطموح نحو إنشاء أخوةٍ عالمية. وإن ايديولوجية بسيطة من هذا النوع ليست فريدة بأي شكل. فهنالك كثير من الأديان القبلية البسيطة تمتلك بعض المفاهيم حول مجتمعات بشرية عالمية والتزامات أخلاقية عالمية مع أن مفاهيمها الإنسانية ربما كانت محدودة بآفاق جغرافية ضيقة، مثلاً يعتقد شعب بورونـدي Burundi أن كازيكـا مونتـو Kazikamuntu (وهذه الكلمة ربما تعني أصل الإنسان) هو جد جميع البشر. فقد أنجب أطفالاً كثيرين منها جاتوتسي Gatutsi وجاهوتو Gahutu وجاتوا Gatwa وهؤلاء ربما كانوا أجداد القبائل البوروندية الثلاثة وهي التوتسي Tutsi والهوتو Hutu والتوا Twa وقد قتل جاتوا Gatwa أحد أخوية ولهذا فقد أنزل والده عليه اللعنات.

ومن خصائص الأديان الأخلاقية أن تشتمل قوى ما وراء الطبيعة التي لها علاقة بخلق البشرية، علاقات خاصة بالقبيلة أو الأمة. ويمكن التعبير عن هذه العلاقات خلال بعض أعمال الخلق أو الوحي أو العطف، وهذه العلاقات لا يسهم بها الآخرون ولا يمكن أن تُوجد ما لم تَمتصها القوى العرقية أو التقاليد الثقافية الموروثة للمجموعة المفضلة.

إن الأحوال الجغرافية التي تتحدى هذه الأوضاع الضيقة وتسمح بتطور دين عالمي حقيقي ما هي إلا الأمبراطورية السياسية أو التجارية. إذ يجب أن تحدث هنالك عدة انتفاضات ثقافية حماسية في عدة أقنية مع تبادلات ثقافية تحدث في عدة عُقد. ففي العقدة الرئيسية يجد الإنسان مجموعة من المجتمعات العرقية من التجار والصناع والمثقفين والجنود والعمال ولا يكفي

هذا الوضع بذاته لخلق حالة من الانجراف الكلي نحو ديانة عالمية. ففي بعض الظروف يمكن ظهور ترتيبات أخرى مثل نظام (الملّة) في الامبراطورية العثمانية (انظر الفصل الخامس). لقد ساعدت التنظيمات السياسية والاقتصادية في الامبراطورية الرومانية على تنمية الوحدانية العالية خلال الديانة المسيحية فالرسالة المسيحية الأولى كانت موجهة لليهود كمجموعة قومية في زمن كان مواتياً ومناسباً لنمو شعور الشمولية مع الأمم العظمى على الأرض والتعايش مع تلك الأمم. ومع ذلك فلم تستطع المسيحية بتعاليمها أن تجتذب سوى حفنة أو فئة قليلة من الأتباع في موطن المسيح. أما خارج فلسطين فقد انضمت الملل التي تشمل على مهاجرين من مختلف الأجناس ومن المجتمعات اليهودية أيضاً إلى الدين الجديد.

ولكن علينا ملاحظة مظهرين من مظاهر المجتمعات اليهودية. إذ قبل تخريب الرومان للهيكل في أورشليم كان كل يهودي خارجي يُعتبر يهودياً من الدرجة الثانية. فقد تعرض اليهود في الخارج لممارسات ثقافية غريبة أكثر من اليهود في الداخل وهكذا أصبح هؤلاء البعداء عرضة للتغيرات الثقافية. وقد قبل اليهود فيما وراء البحار بعض التقاليد غير اليهودية من خلال الاتصالات والأحاديث وخصوصاً في ميناء الإسكندرية. وهكذا أصبح هؤلاء اليهود الجدد مستعدين لتقبل ديانة عالمية مؤسسة على الديانة اليهودية.

ولقد تحقق احتمال الانتشار الايديولوجي للديانة المسيحية عندما أعطى القديس بولس شكلاً عالمياً لتلك الديانة وذلك بإعلانه أنه ليس من الضروري أن يمارس المسيحيون التعاليم والقوانين اليهودية التقليدية. وهكذا انتشرت المسيحية وامتدت نحو العناصر العرقية الأخرى في المدن الواقعة على الطرق التجارية بما فيها روما نفسها. فقد كان السكان المدنيون شأنهم شأن اليهود في وضع عرقي متدني ولكنهم لم يكونوا متحمسين لممارسة الديانة الرومانية الرسمية. فقد كانت الديانات الشرقية منتشرة في عدة ولايات في الامبراطورية الرومانية. وعندما تبنّت المسيحية الشكل الاجتماعي الشائع للديانات الغامضة

السرية، أصبحت ديانة جذابة وخصوصاً بين الطبقات الفقيرة المسحوقة وكانت الأقلية الصغرى التي راق لها هذا الدين موزعة أولاً في المراكز المدنية في الامبراطورية الرومانية. وقد ساعد على ذلك الانتشار للديانة المسيحية شبكة الطرق الرائعة التي تصل مراكز الحاميات الرومانية بعضها بعضاً. وقد فتحت الأسواق التجارية الكبيرة مثل أنطاكية والاسكندرية طرقاً إضافية لتوسع المسيحية. وقد اعترف ايرينايوس Irenaeus أحد آباء الكنيسة في القرن الثاني الميلادي صراحة بأهمية حالة السلم التي كانت سائدة في الامبراطورية الرومانية وفضلها على انتشار الديانات المسيحية وهو يقول: «إنه بفضل الرومان، نستطيع السفر دون خوف أو وَجل على جميع الطرق وتحملنا السفن إلى حيث نريد الذهاب». وبعد أن اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسميّة للامبراطورية الرومانية زادت حركة انتشار هذه الديانة في جميع أنحاء الامبراطورية وهكذا أصبحت شبكة المواصلات الامبراطورية هي شبكة الاتصال للكنيسة.

البيئة والمؤسسات الدينية:

غالباً ما يبدو الدين في الأنظمة العرقية البسيطة عبارة عن طقوس تحددها البيئة. فالدين هو الوسط الذي يستخدم لاسترضاء الطبيعة والتزلف لها أو يعالجها لتأمين أفضل النتائج بالنسبة للإنسان. وحتى في أخفض المستويات، نجد كل ثقافة تعمل بشكل اصطفائي على الاستفادة من موارد الدين المقدسة المأخوذة من المحيط والبيئة. ويصبح السلوك الديني لمثل هذه المجتمعات شرحاً وتسجيلاً للظواهر المختارة السائدة بالنسبة للأحوال الاقتصادية لذلك المجتمع. ولقد استطاع الباحثون استنتاج بعض مظاهر الطقوس والأديان التي كانت سائدة في العصور الحجرية القديمة في أوروبا من هذه الأحوال العامة السائدة بين المجتمعات البسيطة وقد اعتبرت بعض الرسوم المعروفة في الكهوف في جنوب فرنسا كتعبير عن رقصة طقوسية ترافق وتصاحب مراسم الصيد.

كما أن معظم الشعوب الحضرية (غير البدوية المتنقلة) من العاملين في الزراعة في البلدان الاستوائية والمدارية الرطبة لديهم طقوس دينية لها علاقة بالدورة الزراعية الطبيعية والعلاقة ما بين الإنسان والأرض. وهنالك عدة فئات قبلية في جنوب شرقي آسيا من المزارعين المتنقلين وزارعي الأرز يراعون بعض مراسم التقديس لكل مرحلة من المراحل الزراعية فيقيمون نوعاً من الحجر الصحي في القرى فلا يسمحون لأي شخص بالدخول إلى القرية أو الخروج منها ويمارسون نوعاً من المنع Taboo أو العزل للجميع ما عدا بعض النشاطات الخاصة. وهذه التواريخ المقدسة الموجودة في التقاويم الزراعية تُطلق عليها عدة أسماء، فشعب جزيرة منتواي غرب سومطرة يطلقون عليها اسم بونين Punen وأما شعب كايان وكيناه في جزيرة ساراواك فيطلقون عليها اسم بانتانج Pantang ويطلق عليها .شعب بونتوك Bontoc الذين يعملون في مزارع الأرز شمال لوزون Luzon اسم أوبايا Obaya. ويقوم شعب البونتوك هذا بذبح الضحايا الحيوانية مدة ثلاثة أيام في بعض المناسبات: مثلاً عند الاحتفال بحراثة الأراضي استعداداً لغرسها بنبات الأرز أو عند إعداد الشتلات الصغيرة أو بذر البذور أو عند ظهور الشتلات ونموها أو عند نقل الشتلات وزرعها في الحقول الواسعة، ويقومون بذبح الضحايا الحيوانية، استبشاراً بازهرار نباتات الأرز وعند الاستعداد لموسم الحصاد وعند إتمام الحصاد في أعياد وولائم تدوم سبعة أيام.

وغالباً ما يُعبر عن المتطلبات الزراعية بمختلف الطقوس الرمزية كالطقوس التي يقوم بها شعب الهوبي Hopi البارعون في زراعة الذرة في ولاية اريزونا Arizona في الولايات المتحدة الأمريكية إذ يقيم هؤلاء مقامات يعلوها الريش في الحقول ويقومون بنشاطات احتفالية في جميع فصول السنة وهي تشير إلى الازدهار الزراعي الذي تلعب به الذرة الدور الرئيسي. وهذه الطقوس ذات الدلالات البيئية تنحصر في زراعة الذرة والفاصولياء في غرفة طقوسية واقعة تحت الأرض وذلك في أواخر فصل الشتاء ثم زراعة بعض

العصي التي تحمل أكواز الذرة بعد إعداد الأرض ثم الاحتفالات بتشجيع نزول المطر وهذه تشمل رقصة الثعبان. وتشمل هذه الطقوس والاحتفالات الطقوسية التي تدوم طيلة العام رموزاً تشير إلى قصة التكوين حسب آراء الشعب الهوبي Hopi تماماً.

والآن نجد لزاماً علينا تأكيد الطبيعة الاصطفائية لهذه الطقوس البيئية. إذ نلاحظ أن مالينوسكي Malinowski يعتقد أن الطقوس ما هي إلا رموز للتوكيد على الأمور الغيبية التي لا يمكن التنبؤ بها فهنالك أحد الطقوس السحرية السائدة بين إحدى القبائل المالينيزية يرافقها صيد السمك في البحار العميقة وهذه العملية غير مؤكدة النتائج وصعبة وخطرة ولكن هنالك بعض الطقوس التي تشير إلى طريقة أكثر جدوى وأسلم وهي صيد السمك في البحيرات الضحلة قليلة العمق.

وفي بعض الحالات نجد الخرافات والطقوس تتبلور حول بعض العناصر البائدة والتي لم يعد لها أثر في بيئة بعض المجموعات البشرية. فهنالك بعض الشعوب التي تحولت من حالة الصيد إلى الزراعة، لا تزال تحتفظ ببعض الطقوس المتعلقة بالصيد ولا تقيم وزناً للطقوس الزراعية. وكذلك هنالك بعض المجتمعات الزراعية التي تحولت إلى الأعمال التجارية لا تزال محتفظة بالطقوس الزراعية والنباتات.

إن سيادة كلا الثقافات الاصطفائية التي تقدس اقتصادياتها من خلال الطقوس، وسيادة الاهتمام والإصرار على إحياء الطقوس البائدة، تظهر بشكل واضح وعلى مستوى البيئة بمقارنة بين الأطعمة الطقوسية الرئيسية المستعملة في منطقة حوض البحر المتوسط ومثيلاتها في شمال الهند. ففي الديانة اليهودية رغم بيئتها الرعوية، تأكل الخبز وليس اللبن هو الغذاء الطقوسي المفضل. وإن طبيعة الاختيار والاصطفاء سائدة في معظم الديانات والأنظمة الدينية المختلفة في مناطق حوض البحر المتوسط الأخرى. فهي محفوظة في الرموز الرئيسية للقربان المقدس. أما في شمال الهند من جهة أخرى، نجد

الطعام الرئيسي المقدس لدى الهندوس هو اللبن أو مشتقاته كالسمن مثلاً، رغم اعتماد اقتصاد تلك البلاد على الزراعة والحقول الزراعية.

وعندما يصبح المجتمع والاقتصاد أكثر تعقيداً تزداد الرمزية والتجريدية في الشؤون البيئية إذ تصبح العملية منحصرة في الانتقال من الأنظمة العرقية إلى الأنظمة العالمية ولتوضيح هذه العملية علينا أن نلقي نظرة للمقارنة بين الطريقة التي تعالج فيها الدورة البيولوجية السنوية في التقاويم الدينية لكل من الديانة اليهودية والمسيحية والإسلام.

ففي سفر تثنية الاشتراع والأسفار التالية من العهد القديم لا نجد إلا القليل من المعلومات حول البيئة الرعوية القديمة. فهنالك اهتمام والتصاق عاطفي بالأعراف والعادات التي كانت سائدة في العهود الماضية مع تقديس لتلك الأعراف ولكن النماذج الرعوية للحكم الذاتي قد سُمح لها بالانسياب والاختفاء ضمن البيروقراطية سواء الدينيون أم الدينية التي أصبحت تسود تلك الدولة الزراعية التجارية الصغيرة. فها هو الراعي قد انتقل من مقدمة المسرح الاقتصادي وقبع في المؤخرة مع أنه لم يزل يؤلف مثالاً فولكلورياً لا يخلو من القوة والمنزلة الأخلاقية. فقد استعملت الأصول الرعوية في الطبيعة العنصرية الاسرائيلية الجديدة لتقوية شخصيتها وهكذا أصبحت العناصر المقدسة والمجتمعات الفلاحية الأخرى ممقوتة ومكروهة كالخنزير وهي التي كانت ترافق الطقوس الوثنية للخصومة والتي يحتقرها الرعاة فهي تشير إلى الشعب الذي هو عبد من عبيد الأرض.

ولم يكد الألف الأول ق. م ينتهي إلا وقد بدأت الأنظمة الدينية اليهودية تتبلور وتتخذ الهيكل والكهانة والأماكن المقدسة الثابتة بين تلال يهوذا والحج إلى الأماكن المقدسة وأصبحت التقاويم الدينية مرتبطة ببيئة البحر الأبيض المتوسط ذات الزراعة الجافة للحبوب الشتوية (القمح والشعير) وزراعة الأشجار المثمرة ثم الاهتمام بتربية الأغنام والماعز.

والآن نجد أن محيط وبيئة البحر الأبيض المتوسط وفصوله الزراعية

أصبحت محدودة في مدى انتشارها ولا تشمل إلا على واحد بالمئة من مجموعات مساحة الأراضي. وتتميَّز البيئة الجغرافية في حوض البحر الأبيض المتوسط بالفصول الشتوية اللطيفة الماطرة والجفاف التام في الصيف. ففي خطوط العرض المتوسطة على الكرة الأرضية وفي المناطق المدارية يعتبر الصيف الفصل الزراعي الرئيسي الوحيد ما عدا في الأماكن التي تُتبع فيها تقنية خاصة متطورة في الزراعة.

كما أن فصل الخريف في أراضي البحر المتوسط لا يعتبر فصلاً يصلح لتقديم الشكر على العطايا والهبات التي وُهبت أثناء فصل الصيف الذي يسبقه ولكنه هو الزمن الذي يتميز بإعداد الأرض من جديد لاستقبال الموسم الزراعي الشتوي وهنالك يعتري الفلاحون الخوف وهم ينتظرون المطر الباكر أثناء شهري تشرين الأول وتشرين الثاني إذ أن ذلك يوقعهم في موقف حرج خوفاً من فشل الموسم الزراعي الشتوي ولكن قسوة الخريف لا تكون عادة عامة ومطلقة بل هنالك تبقى بعض المخزونات من الحبوب التي لم تستهلك بعد وتنتج بعض النباتات المعتادة على الجو الخريفي بعض المحاصيل في أواخر هذا الفصل وينطبق هذا على أشجار الرمان والتين وفوق الجميع كروم العنب. وقد انعكست هذه الظروف البيئية في وجود أيام الخريف المقدسة.

وأما فصل الربيع فهو شيء آخر إذ يضم في منطقة حوض البحر المتوسط كلا البهجة والحبور لتجدد السنة وولادتها من جديد ولما فيه من جني المحاصيل. ففي الهند وأثناء الأمطار الموسمية، عندما تبدأ سوق النباتات بالنمو قبل الحصاد، يرمز إلى هذه الفترة بالتقشف ويتضمن التقويم اليهودي وجود فترة من الصيام وهي عبارة عن نوع من العزل والمنع Taboo الاحتياطي ولكن لم تظهر مثل هذه المظاهر في المسيحية إلاَّ في القرن الرابع الميلادي وتنعكس خصائص الربيع في منطقة البحر الأبيض المتوسط في الباسوفار اليهودي وعيد الفصح المسيحي. ويعتبر المفهوم الفصلي لعيد الفصح في منطقة البحر الأبيض المتوسط مختلفاً عنه في أوربا الشمالية. ففي كلا

المنطقتين يظهر التجدد البيولوجي في ظهور الأزهـار على أشجار الفواكه وولادة العجول والخراف الصغيرة. ولكن في منطقة البحر الأبيض المتوسط يُعتبر الربيع أيضاً موسم مكافأة العمل والممارسات الدينية الصحيحة. ففي شهر نيسان تنتهي إزعاجات الشتاء وتمتلىء الحقول بالحبوب التي تكاد تنضج وتكتسي التلال بالأعشاب الخضراء النضرة حيث ترعى القطعان وتسمن ويعتبر هذا الفصل بالنسبة للرعاة والفلاحين فصل الوفرة والخير. وهكذا فهو فصل الشكر وهو عبارة عن عطلة حقيقية شعبية. وقد أوصت الأديان العرقية بالقيام بالتنظيف في هذا الفصل بشكل طقوسي وببعض الممارسات الدينية العامة التي تشمل ذبح الأضاحي لأول ما ينتج من الحيوانات وأول ما ينتج من محاصيل الحقول.

إن فصل الباسوفير (عيد الفصح عند اليهود) لا يعتبر نهاية الدورة الزراعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ويقول العهد القديم «سوف تدونون سبع مرات في سبعة أيام وعندما يبدأ المنجل في حصاد الحبوب تبدأون في التدوين مدة سبعة أسابيع». وهكذا فإنه بعد انقضاء سبعة أسابيع من بداية حصاد الشعير حتى نهاية حصاد القمح، يصل المرء إلى آخر عطلة مقدسة بالنسبة لتقويم العهد القديم قبل بداية الصيف الجاف في شابوث Shabuoth وهو عيد الأسابيع.

وتتخذ هذه الأعياد الزراعية الرمزية معانٍ رمزية إضافية من التاريخ المقدس. وكلا النوعين من المعاني المقدسة احتفظ بها في أدب الشتات اليهودي. وهذا ما يجعل اليهودية ديناً عرقياً عنصرياً. فالأعياد اليهودية لا تزال تقام على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كما كانت تحدث قبل ثلاثة آلاف عام وتقدم أول تباشير الفواكه في نيسان حيثما يكون اليهودي ويسجل التدوين مهما كان اليهودي بعيداً عن حقوله وعن الحبوب الموجودة ولا يستثنى من ذلك إلا بعض حالات خاصة.

ولكن المسيحية احتفظت بجزء بسيط فقط من التقويم اليهودي المقدس

إذ أنها بعد أن نبذت الشيء الكثير من ذلك التقويم وتحررت من قيود المكان استطاعت أن تصبح من الأديان العالمية بنجاح. وقد احتفظت الديانة المسيحية بالحوافز والدوافع لعيد الفصح وهي تقديم القرابين والضحايا ثم الاعتقاد بالبعث والنشور وإن الرمزية التي تشمل ذبح الشاة في يوم عيد الفصح تؤلف عنصراً هاماً هنا. ففي اللغة اللاتينية واللغات الرومانية هنالك اسم مشابه للاسم العبري بما يختص بعيد الفصح ويختلف هذا الاسم في شمال أوروبا حيث لم تنتشر المسيحية إلا بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي. وقد كانت شعوب شمال أوروبا تحتفل بقدوم الربيع بعد برد الشتاء القارص وذلك بإحياء إلـهة فصل الربيع لديهم وهي استار Eastre أو أوستارا Ostara. ولما كان الاحتفال بعيد تلك الإلـهة يصادف الزمن المسيحي لهذا احتُفظ باسمها بينما بقيت بعض الرموز الوثنية الخاصة بذلك الفصل في العادات والتقاليد الشعبية هناك.

وقد بقيت بعض المذاهب والأديان الوثنية الشائعة في التقويم المسيحي المقدس بينما حذفت وألغيت الأعياد اليهودية الباقية. ويميل العلماء الآن إلى اعتبار ميلاد المسيح في أواخر الصيف أو أوائل الخريف أي حول الزمن الذي تبدأ به السنة اليهودية. ولكن الكنيسة في أوائل عهدها لم تحتفل بميلاد المسيح. ولم يتعين تاريخ ميلاد المسيح إلاّ فيما بعد عندما اقترن بميلاد إله الشمس في الامبراطورية الرومانية Sol Invictus وهو يصادف الانقلاب الشمسي الشتوي.

ولما كان التقويم المسيحي غريباً بالنسبة للمجتمعات الأوروبية غير المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط، لذلك فقد وجدت فجوات بالنسبة للاحتفال بموسم الحصاد. وهنالك إشارات للاحتفالات الوثنية التي كانت تجري في ذلك الفصل. وإن نجاح الاحتفال بيوم الشكر وهو يوم شبه ديني ينسخ إحدى الظواهر المتبعة في ديانات الهنود الحمر في أمريكا وأن ثبات هذا العيد في البيئة الأمريكية يدل دلالة واضحة على عدم جدوى التقويم المسيحي عندما

يستعمل خارج عالم البحر الأبيض المتوسط.

ويظهر التقويم المسيحي بشكل غير ذي جدوى أيضاً في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية حيث يصادف عيد الفصح في الخريف وعيد الميلاد في أوائل الصيف وهكذا يفقد المفهوم الرمزي معناه وتظهر بعض الاصطلاحات الرمزية المغلوطة في الديانة المسيحية فكلمة الراعي الصالح التي تطلق على المسيح لا تُفهم بهذا الشكل عند الشعوب التي تسكن بين المدارين وكان على المبشرين الذين حملوا الرسالة المسيحية لمثل تلك الشعوب أن يبذلوا جهدهم لاستعمال رموز أخرى بدل الرموز التقليدية.

أما التقويم الإسلامي فقد انسلخ كلية عن قيود البيئة. فالوحدة الرئيسية الزمنية في التقويم الإسلامي هي الشهر القمري (كما هو الحال عند اليهود والبوذيين) وتؤلف السنة القمرية إثنا عشر شهراً أو ٣٥٤ يوماً. وقد عمدت معظم التقاويم القمرية إلى إجراء تعديلات على تقاويمها بحيث تتناسق مع السنة الشمسية التي هي - ٣٦٥ يوماً وربع وذلك بإضافة شهر قمري ثالث عشر في بعض السنوات. أما الإسلام فلم يفعل ذلك بل تبع الأوامر القرآنية فالشهر القمري عند المسلمين كشهر رمضان مثلاً حيث يحدث الصيام طول النهار في ذلك الشهر ينساب هذا الشهر خلال الفصول فتارة يأتي في أيام الصيف وتارة في أيام الشتاء وتارة في أيام المطر وتارة في أيام الجفاف دون النظر بعين الاعتبار بالتغيرات المناخية ويتم الحج إلى مكة المكرمة في شهر ذي الحجة سواء أتى هذا الشهر في الصيف أم في الشتاء فإن القيام بفريضة الحج تتم في هذا الشهر بغض النظر عن الضرر الذي يلحق بالفلاحين في مصر مثلاً عندما يأتي موسم الحج في زمن المواسم الزراعية أو بزارعي الأرز في الباكستان.

وهكذا نرى التقويم الإسلامي متحرراً من قيود البيئة ويظل ذلك التقويم برنامجاً للممارسات الطقوسية والتعبدية التي يمكن ممارستها في أي فصل من فصول السنة أو أية بيئة مناخية دون تفريق بين شمال خط الاستواء أو جنوبه. والسبب في ذلك أن مكة والمدينة وهما قبلتا الإسلام ومهده كانتا تعتمدان

على التجارة إلى الأماكن القاصية أكثر من اعتمادها على الخدمات الزراعية في الداخل. وكانت للقوافل البرية والتجارة البحرية أنظمة موسمية ولكن ميكانيكية العمل التجاري كانت تخفف من أهمية الفصول وقد ضعفت أهمية الفصول بالنسبة لسكان المدن بسبب المسافة البعيدة التي تفصل المدن نفسياً واجتماعياً عن المزارعين في المدن كما ظهر في المواقف الإسلامية الأولى (انظر الفصل الثالث) وكان الفلاحون يزرعون الأرض طبقاً لتقويم يعتمد على السنة الشمسية وهذا يتطلب وجود تقويم محلي يحدد الحوادث الزراعية بالنسبة للتقويم الإسلامي في أية سنة مُعينة. وهنالك تقاويم زراعية في اليمن وحضرموت حيث هنالك نظام لتحديد الزمن يعود إلى ما قبل الإسلام ويستعمل الهندوس التقويم القمري في البنغال وكذلك التقويم الشمسي جنباً إلى جنب كما هو الحال في سوريا وتركيا ومصر.

لقد لاحظنا الصفات القديمة للسمات والميزات الطقوسية السائدة بين المجتمعات القبلية ويلاحظ أيضاً في هذه الأيام البطء الذي تسير به الأديان العالمية بما فيه الديانة المسيحية في التكيف حسب أحوال البيئة لدى بعض المجتمعات الصناعية الراقية. إذ نحن نرى أن اليهودية والمسيحية لا تزالان تسيران ضمن خطوط المجتمع السائدة قبل الانقلاب الصناعي وان درجة السرعة والنشاط في العالم الغربي في الوقت الحاضر قد جعلت ذلك النظام نظاماً بائداً من الطراز القديم. إذ ما هي الأهمية التي يمكن أن تكمن في التشديد على عطلة يوم السبت في مجتمع مستعد لاعتناق فكرة العمل مدة أربعة أيام فقط في الأسبوع. وما هي المناسبات الخاصة في هذا المجتمع التي تستدعي وتتطلب وجود نظرية التبرير والتطهير من الخطيئة؟ إذ أن هذه الأشياء توجد في التقاويم شبه الدينية في الأيام القديمة التاريخية والأيام التي تحيي ذكرى مناسبات وطنية وعالمية، كعيد أول أيار وأعياد الشهداء وما نتج عن الانقلاب الصناعي من أحداث.

الفصل الثالث

الدين والأرض

إن أحد اهتمامات جغرافية الأديان هو كيف أن الأرض تقدم سجلاً للأنظمة الدينية ومؤسسات هذه الأنظمة المرافقة لها ونماذج عن السلوك الديني. ولقد حصلت محاولات لمعرفة الظواهر الأرضية البارزة المرافقة للأنظمة الدينية التاريخية القديمة والمعاصرة ولكن لم تحصل إلا محاولات قليلة لتقدير شدة وزخم التأثيرات الدينية على الأرض. وسوف نُناقش هنا بعض الأمثلة حول أثر الديانات في تحول الطبيعة الأرضية وسوف نؤكد على بيان الفروق بين الأنظمة الدينية المختلفة.

التعبيرات الإيجابية للدين بالنسبة لطبيعة الأرض:

إن شكل وتوجيه وكثافة المنشآت الدينية واستعمال الأرض لأغراض الدفن وعمل المقابر والمجموعات الخاصة من النباتات والحيوانات المستعملة للأغراض الدينية هي من بين التأثيرات والمظاهر التقليدية للأنظمة الدينية على الأرض. وبينما نجد أن البنود المذكورة أعلاه غير كافية، إلا أنها تشير إلى الأعمال والأبحاث التي قد جرت حتى الآن والخطوط التي جرى عليها البحث.

المنشآت المقدسة:

ليس هنالك من توزيع واسع أو بارز للمنشآت الدينية المقدسة بين الأديان العرقية البسيطة حيث تكون العلاقات البيئية علاقات مباشرة وعميقة.

فهنالك بعض الأشياء والمنشآت المقدسة ولكن هذه المنشآت ليست عادة من نوع ممتاز. إذ يمكن أن نرى كومة من المنازل ربما أكثر فخامة مما حولها، وهذه تمثل مركزاً من مراكز العبادة للفلاحين الأندونيسيين الذين يمنحون العيد معنى دينياً. وعادة تكون الرموز الدينية للشعوب البدوية مما يسهل نقله وحمله، كتابوت العهد بالنسبة لليهود أو مخصصاً لأغراض موقتة مثل مذبح الأرض المنصوب في عدد من المواقع المقدسة.

هنالك تحديدات بيئية ظاهرة لمفاهيم الإنسان بالنسبة للأماكن المقدسة وللطرق التي يتبعها الإنسان في تعيين الأماكن المقدسة حوله ومع ذلك ففي بعض المستويات التقنية المشابهة تحدث تغيرات واضحة في شكل وفخامة المنشآت المقدسة. وهنالك بعض المنشآت المقدسة في بعض المجتمعات في مراحل ما قبل الأمية تظهر فيها فخامة وإبداع أكثر من المنشآت الأندونيسية كما أنها لا تخلو من الأعمال التقنية. ولكننا نجد أن مثل هذه المنشآت المتطورة توجد حيث تكون هنالك بعض الشرائح الراقية في المجتمع وبعض الكهانات المتطورة كما هو الحال في المناطق الشرقية من بولينيزيا، حيث توجد طبقة من الكهنة المتميزين وكذلك من المجتمع. فالأماكن المقدسة في القرى هناك تحتوي على مصاطب حجرية هائلة محاطة بحجارة ضخمة بشكل مسلات. إن وجود هذه الأنصاب المقدسة توحي لنا بطرح بعض الأسئلة والتساؤلات حول البيئة والتنظيمات المكانية للمجتمعات في تلك الأمكنة. وكم نصيب تلك المجتمعات من الحضارة عندما نجدهم قادرين على بذل وتخصيص العمل والمهارات التقنية في هذه المجالات. وما هو اتساع وحجم تلك المجتمعات وهل هي عبارة عن شرائح اجتماعية منظمة مناسبة للمجهودات المبذولة؟ ويقدم لنا علم الآثار عدداً من الحالات المدهشة كوجود منشآت دينية فخمة يرافقها قواعد تقنية بسيطة ونجد قبور الميجاليث في أوروبا مثلاً حياً لهذه الآثار والطرق والدوائر الحجرية في أوروبا على شواطىء المحيط الأطلسي والتي بُنيت في الألف الثاني ق. م وكذلك حضارات وادي

المسسبي بما فيها من أهرامات ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ. وهذه تشير إلى ظهور نظام ديني قادر على استخدام وتسخير الميكانيكيات السياسية الخاصة بالمدينة أو الدولة وقد اقترح تفسير لهذه الظواهر مجيء فيض من التقنيات الآتية من الخارج مع حوافز إيديولوجية وتقنية من المراكز الحضارية البعيدة عن تلك البلدان. وهكذا يقال بأن ثقافة الميجاليث الغربية والأطلسية التي تمثلها الدوائر الحجرية العظيمة في أفنبري Avenbury وستونهانج Stonchenge يمكن تفسيرها بانتشار المهارات والتنظيمات والأفكار الدينية التي أتت دون شك أو ريب من الموقد الحضاري الأساسي في شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط.

وإن الجهود الهائلة من العمل في سبيل إنشاء الأنصاب الحجرية مناسب بصورة أكبر للمناطق المأهولة بالسكان والمنتجة كما هي الحال في مصر زمن الأسر المالكة وفي وادي نهر المسسبي في بلاد المكسيك قبل ظهور الحضارة الأزتيكية بوقت طويل وإن التنظيمات التي صاحبت إنشاء الأهرامات تدل على أن الأنظمة الدينية التي كانت سائدة في ذلك الوقت كانت من نوع عرقي مركز ولكننا لا نعلم إذا كانت هذه المنشآت الطقوسية كان لها عمل آخر مدني وليس ديني. فالمعابد في مايان Mayan التي وجدت في غابات غواتيمالا لم تكن لتظهر أنها نواة لحضارة دينية بل كانت مركزاً من المراكز والبؤرات الطقوسية.

إن الإنشاء والترميم والاستعمال المستمر لمثل هذه المنشآت الدينية ربما خلق نوعاً من اختلال التوازن في البيئة. فنحن لا نعلم حقيقة قدرة المجتمع على تأمين العمل والمصادر دون التعرض للخطر خصوصاً إذا كان المجتمع بسيطاً وخصوصاً في الأماكن المدارية الرطبة. ففي كامبوديا وسيلان حدث ضغط على اقتصاديات تلك البلاد بسبب برامج بناء المعابد التي اقترحها الملوك البوذيون مما أدى لإزاحة وعزل المشاريع الحضارية المتقدمة. وقد كان طول السور المحيط بأراضي المعابد في كامبوديا حوالي سبعة أميال

ونصف ولا شك أن العمل قد تطلب استخدام عشرات الألوف من الشعب الذين كان يدعمهم منتوجات زراعية غزيرة. ولكن لم يبق أي أثر لكل ما ذكرناه أعلاه.

يحدث اختلال التوازن عادة عندما يعمد نُظام ديني أجنبي مثل البوذية في جنوب شرق آسيا، إلى تنظيم الاقتصاد البسيط في تلك البلدان. فالكنائس الكاثوليكية التي بُنيت في البلدان النامية كلّفت مبالغ طائلة وقد شكا الحكام الأسبان في بلاد المكسيك في القرن السادس عشر من النفقات الباهظة التي صُرفت على بناء الكنائس وقالوا أن هذه الكنائس سببت في بنائها سحب كميات هائلة من العمل الذي كان من المفروض أن يوجه إلى الاقتصاد الوطني.

وهنالك مظهر من المظاهر الواضحة بالنسبة لبناء الميجاليث والمعابد وهو الحصول على الحجارة وما يتبع ذلك من مجهودات. فقد كانت الحجارة الزرقاء تُنقل من جنوبي ويلز إلى سهول سالزبوري لإقامة الدوائر الحجرية في ستونهنج وقد كان الحافز لهذا العمل دينياً بقصد جعل تلك الحجارة مناسبة لبعض الأغراض الدينية.

وتعمد الأنظمة الدينية العرقية والعالمية إلى بناء منشآت مبعثرة ومقدسة فوق مناطق واسعة وتختلف هذه البنايات في أشكالها ومساحاتها ومتطلباتها طبقاً لحاجات النظام الدينية والإيديولوجية.

وإن اختلاف حجم وكثافة المنشآت سواء كانت كنائس وجوامع أو معابد يعتمد على وظائفها الدينية بصورة رئيسية. وهنالك فرق بين المعابد التي تضم المتعبدين فقط أو التي تضم بين جدرانها إلهاً من الآلهة ولكن في الديانة الصينية والرومانية في أوائل عهد الجمهورية كانت الطقوس الهامة تتم في البيوت وليس في المعابد. فالمعبد الصيني الذي يضم إله القبيلة أو القرية كان له أهمية وطنية خاصة، إلا أن مظهره بسيط ولا يدل على القداسة،

فالآلهة لديهم هي بحاجة إلى العناية الطقوسية بينما نجد المعبد يخدم في أداء وظائف أكثر أهمية فمعبد القبيلة هو المكان المخصص لاجتماعات ممثلي القبيلة والعشيرة فضلاً عن كونه مقراً لذكرى الأجداد وكانت الحكومة تهتم ببعض المعابد الأخرى وكان الموظف المسؤول يقوم بأداء الطقوس المطلوبة. وكانت هذه المعابد تظهر وكأنها مقر للدولة وإدارة شؤونها وكانت أحجام تلك المعابد تتناسب مع المدينة أو المكان الذي بنيت فيه.

وكان للهندوسية إلهتها المنزلية أيضاً ولم يكن للغزاة الهنود والأوروبيين شكل آخر من أشكال العبادة سوى دين الفيديك Vedic. وكان للهندوسية مقامات في القرى وقد وجدت هنالك عدة آلهة في المعابد التي تهتم بها المجموعات من الطبقات الدينية المُغلقة أو من السكان الأغنياء. وكانت المعابد الهندوسية تتمتع بثروات خيالية ويقال أن بها ما قيمته /١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠/ دولار من المجوهرات والأملاك وفي كل معبد يوجد إله واحد أو أكثر وكان المؤمنون بهذا الإله يزيدون في عددهم على عدد المؤمنين بإله آخر في أي معبد آخر. وهؤلاء لا يؤلفون جماعة من المصلين ولا مشيخات مع أن المعبد كان يعمل بإدارة مشيخات طقوسية. ويعتمد حجم المعبد وأهميته على أهمية المكان الذي وُجد فيه ذلك المعبد مصادر الثروة فيه، مع أن الحكام الإقطاعيين كانوا يقومون بقسط وافر من النفقات في سبيل بناء وترميم تلك المعابد.

والمعبد الهندوسي يتميّز عن الكنائس المسيحية والمساجد الإسلامية بكونه مسكن الإله فهو ليس بحاجة إلى فسحة داخلية كبيرة مغلقة. ويتوضع الإله بشكل مخفي بشكل حجر أو تمثال خشبي في مقام داخلي معتم ليس به من إضاءة. وفي الخارج هنالك فسحة لإقامة المواكب الطقوسية والاجتماعية العامة وهنالك سرادق وردهات ذات أعمدة، وفي جنوب الهند هنالك بوابات رائعة الصنع تخص المعبد ويحيط بالأرض التي تعتبر مكاناً مقدساً أسوار تضم أماكن سكن سدنة المعبد من البراهما ومعهم العمال الفنيون والاختصاصيون

الذين يقومون بخدمة المعبد وهنالك بركة كبيرة تصلح للقيام بالاستحمام الطقوسي للآلهة والرجال سواء.

وفي بعض الديانات الأخرى تظهر بيوت الآلهة بنفس مظاهر المعبد الهندوسي أما المعابد اليونانية القديمة فليس بها من فسحات داخلية لاجتماع الناس الذين كانوا يراقبون الاحتفالات التي تقام في العراء. وأما قدس الأقداس فهو عادة عاتم حتى يظل محتفظاً بالأسرار.

وأما الأديان التي تحتوي على طقوس تستلزم وجود جماعات المصلين في الداخل فهي تتبع نظاماً مختلفاً في ترتيب بنائها. ففي الديانة اليهودية هنالك الكنيس أو (بيت هاكنيست) وأما المسلمون فلديهم بناء يدعى المسجد أو الجامع.

أما في الديانة المسيحية فإن وظيفة الكنيسة احتفظت بصفات مشابهة وصفات مخالفة في نفس الوقت وقد نشأت مشادات تاريخية بين هاتين الصفتين. ففي أوائل عهد المسيحية اعتبرت الكنيسة بيتاً للمصلين وبعد أن اعترف بالمسيحية كديانة رسمية تغير مفهوم الكنيسة فأصبح متبعاً شكل الباسيليكا وهو مكان الاجتماعات العامة الرومانية وأما في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية فقد أدى تطور الإدارة الكهنوتية للطقوس إلى جعل المذبح أساساً للألغاز الدينية وقد احتفظت الكنائس في شمال أوروبا بهذا المفهوم بعد الإصلاح الديني خصوصاً الكنائس الحرة بينما عدلت الكنائس البيوريتانية والكويكرز وظائف الكنيسة فجعلتها البيت الخاص بالوجود الإلهي. وتنعكس الوظيفتان في أسماء مختلفة في اللغات الأوروبية فكلمة الكنيسة Church مأخوذة من اليونانية ومعناها بيت الله. بينما نجد الكلمة الفرنسية eglise مأخوذة من الأسبانية iglesia وهذه مأخوذة من كلمة ekklesia اليونانية ومعناها الاجتماع ومن الغريب أن نجد المعنى الأساسي منعكس في كلا المنطقتين اللغويتين. وحتى في الأنظمة البروتستانتية نجد تراكيب واضحة للنشاطات الدينية تتخذ قالباً تقليدياً.

وهكذا نجد أن المسيحية تختلف عن اليهودية والإسلام في تأثرها بالأرض. ففي الإسلام يؤخذ بعين الاعتبار إيجاد المكان الكافي للعبادة. نجد في المدن التي يكثر فيها المصلون في الامبراطورية البيزنطية أن هنالك أمكنة مغلقة في الكنائس ليس بها أي سمة من سمات القداسة، ولكن المساجد العظيمة في الإسلام تختلف عن ذلك اختلافاً واضحاً فهي محصورة في المدن الكبيرة وليس هنالك في الإسلام مسجداً يشبه الكنيسة الأوروبية الأبرشية خصوصاً الكنائس القروية وليس في الإسلام مسجد يشبه الكنائس البروتستانتية. ففي كثير من البلدان الإسلامية يتميز مكان الصلاة في القرى بكونه بيتاً مبنياً من الطين وسقفه من القش وفي التقاليد الإسلامية القديمة يصلح أي مكان في العراء للصلاة وحتى في البلدان كثيرة السكان كمصر والبنغال وفي الأجزاء التي تسكنها جماعات مسلمة في إفريقية وجنوب شرق آسيا لم تنتشر عادة بناء القباب والمآذن إلا في القرن الماضي.

من الواضح أن الإسلام واليهودية لا يحتاجان بيوتاً مقدسة للعبادة كالمسيحيين. ففي هذين الدينين يستطيع المصلون فقط إيجاد المكان الملائم للعبادة وهذا ما يعطي للمسجد أو الكنيس قيمته القدسية. فالصلاة عند اليهود لا تتم ما لم يحضر عشرة ذكور بالغين على الأقل سواء أقيمت الصلاة في الكنيس أو في أي مكان آخر.

وفي الإسلام هنالك فروق ظاهرة بين التواتر والتردد في المساجد في المدينة ومثيلاتها في الريف. وهذا الاختلاف يعود إلى العلاقة بين المسلمين والحاكم الإسلامي وهو الرأس الإداري للمجتمع الديني. ففي أوائل عهد الإسلام كان من واجب الحاكم بناء المسجد وكان عليه أن يؤم المسلمين في يوم الجمعة حيث الصلاة واجبة وعلى جميع الذكور أدائها في المساجد وهذا يعزز مركز المدن الأمر الذي كان سائداً في الإسلام. وفي المذهب الحنفي الذي يسود في جميع العالم الإسلامي ما عدا شمال إفريقية، لا يسمح بأداء صلاة الجمعة إلا في مسجد واحد في كل مدينة، خصوصاً إذا كان الجامع

الكبير قادراً على استيعاب جميع سكان المدينة. ويكتب فون جرذنيدوم Van grunedaum. ما يلي: «إن التشريع القرآني يصور الحياة في المدن، ففي المدينة وحدها حيث يوجد الجامع الكبير لإقامة صلاة الجمعة وحيث يوجد السوق (وعادة الحمام الشعبي) يمكن أداء جميع فروض الدين»[1].

وابتداء من القرن الثالث عشر والرابع عشر بدأ بناء المساجد الصغيرة التي كان يبنيها الأغنياء من الشعب فانتشرت تلك المساجد في القرى وقد كان لهذه المساجد وظيفة اجتماعية وهي تأمين مكان اجتماع للقرويين وتأمين وجود مدرسة، ومكان استراحة للمسافرين. وقد كان عدد المساجد في القاهرة حوالي (٨٠٠) مسجد في عام (١٠٠٠) م وحوالي (٥٠٠) مسجد في دمشق وهذه ربما اشتملت على غرف صغيرة استعملت كمساجد في بعض الأحياء من تلك المدن وفي الأسواق العامة.

ماذا نستطيع القول عن التأثير النسبي على الأرض بعد توزيع الكنائس والمساجد والمعابد للأنظمة الدينية المختلفة؟ يمكننا صنع تقديرات لكثافة السكان مؤسسة على تحليل الخرائط ويمكننا حساب عدد السكان لكل بناء مقدس. وهنالك الاختلافات في حجوم وأشكال الديانات ووحداتها في الأنظمة الدينية المختلفة والإمكانيات المختلفة في إبداء النشاطات، كل ذلك سيكون عاملاً من عوامل تعقيد الأمور وتعقيد تفسير النتائج. ففي المدن الأمريكية مثلاً أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هي البنيـة الدينيـة الأكثر وضوحاً وهي التي تحتل أوسع مساحة من الأرض وتهدف الكنيسة الكاثوليكية إلى توسيع أبنيتها أكثر من الكنيسة البروتستانتية.

وتحاول الأنظمة الدينية الرئيسية إيجاد بناء منفصل لكل مئة من معتنقيها ويميل البروتستانت للاتجاه نحو الأرقام الصغيرة حيث يمكن للكنيسة إقامة الصلاة بين أقل من مئة شخص وذلك يعود لعدة أسباب منها أن النظام ربما

(١) من الملاحظ أن المؤلف يلم ببعض مبادىء الشريعة الإسلامية ولكنه غير متعمق بها وخير مثال عن ذلك إيراده لقضية أداء صلاة الجمعة.

كان يتوسع بسرعة ولهذا يصبح عدد المعتنقين في مكان ما صغيراً أو أنه ربما كان للنظام الديني برنامجاً لا يؤمن إلا بناءً واحداً لعدة آلاف من الأشخاص.

أما في الهند ففي القرى الكبيرة تكون النسبة وجود معبدٍ واحد لكل ٤٤٠ هندوسي وذلك في منطقة (ديكا) أما في منطقة جوجيراتي gujerati فالنسبة وجود معبد واحد لكل ٥٠٠ شخص. وكثيراً من تلك المعابد مختصة بالطبقات المنغلقة وليست دائماً في وضع منفصل أو بناء مميز. وتبني الطبقات الأكثر ثراءً وغنى معابد أكبر ويختلف توزيع تلك المعابد طبقاً لذلك وهكذا فمن المنتظر أن يمتلك أهالي منطقة جوجيراتي معابد أكثر من سكان سهول بيهارا الشمالية مع أن سكان تلك السهول أكثر عدداً وكثافة من السكان ويمكن للملاحظ المدقق أن يرى ذلك بوضوح، وكانت المدينة الصينية ذات الـ ٤٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٣٠ تمتلك حوالي ٧٠ معبداً معترف به تابع للعشيرة أو الدين المحلي أي بمعدل ٥٧٠ شخصاً لكل وحدة.

ونجد عدداً كبيراً من الكنائس في الشرق الأوسط حيث تسود المسيحية ففي المنطقة المارونية في لبنان يقال أن هنالك كنيسة في كل مزرعة. أما في روسيا القيصرية فإن كل عشرة قرى تمتلك واحدة منها كنيسة وأما في أواسط إيطاليا فإن هنالك كنيسة واحدة لكل ٦٧٠ شخصاً في عام ١٩٥٠ بينما كانت النسبة هي كنيسة واحدة لكل ٢٢٥ شخصاً في عام ١٦٠٠م.

وفي مدينة سنسناتي في ولاية أوهايو كانت النسبة هي كنيسة لكل ألف نسمة سواء من الذين يحضرون القداس أو الذين لا يحضرون. أما النسبة في الكنائس الكاثوليكية فهي واحدة لكل ٢٥٠٠ شخص. أما نسبة الكنس اليهودية في سنسناتي فهي كنيس واحد لكل ١١٥٠ عضو. بينما تشير المعلومات أن معدل حجم المصلين اليهود سواء كانوا يحضرون الصلاة أو لا يحضرون هو حوالي ٣٠٠٠ شخص. أما كنائس مذهب المورمون فالرقم ٧٥٠ يمثل العدد المثالي لسكان الجناح (كما يدعونه وهو يقابل الأبرشية) وفي عام

١٩٤٩ كان حجم معدل الجناح العادي هو ٦٣١ شخصاً.

إن الأراضي التي تظهر عليها بوضوح علامات المؤسسات الدينية ليست محصورة في آسيا الموسمية ولا في العالم الإسلامي. وإن الرأي الذي يقول بكثرة عدد الأديان في الربوع الآسيوية ما هو إلا وجهة نظر أوروبية مشوهة سببها تعدد وجود المساجد والمعابد. وعلى الإنسان زيارة تلك المناطق من آسيا التي يَسكنها أكثرية مسيحية ساحقة مثل (جوا) وكوشين وساحل سيلان الغربي عندها يندهش المرء من كثرة وجود المسيحيين في تلك الأصقاع فالمسيحية قد أثّرت تأثيراً مباشراً على تلك المناطق. هذا وإن تأثر المسيحية ملموس وملاحظ في المناطق الكاثوليكية في شمال إيطاليا وجنوب ألمانيا أو في أواسط أمريكا الشمالية حيث توجد الفرق والمذاهب البروتستانتية المتعددة والتي لها أتباع قلائل نسبياً ولكن لكل منها بصماتها الخاصة على الأرض بشكل أبنية كنائسها المميزة.

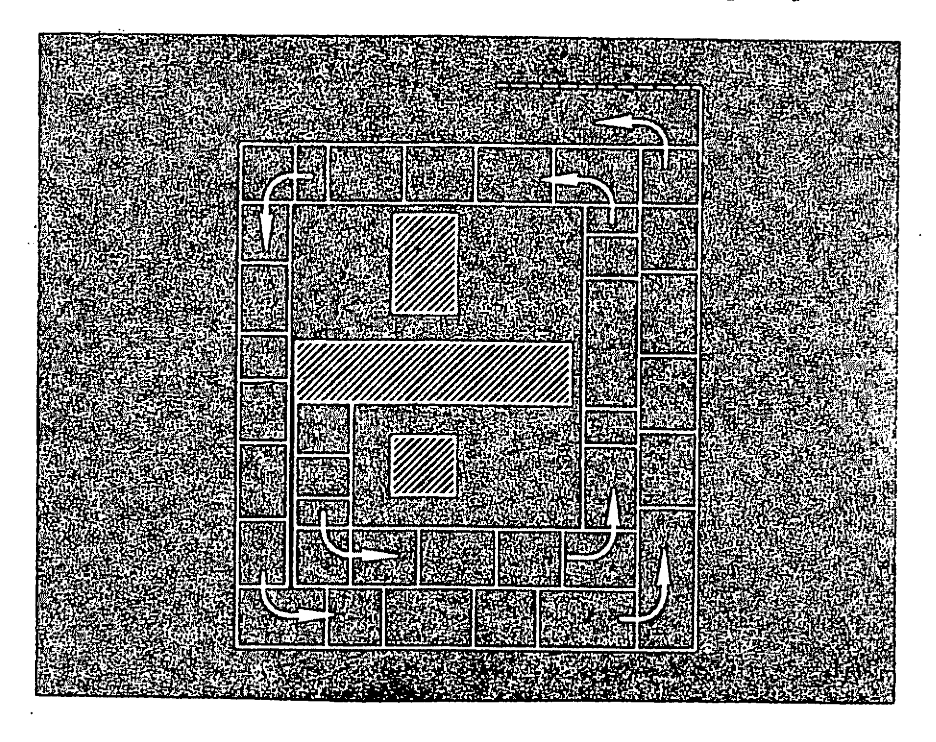
هنالك طرق أخرى لإظهار اللمسات الدينية في المجتمع. فهنالك المزارات على جوانب الطرق والصلبان الحجرية التي تكثر في الأراضي الكاثوليكية مثل بافاريا والنمسا بينما لا نجد لليهودية ولا للبروتستانتية مثل تلك المنشآت. ويستعمل المسلمون رغم احتجاج السلفيين منهم المساجد أو القبور لإحياء ذكر الأولياء في بعض البلدان الإسلامية. ونشاهد مثل ذلك في بعض الأبنية في التبت وفي سهول بورما وفي سيلان حيث توجد الشواهد على تغلغل البوذية في تلك البلدان التي كانت مفتقرة إلى التطور السياسي.

نماذج أرضية ذات أصول دينية:

يشير طلاب الظواهر الدينية إلى أن هنالك توافق بين حوادث دينية فيما وراء الطبيعة بالنسبة لمعظم الأنظمة الدينية وبين الحوادث البشرية. ويقول إيلياد Eliade أن الرجل المتدين يذهب إلى أعمق من ذلك فاندماجه بالأراضي المجهولة يكون دائماً محاطاً بهالة من القداسة. وهو يعتقد أنه إذا

أراد أن ينظم الأرض والأمكنة فمعنى ذلك أنه يجب عليه آن يعيد ويكرر العمل المثالي الذي صنعته الآلهة. ويقول ايريش اسحاق Erich Isaac أن مفهومه للجغرافية الدينية ينحصر في دراسته تطبيق واستعمال الإنسان للنماذج الكونية المثالية على سطح هذه الأرض. وهو يميز بين النماذج الدينية على الأرض والتي يقول عنها أنها ترافق الأديان وأنها تمتلك خرافات دينية طقوسية وبين الانطباعات غير المتبلورة وغير المنتظمة المرافقة لتلك النماذج التي لا تمتلك تلك الخرافات.

وكمثال على النماذج من النوع الأول نجد النموذج المرسوم أدناه وهو يمثل التوسع الحلزوني بعكس عقارب الساعة للأراضي المزروعة لدى فلاحي دوجون في مالي قرب حدود فولتا العليا في إفريقيا (انظر الشكل رقم ـ ١ ـ)

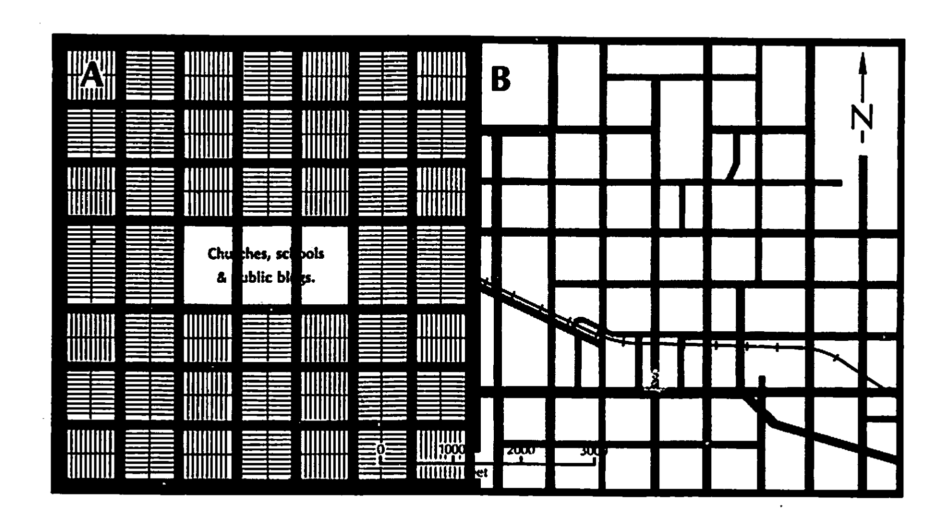


الشكل رقم (١) التوسع الحلزوني يعكس مسيرة عقارب الساعة في حقول الدوجون في مالي في حدود فولتا العليا في إفريقيا.

لقد نظمت أراضي الدوجون طبقاً للمبدأ القائل أن العالم قد تطور بشكل حلزوني. ويقولون نظرياً أن النقطة المركزية في التطور تشكلت من ثلاثة حقول طقوسية وهي مخصصة لثلاثة من الأجداد الخرافيين وبالتالي للأديان الثلاثة الرئيسية الموجودة في تلك المنطقة. ولدى الفحص يجد المرء أن هذه التقسيمات تشير إلى عالم مصغر حيث حدث تطور الإنسان التدريجي وإذا بدأنا من هذه الحقول الثلاثة نجد بقية الحقول تخص مجموعات من الأقارب وأخيراً نجد حقولاً فردية مختلفة متوضعة على طول محور يبدأ بشكل حلزوني من هذه المنطقة المركزية.

ويؤكد إيلياد Eliade على أنه بدأ يتجلى للعيان ويتفتح ابتداء من نقطة مركزية حيث يصنع الإنسان البيوت وهو يقول: «كما أن العالم يتفتح من المركز ويمتد إلى الخارج تجاه الجهات الأربع الرئيسية هكذا تظهر القرية إلى الوجود في (بالي Bali) وكما هو الحال في بعض أجزاء أخرى من آسيا وتتوضع حول تقاطع الخطوط. ويمكن أن يكون هذا النموذج (البالي) قد أتى أصلاً من الهند حيث يظهر هنا وهناك في تصاميم الحقول والقرى والمدن ويبدو أن التصاميم للخطوط المحورية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ما هي إلا تقليد لتصميم المعبد الهندوسي وهو عبارة عن إعادة تكوين على يد البشر لشيء أو نموذج فائق واقع وراء نطاق الخبرة والمعرفة البشرية.

وقد ظهرت المدن ذات التصاميم المتشابكة منذ القديم وبعد عصر النهضة كوسيلة لتمييز النظام البيروقراطي مع أنها لم تكن تخلو من معانٍ إضافية ايديولوجية. وفي الاستعمالات المتأخرة على يد بعض المجتمعات الدينية كانت التصاميم المتشابكة ربما تعكس خطة كونية مثالية. وإن استعمال طائفة المورمون للشبكات في مستوطناتهم الدينية المخططة التي تحتوي على مبانٍ كبيرة مربعة يتبعون تصاميم مـدينة زيـون التي كشفت في التقاليـد المورمونية المقدسة (انظر الشكل ٢).



الشكل رقم (٢) مدينة زيون المورمونية.

المقابـر:

إن تخصيص قطعة من الأرض من قِبل المجتمعات اليهودية والمسيحية والإسلامية لأجل الدفن تميز هذه الأديان عن الديانات الهندوسية واليابانية والبوذية التي تحتم حرق الموتى. أما الصينيون الذين يدفنون موتاهم ويعملون

على تخليد ذكراهم فهم يختلفون عن الديانات الشرقية الأخرى. وقد اقترح البعض أن هنالك علاقة موجودة بين المعاني التاريخية وعادة دفن الموتى في المجتمعات المتحضرة فعادة حرق الموتى المنتشرة بين البوذيين ربما تناسب وجهات النظر غير التاريخية. وهي ما تدعى الدورية.

إن الطريقة المعاصرة في دفن الموتى لدى الأمريكيين لها ما يناظرها في الأنظمة الصينية التقليدية فضلاً عن الأنظمة المصرية والأتروسكية القديمة. فالمجتمعات من هذا النوع ذات الاهتمامات الخاصة لتخليد ذكرى الأموات هي التي تهتم بتوفير الأمكنة المناسبة للدفن. ففي الصين قبل عهد الشيوعية كانت القبور العائلية المتوضعة في الأراضي الزراعية لإنجاز بعض المتطلبات الدينية تعمل على تفاقم الضغط السكاني على الأرض. إذ أن حوالي ٢ ٪ من الأراضي الزراعية في شمال السهل الصيني وحوالي ١٠ ٪ في بعض المناطق أصبحت غير ذات فائدة بالنسبة للأعمال الزراعية نظراً لاستعمالها كمقابر ويظهر ضغط مماثل على أراضي المقابر في البلدان الغربية المتحضرة مع أن مخططي تلك المقابر يعتبرونها فسحات وأماكن ضرورية لتنفس المدينة ويمكن استعمالها كحدائق عامة كما هو الحال في بعض البلدان الإسلامية كإيران مع أن تلك الفكرة تعتبر منفرة بالنسبة لكثير من المسيحيين.

الزراعة وتوزيع النباتات والحيوانات:

تضع بعض الأديان صفة القداسة أو الوظائف الطقوسية في بعض النباتات والحيوانات. وهذه النباتات والحيوانات المقدسة موزعة على طول طرق الهجرة والطرق السالكة حيث تظهر اهتمامات خاصة وتركيز على أهمية بعض تلك النباتات. وقد نقلت نبتة البيبال Pipal الهندية المقدسة من أقاصي الهند إلى سيلان واليابان رغم أنها ليست ذات أهمية اقتصادية أو جمالية. بينما كان انتشار الأشجار الحمضية في منطقة البحر الأبيض المتوسط في زمن الرومان يُعزى لبعض المتطلبات اليهودية الطقوسية وإن استعمال المسلمين

لنبات السوسن اليمني كزهرة توضع على القبور عمل على انتشار السوسن في جميع أقطار الشرق الأوسط.

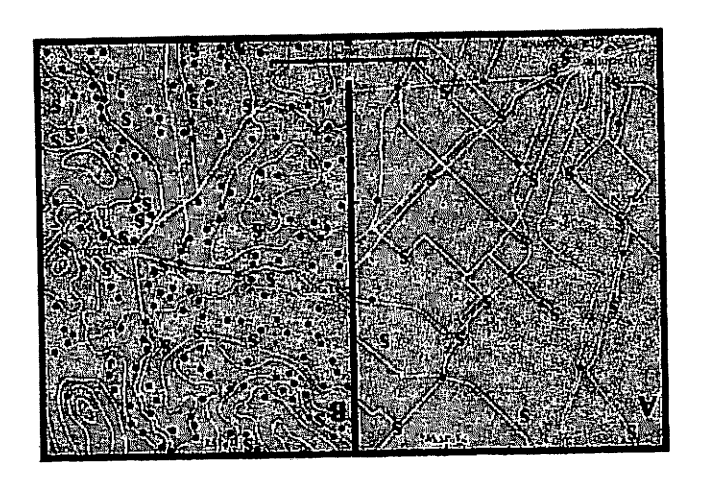
وقد أدى استعمال النبيذ بشكل مقدس في الديانة اليهودية وفي معظم الديانة المسيحية إلى انتشار زراعة الكرمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. فقد كان الرهبان المسيحيون يصنعون النبيذ من الكرمة في منطقة حوض الراين حتى الموزيل Moselle وحتى بحر البلطيق شمالاً ولكن بشكل أقل نجاحاً. وكانت إحدى البدع التي صنعها اليهود المستوطنون في فلسطين في القرن التاسع عشر إعادة زراعة العنب مراعاة لحاجاتهم الطقوسية.

إن اهتمام الأديان ببعض النباتات والحيوانات قد نتج عنه تعزيز وتقوية تدجين بعض الحيوانات من أنواع مصطفاة. فهنالك الخيول البيضاء والقطعان الإفريقية ذات القرون الطويلة ونبات الكركم الذي يصنع منه صباغ وخضاب يستعمله الهندوس بشكل طقوسي كل هذه تعتبر من الأشكال التي عدلها الإنسان واستعملها في أغراض طقوسية وإن العلاقة بين الوظائف الطقوسية وبين بعض النباتات والحيوانات المصطفاة والموزعة تبقى بحاجة إلى شرح وتفسير.

أسماء الأراضي:

إن للأماكن والأراضي معانٍ دينية لتسجيل بعض الفرص التي استطاع بها نظام من الأنظمة الدينية تثبيت هويته بالنسبة للمكان والزمان وبعض أسماء الأماكن مثلاً ربما تشير إلى قداسة محلية سابقة. وإن دراسة مثل هذه الأسماء المكانية كانت مخصصة بأماكن القديسين وهي كثيرة في العالم الكاثوليكي هذا ونجد تقديس الأماكن سائداً في العالم الجديد أكثر منه في العالم القديم حيث استقر الأسبان والبرتغاليون والفرنسيون يوجههم ضمير الكنيسة في العالم الجديد الذي كانت الشعوب البدائية محتلة له. فأسماء القديسين كثيرة وهكذا أماكن وجودهم وهكذا أصبحت هذه الأسماء تطلق على المدن الكثيرة، فنجد

خمسة من المدن الكبرى السبعة في كاليفورنيا تحمل أسماء تتضمن معانٍ دينية. ونجد الوضع كذلك في كويبك حيث نـرى أسماء القـديسين في الأبرشيات المختلفة (انظر الشكل ٣ أ) وحيث توجد أكثرية هندية نجد أسماء القديسين أقل. وقد نزعت بعض الأسماء الهندية في أماكن وحلت محلها أسماء القديسين مثل مدينة سان جوان ففي بلاد المكسيك نجد حوالي ثلث أسماء المدن تحمل أسماء القديسين خصوصاً في الجنوب.



الشكل (٣ أ) أسماء القديسين كأسماء للأماكن.

أما في أوروبا فقد دخلت الديانة المسيحية في فترات طويلة من الزمن وهكذا بدأت أسماء القديسين في الظهور ضمن الإطار الروماني أو ما قبل الروماني. في إيطاليا في أواخر العصور الوسطى (أي من ١٢٠٠ ـ ١٤٠٠ م) وبعد ذلك ظهرت أسماء الدساكر والمستوطنـات حول الكنـائس والأديرة والمزارع المنعزلة (الشكل ٣ ب) وحدث ما يشبه ذلك في فرنسا فأصبحت أسماء القديسين متكررة في المناطق الوسطى للمستوطنات المتناثرة.

إن دراسة أسماء الأماكن في الأراضي التي لا يسكنها المسيحيون ربما قدّمت لنا معلومات مفيدة حول تأسيس المؤسسات الدينية في تلك الأماكن.

ففي جنوب الهند مثلاً نجد مقطع (تيرو) Tiru الذي يشير إلى القداسة موجوداً في عدة أسماء للأماكن وعادة قمم الجبال والأراضي العالية وكلها تدل على القداسة وإن توزيع مثل هذه الأسماء بما فيه الآلاف من الأسماء التي تُمجد الآلهة الهندوسية يخبرنا الكثير عن اتجاه وتاريخ التيارات والطريقة التي تم فيها ترسيخ الديانات المحلية في الهند.

التعبيرات السلبية الرسمية للدين بالنسبة للأرض:

هنالك بعض حالات المنع والنهي التي يُغلف بها المجتمع السلوك ولكن هذه تؤثر على المحيط والبيئة بشكل مباشر، وهذه الحالات تظهر للعيان عند غياب الحالات المتوقعة المعاكسة وهنالك بعض النواهي وحالات المنع التي تؤثر على الأرض تأثيراً مباشراً مثل منع بعض أنواع الطعام أو منع بعض أنواع العمل وبعض النشاطات الاقتصادية، كل هذه سوف نعالجها في هذا الفصل.

منع بعض أنواع الطعام: تختلف حالات منع الطعام من دين لآخر. وينتج من هذا المنع بعض التناقضات الحادة في الاقتصاد الزراعي ضمن نفس المنطقة. ففي بلاد فارس قبل الإسلام كان المانويون يتبعون نظاماً نباتياً صارماً في الأكل بينما شجع الزرداشتيون أكل اللحوم كطريقة للحصول على القوة والنشاط الزائد عن الحد وهنالك بعض أنواع منع الطعام التي لا تدخل في النظام الديني مع أن هنالك بعض المفاهيم الدينية التي تكمن وراء تلك الأنواع.

وهنالك بعض الأديان البسيطة التي تمنع ذبح أو أكل بعض الحيوانات مما يؤثر على التوازن البيئي. ويقال أن شعب الباتاك Batak في سومطرة امتنعوا فجأة عن ممارسة الأعمال الزراعية، وذلك لأن النمور التي يمنع الدين قتلها (تابو) كانت تفترس الجواميس التي تعمل في الزراعة وإن (التابو) من هذا النوع يعتبر طوطمياً. ولكن هنالك بعض المواقف الأخلاقية التي تظهر في

منع قتل وأكل لحم القرود لأنها تشبه الإنسان وهنالك منع قديم لا يزال ساري المفعول لأكل لحم البشر مع أن الشعوب التي تأكل لحوم البشر لديها أسس دينية في تشريع صحة هذا العمل.

ويعتبر لحم الخنزير ممنوعاً لدى اليهود والمسلمين لاعتباره نجساً وقذراً وهذا يسبب عدم تربية الخنازير في تلك المناطق.

ولكن نجد الآن أن تربية الخنازير في المجتمعات الزراعية هي عمل رخيص ولا يحتاج إلى جهد أو نشاط خاص أو رأس مال كبير. وفي منطقة أشجار البلوط في أسبانيا والبرتغال يوجد الخنزير كحيوان من ساكني الغابات. وهذا المصدر الرخيص للحصول على الطعام (هنالك حوالي (٨) بلايين خنزير في شبه الجزيرة الايبرية) قد حُرم منه سكان جبال الأطلس في شمال إفريقيا عبر مضيق جبل طارق لكونهم مسلمين وفي شرق منطقة البحر الأبيض المتوسط نجد أن الخنازير نادرة لأنها كانت خاضعة للحكم الإسلامي فلا نجد كثيراً من الخنازير في لبنان أو تركيا أو سوريا أو غيرها من تلك المناطق.

وحيث كان للإسلام نفوذ في آسيا المدارية نجد ندرة وجود تربية الخنازير وأكله وأما في المنطقة المسيحية في الفلبين فهنالك حوالي ٦ ملايين خنزير أو ثلاثين خنزيراً لكل مئة من السكان وهذه النسبة تزيد عشرين ضعفاً عن ما هي عليه في أندونيسيا المسلمة. والمسلمون في جنوب شرق آسيا يتجنبون أكل لحم الخنزير المعلب بعناد مع أن لحم الخنزير من أنواع اللحوم المفضلة في المآدب والحفلات في المناطق غير المسلمة ولكن نظراً لوجود حالة المنع Taboo فسكان الملايو لا يربون الخنازير. ولكن القرى الصينية الزراعية في جزر الملايو تمتاز بالعناية الزراعية المشددة وخصوصاً زراعة الخضراوات التي تلعب الخنازير فيها دوراً حاسماً فالخنازير تأكل البقايا النباتية للخضراوات وتشكل مصدراً من مصادر السماد للنباتات وهذا غير موجود في القرى الملاوية القديمة.

إن المنع بالنسبة للحم البقر في الهند الهندوسية يختلف عن منع لحم

الخنزير. إذ أن منع لحم البقرة في الهند تابع لمفهوم الاحيمسا Ahimsa الذي يفرض منعاً عاماً لقتل الحيوانات وإزهاق أرواحها، وقد أكد الدين الهندوسي على قداسة حياة البقرة لأسباب تاريخية. وبالمقارنة مع منع لحم الخنزير الذي أنتج غياب الخنازير، نجد أن منع أكل لحم البقر في الهند قد أنتج وجود أعداد لا تحصى من الأبقار فيها ومعظمها مسنة ومريضة وغير منتجة. وتندر تربية الأبقار وهذا يسبب ضعف الأجناس البقرية المختلفة، وعدم قدرتها على العمل لاقتصارها على إنتاج الحليب والقدرة على جر الأثقال والأحمال. وقد اقترح عدة كتّاب غربيين تحسين الزراعة في الهند عن طريق تغيير مواقف الهندوسي بالنسبة لذبح البقر. وإن اعتماد هؤلاء الكتاب على المفاهيم التي تقول بأن هذه العادة هي من عادات العبادات الخرافية، ينطوي على الجهل المطبق فالأحيمسا Ahimsa هي أحد المفاهيم النبيلة الدينية في العالم إذ يجب أن تسن تشاريع تقنية تحدد النمو الزائد للمواشي تواكب الشروط التي تفرضها المثاليات التي تقدمها الاحيمسا Ahimsa. مثلاً إن ضبط تربية المواشي في الهند يمكن أن يتوقع منه الحصول على فوائد جمة.

وكما هو الحال في الملايو تظهر الفوارق البيئية في الهند بين الفئات الدينية بالنسبة لنماذج مختلطة من الأطعمة. فالخنازير قليلة الوجود في القرى الهندوسية كما هي الحال في القرى الإسلامية، ولكنها موجودة في القرى المسيحية والقبلية، حيث ترى قطعان الخنازير وهي تمسح الأرض في الأزقة وتلعب دور كناسي القرية. وإن وجود الفروق في عادات الطعام لا يخلو من بعض النتائج. إذ بينما نرى الخنزير نجساً بالنسبة للهندوس والمسلمين، فقد نمت ميول لدى هاتين الفئتين لفصل أنفسهما عن الفئات الدينية الأخرى خوفاً من التلوث وربما أنتج هذا رغبة كل فئة بالعيش لوحدها الأمر الذي سوف يقترب من حالة الغيتو (انظر الفصل الخامس).

وهنالك فروق في استهلاك الطعام ترافق الفروق الدينية التقليدية. وتوضح هذه القضية اختلاف استهلاك السمك في الهند الهندوسية وأوروبا في

العصور الوسطى، إذ أن منع السمك لدى الهندوس يختلف من دين إلى دين وحتى البراهمة يسمح لهم بأكل السمك في البنغال. مع أن سكان المناطق الأخرى نباتيون شديدو المحافظة على نباتيتهم. ومع ذلك فإن هنالك جزء لا بأس به من الهند الهندوسية يمتنعون عن أكل السمك. ويعتبر صيد السمك من الأعمال المُنْحطة. وحتى في هذه الأيام بقيت مصائد السمك الهندية بحاجة إلى رأس المال والإدارة السليمة ولكن الطبقات المحترمة المنغلقة تتردد وتأبى التعاون معهم ومع مرور الزمن سوف نرى أن الهندوسيين سوف يعيقون تقدم صيد الأسماك في الهند.

أما في أوروبا الكاثوليكية فإن قضية الامتناع عن أكل اللحم في أيام الجمعة، وليس أكل السمك، قد أدت إلى زيادة الحافز لتوسيع عمليات صيد الأسماك في البحار لتأمين الطعام ليوم الجمعة خلال أشهر السنة في العصور الوسطى. وهكذا أخذ صيادو السمك الأسكندنافيون والبريطانيون يجوبون المحيطات والبحار الشمالية في القرن الخامس عشر بحثاً عن السمك. وقد ذكر صيادو السمك في العهد الجديد في مقام الاحترام فقد قال السيد المسيح لهم «اتبعوني وسأجعلكم صيادي الرجال» وكان السمك هو رمز للمسيحيين الأولين، وبعكس المجتمع الهندوسي نجد المجتمع المسيحي في العصور الوسطى يشجع صيد السمك.

وحتى بين الفئات المختلفة من نفس الدين ربما نجد فروقاً واضحة بالنسبة لنماذج الاستهلاك ففي خلال الأماكن البوذية، نجد الإحجام عن ذبح المواشي وأكل لحم البقر يقل في المناطق البعيدة عن النفوذ البوذي. وقد كان لحم البقر ممنوعاً في اليابان في الماضي ولكن في الوقت الحاضر نجد حتى الكهنة في اليابان قد اعتادوا أكل لحم البقر ويذكر بلانهول Peplanhol قصة عن رجلين مسافرين إلى الخارج معاً وقد أصبح أحدهما نحيفاً مريضاً أما الآخر فقد أصبح سميناً معافى (بعد أكل الأطعمة الممنوعة).

يعتبر الزهد والتقشف أحد المثاليات الذي يخلق قوانينه الخاصة بالنسبة

لاستهلاك بعض الأطعمة فهنالك عدة طوائف بروتستانتية تمنع شرب الكحول وهو ممنوع أيضاً لدى المسلمين والطبقات العليا من الهندوس وبعضهم يقطب جبينه عندما يرى شخصاً يدخن وهذا التدخين ممنوع عند السيخ أيضاً ويضيف المورمون القهوة إلى قائمة الممنوعات والشاي والكولا.

منع بعض الأعمال:

تمنع بعض الأديان العمل في مناسبات معينة وبعضها يعترض على بعض أشكال النشاط الاقتصادي. وكلا نوعي المنع للعمل، يؤثر على استعمال الأرض وإن العطلة الأسبوعية يوم الأحد تؤلف أول بداية للمنع (التابو) وأما اليهود فهم يمنعون العمل يوم السبت، وقد انتقل هذا اليوم إلى يوم الأحد عند المسيحيين، وإن تطور المواصلات السريعة والمؤسسات المالية والبنوك في القرن التاسع عشر أثّر على الاهتمام بعدم العمل في يوم الأحد عند المسيحيين وخصوصاً في المستوى الحكومي. وأما في الأماكن القروية فليس ليوم الأحد أي أهمية. وإن عطلة المسلمين الأسبوعية في يوم الجمعة لا تشبه السبت عند اليهود إذ لا تنقطع الأعمال العادية والنشاطات عند المسلمين في ذلك اليوم. واليهود المتعصبون يتمسكون بعطلة السبت بعناد، إذ يمتنعون عن القيام بالأعمال المنزلية أيضاً. وإن مثل هذه الأعمال توقع التشويش في أي مجتمع معقد وفي الاقتصاد أيضاً.

وتمتلك معظم الأنظمة الدينية العرقية بما فيها الصينية والهندية والبابلية والمايانية واليونانية والرومانية تقاويم مقدسة تحتوي على أسماء الأعياد ومناسبات المنع (تابو). وفي مصر القديمة كانت خُمس أيام السنة تتألف من أيام مقدسة لا يجوز العمل فيها. بينما في روما الجمهورية اعتبر كل يوم من ثلاثة أيام من الأسبوع يوم الخميس ولا يجوز العمل فيه وهكذا كانت نظرة العبرانيين ليوم السبت.

لم يُراع العبرانيون الرعاة حُرمة السبت وذلك لعدم حاجتهم لذلك

النظام لا سيما وأن أعمالهم الرعوية لا تحتاج للنبت خصوصاً في الفصول الحرجة. وهذا ما اتبعه الإسلام الذي يسمح بالعمل في أيام الجمعة وذلك لتأمين الحاجات العائلية.

وفي الأديان البسيطة للمجتمعات الزراعية تقتصر أيام المنع (التابو) على الأيام التي تتطلب الراحة من العمل وتعدل هذه الأيام بحيث تلائم الأوقات التي يبدأ بها العمل الزراعي أو ينتهي. وفي المجتمعات القبلية التي تفتقر إلى التقويم الديني، تكرس بعض الأيام لهذا الغرض بالذات ويمكن أن يحدث هناك منع صارم بالنسبة للعمل العادي. وهذا شائع بين الشعوب القبلية التي لم تصل إليها المسيحية بعد، وذلك في جنوب شرقي آسيا وفي الأقيانوسية. ويحدث بصورة دائمة المنع (التابو) المدعو بونين Puneen ويقصد به منع العمل وذلك لدى الفئات من شعب منتو Mentaw على مسافة من الساحل الجنوبي لسومطرة. وبالإضافة إلى البونين Puneen وهو منع الزراعة والحصاد وغيرها من العمليات الزراعية هنالك منع للزواج والوفيات في القرى ومنع لبناء بيت جديد (وتابو) لانتشار بعض الأمراض الوبائية، وقد ظن الحكام الأوروبيون أن هذا المنع يساهم في انخفاض مستوى الإنتاج الزراعي. ومع ذلك فإن معظم تلك المناسبات تقع في الدورة الزراعية دون إحداث فيها، وهنالك شواذ لهذه القاعدة وهي الحوادث المأساوية غير المتوقعة مثل تفشي الأمراض والوفيات عندما يتوقف العمل نهائياً.

إنها لعلامة على العمى الثقافي عندما نرى الأوروبيين غير مرتاحين لوجود هذه البرامج المرنة، بينما نراهم في نفس الوقت يحافظون على الروتين الثابت من فترات الراحة الأسبوعية. وبينما نرى التقويم ملائماً لأية حضارة من الحضارات وضرورياً وأساسياً بالنسبة لتلك الحضارة، إلا أننا نرى أن قيمة هذا التقويم بالنسبة للعمليات الزراعية لا تخلو من المبالغة. فعدا عن وجود بعض الملاحظات القليلة حول الشمس والنجوم، يستطيع الرجل العامل في الحقل أن يسترشد بالدورة البيولوجية السنوية حتى ولو كان موجوداً في مناطق

قريبة من خط الاستواء حيث لا توجد تغيرات واضحة في الفصول وفي درجة الحرارة ولا في طول الليل أو النهار ويكتب دي شلبي de schlippe عن شعب زاندي Zande وهو شعب أفريقي يعيش في شمال خط الاستواء ما يلي: «لا يستعمل هذا الشعب الأيام والأشهر لمعرفة مواسم البذار لمعظم المحاصيل الزراعية، بل طبقاً للملاحظات التي يعرفونها عن مواقع النجوم والحياة الموحشة والنباتات والحيوانات والحشرات. وتمثل هذه الرموز البيئية تراكم الخبرات التي يستعملها الشيوخ وكبار السن بشكل الحدس وهم لا يستطيعون صياغة كلمات وأحكام تدل على تلك الخبرات.

وإن تعقيد التقاويم المقدسة التي هي عبارة عن خلاصة أعمال الاختصاصيين الطقوسيين في محيط المدن ربما تُفسر نظام الزراعة وتربية المواشي وتناسقها. فقد عمدت الكنيسة خلال الألف الأول الميلادي حتى وقت متأخر في جنوب أوروبا إلى تنظيم الحياة الزراعية وكانت تنصح باتباع أوقات معينة لبدء البذار والحصاد ضمن حدود ضيقة. وقد أضافت الكنيسة عدة أعياد إجبارية للقديسين وفرضت دورات زراعية.وأوقات ملائمة للصناعات المحلية والتجارة. ففي فرنسا كان هنالك حوالي (٤٢) عيداً من هذا النوع في القرن الرابع عشر وإذا أضفنا إلى هذه الأعياد أيام الأحد وأعياد الفصح أصبح العدد هائلاً ومعيقاً للنشاط الاقتصادي بمعدل يوم عطلة واحد في كل أربعة أيام من أيام السنة. وقد أثّرت التوجيهات الدينية في عمل الدورات الزراعية فأوقفت النشاط وبالتالي قلّ المردود في الإنتاج وربما كانت هذه التوجيهات سبباً في إطالة عمر الأنظمة الزراعية العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب. ولهذا فقد استعملت أساليب جديدة للزراعة في منطقة باريس وفي أجزاء من جنوبي ألمانيا الكاثوليكية.

وهنالك بعض الأنظمة الدينية التي تفرض أساليب المنع (التابو) التي تقيد مجال الاختيار بالنسبة لاستخدام الموارد الطبيعية وبالتالي تخلق بعض التقاليد التي تعيق النشاط الاقتصادي في البلاد، حتى بعد أن يضعف تأثير

ذلك القرار الديني. ويمكن لبعض الوحدات القبلية التخصص اقتصادياً لتحصل على شخصية واضحة، وغالباً ما يصاحب هذه الترتيبات أعمال طقوسية. ففي جزائر نيكوبار Nicobar لم يُسمح إلا إلى فئة واحدة من السكان بصنع القوارب والتجارة بها مع الفئات الأخرى التي كانت تستعمل القوارب أيضاً. وكان صنع القوارب بالنسبة للفئات الأخرى ممنوعاً ومحرماً (تابو). وهنالك بعض القبائل في الهند وبلاد العرب وإفريقية، تختص فيها بعض العائلات بصناعة الحديد وهذه العائلات ليست عادة من تلك القبائل بل من مجموعات من الحدادين المختصين الذين يؤلفون طبقة منغلقة وكانت صناعة الحديد محرّمة على غير هؤلاء من السكان.

ويظهر هذا النموذج في أبهى مظاهره في الأنظمة الهندوسية الدينية. فكل طبقة منغلقة في الأنظمة الهندوسية التقليدية لها التزاماتها بالنسبة للأعمال الاقتصادية وهكذا يصبح عدد العاملين في بعض الاختصاصات قليلاً وقد كانت النشاطات الاقتصادية في العالم الهندوسي محددة على يد النظام الديني إلى درجة عظيمة.

وتؤثر مفاهيم الاحيمسا Ahimsa والتلوث الطقوسي على أعمال الطبقات المنغلقة وبالتالي على العلاقات المتبادلة بين النشاطات الاقتصادية المختلفة. وتمنع بعض الأعمال مثل صيد السمك بناء على الأوامر الدينية وكذلك أعمال الدباغة الجلدية وأعمال البحر وقد أهملت الجندية في المناطق حيث لا توجد طبقات منغلقة تصلح لمثل هذه الأعمال كما هو الحال في البنغال، وحتى الزراعة وهي المورد الاقتصادي الأساسي في الهند قد تأثرت. فليس من واجب الرجل البراهمي حراثة الأرض مثلاً. وفي الظروف التي يُجبر بها البراهمي على ممارسة الأعمال الزراعية نجده متضايقاً نفسياً وإيديولوجياً. وتمتنع كثير من الطبقات التي تشتغل بالتجارة وبالأعمال الأخرى عن المشاركة بالاهتمام بالأعمال الزراعية.

وهنالك بعض التجمعات الزراعية في جنوب شرقي آسيا تكره القيام

بأعمال المناجم حتى ولو كان ذلك لاستخراج الذهب مثلاً فهم يعتقدون أن إزالة الفلزات من داخل الأرض يسيء إلى روح الأرض ويعتقد شعب البايجي Baiga في أواسط غابات الهند الذين يحرثون الأرض بواسطة عصا عادية أن استعمال المحراث المصنوع من الحديد يمزق صدر الأرض الأم ويجعلها عرضة للتدنيس. وفي جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية صادف بعض المستشارين الزراعيين الذين حاولوا تقديم فكرة الزراعة الربيعية المبكرة للهنود الحمر من قبيلة تاوس Taos كثير من الصعوبات والعداوات وذلك لأن رجال تلك القبيلة اعتقدوا أن الأرض الأم تكون حُبلى في الربيع ولا يجوز إزعاجها بالحراثة بل يجب معاملتها برفق.

وفي الهند نجد شعب جين Jain معارضين لأي نوع من أنواع الزراعة وحجتهم في ذلك أن الحراثة والنشاطات الزراعية تؤثر على حياة ونشاط بعض الحشرات ولهذا أصبحت هذه النشاطات ممنوعة (تابو) بالنسبة لبعض طوائف الجين Jain.

وأما منع الربا المفروض في الماضي في الديانة الكاثوليكية فقد كان له تأثيرات جغرافية هامة. فقد سبب هذا الإجراء تجميد الرأسمال وتقييد الاعتمادات المالية وبالتالي تشجيع بعض الفئات المختصة من خارج الدين للعمل في الشؤون المالية. ففي أواخر العصور الوسطى تطورت في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا فكرة تشجيع النشاطات المالية رغم منع الكنيسة إقراض النقود بالفائدة فتطورت أعمال البنوك ومنح القروض للعمل والاعتمادات المالية للعمل. ثم انتشرت فكرة البنوك في الأراضي المنخفضة وأخيراً لم يعد أحد في الأراضي الأوروبية يُلقي أي اهتمام للمنع ونُبذت فكرة المنع نهائياً وبعد ذلك وربما كانت مسببة عن ذلك النشاط، نشأت المغامرات التجارية السريعة في بحر الشمال وغيره من البحار.

تأثيرات الدين غير المباشرة على الأرض:

لما كانت معظم الأديان تمتلك حلولاً هامة بالنسبة للتناسل والحياة والموت، لذلك فهي ربما كانت ذات أثر على العناصر الديموغرافية لمعادلة الثروات السكانية. فهنالك بعض المفاهيم الدينية التي تشجع زيادة نسبة المواليد ومنهم اليهود من النص التوراتي الذي يقول «كونوا مثمرين وتكاثروا» أنه يجب عليهم الزواج في سن مبكرة وإنجاب عائلة كبيرة وهذا التوجيه لا يتبعه الجميع بل المحافظون على الدين فقط وذلك لأن نسبة مواليد اليهود في المجتمعات الغربية هي نسبة ضئيلة منخفضة. وفي الديانة الهندوسية تعتبر معظم المذاهب المرأة غير تقية وغير أخلاقية إذا ماتت قبل أن تتزوج أو الرجل إذا مات دون إنجاب أولاد. وهذا الموقف الديني لا يسمح بالعزوبة الطويلة لكلا الرجل والمرأة كما هو الحال في إيرلندة الكاثوليكية والسويد اللوثرية الأمر الذي يسبب انخفاضاً في عدد السكان في تلك البلاد وخصوصاً في إيرلندة حيث يمنع الدين الكاثوليكي استعمال موانع الحمل. ولقد كانت رغبة الهندوسي في الحصول على طفل في أوائل أيام الشباب عاملاً مشجعاً للزواج المبكر وهذا سبب زيادة نسبة عدد الأمهات الشابات. وقد تناقض هذا الوضع مع القانون الديني الذي يمنع زواج الأرملة ثانية. فالنساء المترملات الشابات

ولقد حاولت المجتمعات في أزمان مختلفة ضبط شؤون زيادة النسل بطرق مختلفة كقتل البنات والإجهاض المتعمد ثم أخيراً استعمال موانع الحمل. ولما كانت المفاهيم الدينية تختلف من حيث مبدأ السماح أو المنع فإن النتائج الديموغرافية تختلف تبعاً لذلك. وقد استطاعت اليابان مؤخراً إنقاص نسبة زيادة السكان فيها وذلك لأن الأديان اليابانية المعاصرة سمحت بالتقنيات التي منعتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وبينما نجد معظم الأديان تقف ضد إزهاق الروح الإنسانية، إلا أن هذه النزعة لم تفسر بوضوح. فالقيمة الأساسية التي تعتمدها الأديان بالنسبة للروح

الإنسانية يمكن رؤيتها وفهمها من مواقف تلك الأديان نحو الحروب التي تعتبر أداة من أدوات السياسة الدينية ابتداء من الحروب المقدسة إلى المعتقدات البوذية التي يمثلها أزوكا وهو الذي رفض وأدان الحروب كلياً. ولقد كانت لهذه النتائج الديموغرافية للفلسفات المختلفة تأثيرات ملموسة بالنسبة للأرض.

ولما كانت الأنظمة الهندوسية البوذية المتمثلة (بالجانية) Jain تعتبر جميع أنواع الحياة الحيوانية مقدسة لذلك فهي تشجع بقاء الحياة المتوحشة للحيوانات في الغابات.

وهنالك مثال على المحافظة على حياة الحيوانات بناء على توجيهات الأديان البسيطة. فقد كانت هنالك البساتين المقدسة للهنود الأوروبيين وشعوب البحر الأبيض المتوسط القديمة وهي تقع على أعالي التلال وهي التي قطعها العبرانيون وأزالوها عند دخولهم أراضي الكنعانيين. وقد انتشرت الغابات المحرمة في أندونيسيا والهند وإفريقية ولكن بعض الشعوب الوثنية الذين كانوا يحافظون على إبقاء الأحزمة الخضراء عمدوا إلى إتلاف هذه البساتين بعد تحولهم إلى المسيحية.

هنالك عدة طرق تستعملها الأفكار الدينية لتكييف السلوك الاجتماعي والاقتصادي والتأثير بذلك على الأرض. ففي الأنظمة الزراعية الاقتصادية مثلاً يُعتبر الإنتاج أحد مستلزمات مردود العمل. وهكذا فإن الاختلافات في المردود للعمل يمكن أن تعود إلى اختلافات في القيم الدينية والثقافية. وهكذا ففي بلاد الهند نجد أن نماذج التشكيلات الرأسمالية والاستثمارات ومستويات العمل ومردوده ومتطلبات المستهلك يمكن أن تعود بشكل من الأشكال إلى المبدأ الهندوسي البوذي حول نكران الذات بشكل زهدي. وهكذا تصبح وظيفة الجغرافي معرفة هوية النماذج السلوكية المختلفة التي تعبر عنها بأشكال مختلفة مثل كميات مردودات العمل التي أصبحت ذات مفعول على الأرض أو ربما الإشارة إلى القيم المرشدة التي تقف خلف تلك النماذج السلوكية. مثلاً

يمكن للمرء أن يقارن المواقف المختلفة بالنسبة لبعض المستوطنين الرواد حالما بدأوا بالانتقال غرباً عبر أمريكا الشمالية، وكما فعل بجوركلند مع الجماعة مع الهولنديين المصلحين في ميشغان.

إن الأديان المختلفة تتطلب توزيع وتعيين المواقع للثروات والنشاطات للمحافظة على المؤسسات الدينية فالحياة في الأديرة التي ما هي إلا نوع من المؤسسات الرئيسية في الديانة البوذية وذلك لأن مجتمع الأديرة هو الذي يعيش حياة بوذية نموذجية. والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية تهتم بدور الأديرة في الحياة الدينية أما في الكنيسة الكاثوليكية فإن حياة الرهبان والراهبات تعتبر بديلاً عن الحياة والاختلاط بهذا العالم مع أن سكان الأديرة الكاثوليكية قد قاموا بحركة انتقالية وهو العمل الدنيوي في داخل الأديرة.

وتختلف الحياة الاقتصادية في الأديرة طبقاً لهذه المستويات المختلفة للانسحاب من صخب هذا العالم. ففي الديانة البوذية والجانية Jainism كان من العادة أن يعمل الرهبان داخل الأديرة في أعمال دنيوية ولكن الرهبان اليابانيين من طائفة الزن (Zen) يعتبرون استثناء لهذه القاعدة. أما في الأديرة الكاثوليكية فيتبع الرهبان برامج خاصة للعمل تعطي مردود أو نتائج مدهشة وإذا أجرينا تقييماً جغرافياً للمؤسسات الرهبانية نتأكد كم هي الصعوبات التي تحدث عندما تمتلك الأديرة معظم الأراضي الزراعية وكم يخسر المجتمع عندما يختار قسم كبير من هذا المجتمع حياة العزوبية ويفضلها على حياة الزواج. ولكن هل هي دوماً في حساب الخسارة. أفلا تعمل المؤسسات الرهبانية على التوازن السكاني وذلك بمساعدتها وتيسيرها لتراكم الرساميل؟ وإن الأجوبة على هذه الأسئلة يمكن أن تخفف من الأحكام السلبية التي كانت الحوادث التاريخية توقعها بالمؤسسات الرهبانية.

ولكن يجب علينا ألا ننسى الخدمات التي قدمتها المؤسسات الرهبانية. ففي الحضارة البوذية يعتبر الدير الميكانيكية الرئيسية للتجمع ولَمّ الشمل كما تخدم الكنيسة في الحضارة المسيحية والمدرسة في الحضارة العلمانية ففي

نظام ثيرافادا Theravada البوذي التقليدي كانت خبرة الحياة الرهبانية الواجبة على جميع الذكور تؤمن لمعظم الشباب فترة قصيرة من التدريب على الأعمال والتقاليد الأدبية. وكان هذا الاقتراب والاستهلال للتعليم الجماعي ممكناً لأن الأديرة كانت تمدها القرى القريبة بالرجال ومقابل ذلك كانت قادرة على تقديم التعاليم الدينية وبعض الخدمات الطقوسية المعينة. وبالنتيجة ارتفعت نسبة المتعلمين بين أولئك القرويين في بورما.

إن الأنظمة الدينية التي تجبر الأفراد على قراءة النصوص المقدسة تخلق ظروفاً مناسبة للحصول على مؤهلات تعليمية عالية فاليهود قد شجعوا تعليم الذكور وشجعوا المهارات العقلية المطلوبة لتفسير الشريعة. والإسلام كنظام عالمي يطلب أيضاً تعليم الجميع. وتتطلب الديانة البروتستانتية المعرفة الشخصية بالانجيل باللغة الوطنية وبعد حركة الإصلاح أصبحت المجتمعات البروتستانتية وخصوصاً الكلفنية ذات مقدرة تعليمية عالية الأمر الذي ساعدها بأن تلعب دوراً رائداً في النمو الاقتصادي في شمال أوروبا وهذه المتطلبات البروتستانتية التي صحبتها الأغراض التبشيرية قد أسرعت في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الأخرى وفي خلق اللغات المكتوبة لأغراض لم تكن معروفة إطلاقاً في كثير من أجزاء العالم غير الأوروبي.

وهنالك كثير من الأنظمة الدينية التقليدية التي لديها مؤسسات تقدم خدمات اجتماعية بتكاليف متفاوتة. من ذلك المؤسسة الإسلامية المدعوة الوقف فالوقف هو عبارة عما يهبه بعض الأغنياء من أملاك وأموال ومصالح تُستغل للإنفاق على كثير من الخدمات الاجتماعية للمحتاجين وبنفس الوقت تدعم عدة مؤسسات دينية مختلفة. ومع أن الأوقاف كانت تسد حاجات اجتماعية كثيرة، إلا أنها كانت تسهم في وجود التقييدات حول التصرف بالأراضي الموقوفة وقد ظلت تلك الأراضي مهملة. وقبل حوالي خمسين عاماً كانت الأملاك الوقفية في الأمبراطورية العثمانية تعادل ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية المروية من الدولة. ومنذ ذلك العهد صدرت تشريعات إصلاحية

تهدف إلى وضع الأوقاف في التداول كأملاك شخصية وذلك بقصد تعزيز وتقوية التحسينات عليها.

لقد نظم الإسلام الحياة السياسية والاقتصادية والأهلية للمجتمع من خلال الشريعة الإسلامية، ويعتبر الوقف واحداً من المؤسسات الإسلامية المتعددة التي وضعت بصماتها على الأرض.

مناظر الأرض الدينية:

هل تستطيع مؤسسات أحد الأديان التي تعمل بوتائر متفاوتة من الشدة على الأرض أن تتحد لإنتاج مناظر أرضية ثقافية يمكن اعتبارها مناظر دينية؟ إن الجرميات العالية في الكنائس في الأراضي المسيحية ما هي إلا عنصر واحد يربط مختلف المناظر التي كانت قواها المؤثرة عبارة عن قوى تقنية وبيئية أكثر منها روحانية. ويمثل هذه الرموز التي تعين نسبة وحدات المنشآت الدينية للسكان، يمكن للمناظر الأرضية أن تُخبرنا شيئاً حول شدة فعالية الدين في مختلف الأزمنة ومختلف الأماكن. وهنالك بعض المناظر الأرضية الدينية ذات المظهر الديني الذي يفوق غيرها من المناظر بينما نرى بعض الأنظمة الدينية أكثر فعالية من غيرها في تشكيل المناظر الثقافية. إذ عندما يتوسع المفهوم الديني بحيث يؤلف نظاماً نموذجياً للقيم في المجتمع عندها تتقوى وتتعزز الروابط بين المعتقدات والأعمال وبذلك يمكن للمناظر الثقافية التعبير عن أشكال أو صور متكاملة إيديولوجية. فالمدينة الصناعية والكومون الاشتراكي الزراعي التابع للدولة مثلاً كلها تُظهر التخطيط والتركيبات التي هي عبارة عن ما ينتج من المفاهيم الجغرافية الدينية التي تعود إلى عصور العلمانية.

إن تأثير الأنظمة الدينية الرسمية على الأرض يظهر واضحاً جلياً عندما يحتل نظامان محليان أو أكثر مكاناً واحداً. مثلاً يحتل النظام المسيحي بعض مواقع الأراضي في لبنان المحاط ببيئات إسلامية بينما يحتل النظام الديني الإسلامي بعض المواقع في جنوب يوغسلافيا وألبانيا وفي الولايات المتحدة

الأمريكية هنالك بعض الطوائف الدينية التي خلقت مواقع ثقافية. وتؤلف مجتمعات اميش مينونايت Amish Mennonite (في بنسلفانيا الهولندية) مثلاً على هذه الظاهرة أيضاً. وتتميز بعض التقاليد والعادات في مجتمع الأميش Amish هذا منها عدم وجود مبانٍ كنسية، والافتقار إلى إظهار الدين وعدم الرغبة باستعمال المركبات الآلية ونبذ العادات والسمات الاجتماعية للمجتمعات المجاورة من غير الاميش Amish كل هذه تؤلف بعض عناصر السلوك والمواقف، المؤسسة على المبادىء الدينية القوية الجذور في هذا الشعب وإن مثل هذه الصفات تدل على علامات عرقية لدين عالمي.

وفي منتصف القرن التاسع عشر تطور الدين المورموني Mormont بحيث أصبح قريباً من الأديان العرقية المميزة.

وإذا قمنا بدراسة حديثة لمجتمع أمريكي آخر تظهر لنا العلاقات الحميمة والايديولوجية الدينية والسلوك الاجتماعي والمواقع الثقافية. وهذا ينطبق على مجمع هولندي يدعى البجوركلاند Bjorkland المؤلف من حوالي (٤٠,٠٠٠) مواطن من جنوب غرب ميشغان وهو يظهر للعيان كيف طُبق نظام ثانوي ديني إصلاحي في منطقة جديدة ومستوطنة جديدة حيث تم تنظيم المكان وتم استغلال الموارد والثروات. وقد تم ذلك في فترة تزيد على قرن ونصف أو أكثر حيث نتجت مواقع أرضية جديدة تحتوي مظاهر نتجت من الاختيارات والقرارات المؤسسة على معتقدات دينية ثابتة. مثلاً نشأت مستوطنات ذات نوى كنسية ولكن الخدمات التجارية روعيت فيها تمام المراعاة.

ويمتلك رجال الكنيسة قطعاً كبيرة من الأراضي، وهكذا استطاع رجال الكنيسة نبذ المظاهر الكلفنية غير المرغوب بها من الميدان. وقد استعملت أنواع متخصصة من الزراعة التجارية ونمت مذاهب تتطلب الاعتماد على النفس والنشاطات المنتجة ونمت صناعات خفيفة محلية لتشغيل الفعاليات في فصل الشتاء وحتى لإمداد العمل اليومي في المزارع أثناء الفصول الزراعية

والمواسم. ونشأت مدارس ابتدائية وثانوية تحت إشراف الكنيسة وتعليماتها الدينية واقترحت برامج للعمل. وقد انتشرت الأسماء الهولندية في المنطقة وهي تدل على الطبيعة غير العرقية للنظام الديني. وإن دراسة نظام من هذا النوع تشير إلى اتجاهات جديدة تستطيع الأبحاث الثقافية الجغرافية القيام بها وذلك بمتابعة ذلك الموضوع الجديد وهو قدرة الإنسان على تعديل بيئته.

الفصل الرابع

تنظيم الأديان للأماكن

الأماكن المقدسة والأراضي المقدسة:

تتبع بعض المجتمعات ما يظهر بأنه عمل مقدس من تحويل للأمكنة الأرضية. وبهذه الطريقة يمكن تمييز عدة أنواع من الأمكنة المقدسة، وكما أن البيئة تصبح مقدسة بشكل اصطفائي في الأديان العرقية البسيطة، كذلك تصبح الأماكن والأراضي المقدسة بشكل اصطفائي بالنسبة للجغرافية القبلية. فهنالك القبائل الأسترالية التي تسكن في وسط تلك البلاد تقدس أمكنة معيشتها من خلال الخرافات التي تختص بالأجداد والعلامات المرافقة للأجداد والأسلاف المقدسين وبعض الأشياء والبقايا المقدسة التي تدعى (تشورينجا) Churinga، وهذه تمثل صورة للأراضي القبلية وهو الميدان الذي تعم فيه تلك المعتقدات وطرق الأجداد التي سار عليها هؤلاء في (زمن الأحلام) وقد جعل ايلياد Eliade الحياة القبلية للأستراليين الأصليين عالماً قائماً بذاته بأنه جعله عالماً عرقياً رغم كونه عالماً فوضوياً. إذ أنّه انقطعت الروابط الدينية القوية لذلك العالم مع الأرض إذن لانقطع ذلك العالم كله واندثر.

إن الجغرافية الأسطورية للقبائل الأسترالية القديمة في أيام الأحلام تتفق مع بدء حياة القبيلة جغرافياً وهنالك بعض الأديان التي توجد فيها بعض الجغرافية الأسطورية أو المقدسة التي لا تتفق مع الواقع. ومع ذلك فإن طوبوغرافية الجنة وجنة عدن والفالهالا Valhalla والحقول الايليزية وغيرها من

الأسماء التي نشأت من الخيال الديني تبدو جميعها وكأنها تشمل تقديساً لبعض عناصر الجغرافية الأرضية.

وإن تقديس الأراضي المحلية موجود بشكل تقني في بعض المجتمعات المتقدمة. ويسير القرويون الهنود الذين تحولوا إلى الديانة المسيحية في تشياباس Chiapas في الهضاب الجنوبية القاصية لبلاد المكسيك في مواكب سنوية على رأسها موظفون مدنيون إلى كل من الأماكن المقدسة التي تقع على حدود أراضي القرية. ويقال أن هذا الموكب يخلد ذكرى المؤسسات الاجتماعية والجغرافية المقدسة للثقافة المايانية Mayan التي سبقت احتلال أسبانيا لتلك البلاد. وفي جنوب آسيا تحدث تحديدات فعلية لأراضي القرية من آن لآخر بين الفلاحين الهندوس وشعوب القبائل الأخرى وقد أصبحت القرى التي يسكنها العاملون في الزراعة في جنوب شرقي آسيا منفصلة طقوسياً عن العالم الخارجي أثناء فترات المنع (التابو) التي كانت تميزها القرابين الحيوانية. فقد فرض حجر طقوسي ولم يسمح لأحد بالدخول أو الخروج من القرية. وكانت هنالك بعض الأمكنة المميزة تختلف في خصائصها الطقوسية عن الأراضي المحيطة بها ووضعت بعض العوائق على الممرات المؤدية إلى القرية. وأحيطت مجاري المياه والمنحدرات بخيوط رمزية لهذا الغرض.

وتحافظ بعض الشعوب على أمكنة مفتوحة في العراء مخصصة للأعمال الطقوسية ضمن أراضي القرية المدنسة. وفي الأديان البولينيزية كانت هذه المنطقة المحرمة تقع خارج أماكن سكن المدينة لمنع تلوث المدينة وتدنيسها. وكان المعبد اليوناني يفرد ويُميّز بكونه مكاناً طقوسياً مقدساً ويعتبر المذبح المفتوح في معبد السماء في بكين تحسيناً لذلك المبدأ.

وفي الديانة الهندوسية توجد الأراضي المقدسة في عدة أشكال. مثلاً من أجل إبعاد الأمراض وخصوصاً في شمال الهند تعتبر القرية المنطقة الطقوسية النموذجية. وأما أراضي الطبقات المغلقة التي تتألف من حقل مغلق

لا يصل إليه أحد، ويصعب تمييزه عند توزيع الطبقات ولكنه يصبح واضحاً عند ذكر قواعد وقوانين الطبقة المرعيـة. وتفرض بعض الـطبقات بعض العقوبات على أعضائها وخصوصاً النساء اللاتي يعبرن حدود أراضي الطبقة. وفي حوالي عام ٥٠٠ ق. م كانت منطقة أواسط سهل الكانج هي وطن البراهمة الأصلي، بينما كانت أراضي دلتا البنغال إلى الشرق ووادي نهر السند إلى الغرب تعتبر جميعها أراضٍ ملوثة غريبة (Melchha) ولم يكن من اللائق لأي رجل من رجال البراهمة أن يسافر إلى تلك المناطق. إذ عليه أن يقوم بإجراء الكفارات. إذا صدف وذهب إلى تلك البلاد، ثم رجع إلى بلاده. وقد امتدت هذه المفاهيم جنوباً خلال شبه جزيرة الهند وساعدت على تحديد الأراضي الهندوسية. وحتى في هذه الأيام يقال أن بعض الطبقات المنغلقة المحترمة تجري الكفارات بعد أن يسافر أفرادها عبر المحيط وكذلك يؤخذ الولد البكر الذي يولد خارج الوطن إلى الهند لقص شعره بشكل طقوسي لأول مرَّة. وتبدو أراضي الوطن أمكنة نقية طقوسياً في الأديان العرقية الأخرى. ويعتقد شعب الشنتو أن هناك وصاية خاصة ممتدة إلى أراضي وإلى شعب اليابان من قبل الآلهة الأجداد. وهنالك كلمة «أرض الآباء المقدسة» وهي كلمة تتردد في الأديان الحديثة.

ربما تطرق إلى الأذهان أن التقديس الرسمي لأرض الأجداد يقلل من قيمة الحركة. ففي إحدى مراحل الدين الصيني تعتبر المقابر القديمة للأجداد بؤرة التقديس وبما أن بعض أفراد العائلات إن لم نقل كلهم مجبرون على صيانة تلك المقابر فإن ظاهرة الحركة في الماضي قد نقصت دون شك أو ريب ويظهر أن الهجرات على مقياس واسع من الصين قد حدثت في أحوال مأساوية فقط. وقد كان تقديس أماكن الآباء والأجداد قوياً جداً في القرن الماضي حتى إن أجساد الصينيين الموتى فيما وراء البحار في جنوب شرق آسيا كانت تنقل بالسفن إلى الوطن. وقد كانت هذه الشروط لتأمين نقل الجثث في حالة الموت في عقود العمل لأولئك العمال الصينيين إلا في خارج

بلادهم. وفي الفيتنام حيث توجد نفس تلك التقاليد، كان الفلاحون الذين يعملون في القرن الماضي في دلتا نهر تونج كنج Tong king يكرهون هجر القبور القديمة والتحرك إلى أراضي دلتا نهر ميكونج Mekong رغم حالة تلك المنطقة الممتازة زراعياً ويُلاحظ أن الفيتناميين الذين اعتنقوا الديانة الرومانية الكاثوليكية قد تحرروا من قيود الدين العرقية وأصبحوا أكثر حركة تماماً، كما أصبح أهالي أوروبا المسيحيون أكثر حركة ونشاطاً بالمقارنة مع الصينيين الذين يفضلون القعود وعدم الحركة.

إن الأمثلة التي تعطيها المفاهيم المسيحية تُظهر لنا أن عملية الدفن ليست مرتبطة بالالتصاق القوي بالأرض، بينما تظهر الهندوسية أن عملية حرق الموتى هي كذلك. ومع أن الهندوس قد ارتبطوا دوماً بالالتزامات الاجتماعية بالنسبة للمجتمع الثابت جغرافياً، إلا أنهم يمكن أن يهجروا بيوتهم عند شعورهم بدنو أجلهم حتى يمكن حرق أجسامهم في أحد الأمكنة المقدسة ومن المفضل أن يكون ذلك في بناريس Banaras حيث يمكن إلقاء رمادهم في نهر الكنج المقدس. ويدفن المسلمون الرعاة والرُّحل موتاهم ويضعون بعض العلامات الفارقة على القبور ولكن ليس لديهم أي نوع من الالتصاق بالمكان.

الأماكن المقدسة:

هنالك بعض الأماكن التي تتسم بوجود صفات مقدسة فيها. وتكمن القداسة عادة في الشجر أو الصخور، أو التلال، أو البحيرات أو الكهوف أو يمكن أن تظهر في أماكن لها علاقة بشخص مقدس أو حادث مقدس. وهنالك نوعان من القوى المقدسة: النوع الجذاب الذي يجعل من المكان المقدس مزاراً أو النوع المنفر والمخيف الذي يجعل من المكان حظراً أو منعاً أو حتى لعنة ويصبح محظوراً على الجميع ما عدا بعض الأشخاص المعصومين.

ولما كانت ملاحظة القداسة تختلف من مجموعة إلى أخرى فالإنسان لا

يستطيع التعميم بالنسبة للمواقع المقدسة وقد اعتادت الثقافات في الماضي إضفاء صفة القداسة على فئات مختلفة من الأشياء الطبيعية كبعض أنواع الأشجار في إفريقيا الاستوائية أو الأماكن العالية في الشرق الأدنى.

لقد أصبحت جغرافية الأماكن المقدسة في الهند معقدة وذلك بسبب وجود المقابر والمدافن المنوعة ووجود عدة مستويات من القداسات وإن معظم الأماكن المقدسة في الهند ما هي إلا علامات فارقة أكثر منها أماكن مقدسة. ولكن الأماكن المقدسة الهندية الهامة توجد على منابع الأنهار (بحيرة ماناساروار Manasarwar وأماركانتاك Amarkantak) وعلى مصبات الأنهار (جزيرة ساجار والله أباد) وعند تفرع مجاري الأنهار مثل (هاردوار Hardwar وسرارنجام Srirangam) وعلى قمم الجبال وقمم التلال قمة جبل (آبو Abu وماهابا ليشوار Mahabaleshwar) وعلى الرؤوس (رأس كومورين Comorin ورامسوارام Rameswaram) وبجانب البحيرات وفي الكهوف وعادة حيثما توجد الأعاجيب الطبيعية.

وإن توزيع الأماكن المقدسة يظهر بعض العلاقة ببعض الظواهر المصطفاة للأماكن الطبيعية مع أن درجة القداسة في مثل تلك الظواهر تختلف من منطقة إلى أخرى وتتوزع قداسة الأمكنة بشكل كافٍ في مواقع المعابد الهندوسية. ولما كانت معظم المعابد الهندوسية قد أقيمت من هبات وعطايا الأثرياء في البلاد وأصبحت مؤسسات مستقلة، لهذا فليس من الضروري أن تكون تلك المنشآت قريبة من أماكن تجمع السكان مع أن المواقع المقدسة تقدم البهاء والرونق للجميع فضلاً عن الخدمات الاقتصادية وهكذا أصبح اختيار موقع المعبد قابلاً للتعديل والتحويل طبقاً للجغرافية المحلية المقدسة فأصبح المعبد الهندوسي نتيجة لذلك موجهاً توجيهاً حسناً بدلاً من أن يوجه نحو المجتمع والناس.

وإن مواقع الكنائس والمعابد في الأديان العالمية لا تقتصر على خدمة المجتمعات، بل تكون تلك المواقع أحياناً مخصصة لتقديس بعض الحوادث

التاريخية والأسطورية. وأما المواقع ذات الصلة بحياة الأساتذة والقديسين فهي تكتسب صفة القداسة غالباً في كلا الديانة البوذية والمسيحية غير البروتستانتية. وفي الإسلام يحترم عامة الشعب القبور العائدة للأولياء ويبنون المساجد قرب تلك القبور رغم احتجاج وعدم موافقة السلفيين.

وفي أوروبا الكاثوليكية بُنيت بعض الكنائس للسيطرة والهيمنة على بعض المواقع التي كانت مقدسة في الفترة التي سبقت قيام المسيحية كقمم التلال في فرنسا وإيطاليا. وعندما أرسل البابا غريغوريوس البعثات التبشيرية إلى أنكلترة في القرن السادس الميلادي أوصى المبشرين بألا يهدموا المعابد الوثنية ولكن أن يحولوها إلى كنائس. وبعد ألف عام، لم يخرب المستعمرون الأسبان والانكليز المعابد في أمريكا، ولكنهم حولوها إلى كنائس. وعملوا على تقديسها. ومعظم عشرات الكنائس حول المدينة المكسيكية التي تدعى تشولوتا Choluta بنيت على مرتفعات كانت في يوم من الأيام معابد أزتيكية Aztec.

إن تنقل القداسة بهذا الشكل شائع في التاريخ. ففي أوائل العهد الإسلامي حولت بعض الكنائس والمعابد الزرادشتية إلى مساجد وقد اتبع الإسلام تلك القاعدة التي تقول أن الأماكن المقدسة تتجاوز التغيرات الدينية، وفي الشرق الأوسط والهند يمكن أن يحظى نفس المكان بالاحترام الكامل على يد دينين أو ثلاثة أديان مختلفة وذلك لارتباطه بأحد الأبطال في كل دين من تلك الأديان.

المراكز الدينية:

تصبح الأماكن المقدسة مراكز دينية بشكل أنظمة عرقية بسيطة وهي تتطور إلى أنظمة أكثر تعقيداً. والمراكز الدينية هذه التي تصبح بؤرة من بؤرات القداسة يمكن أن تحل محل الأماكن المقدسة الكثيرة للأديان البسيطة السابقة أو ربما تواكب هذه الأديان وتساندها.

وإن دور المراكز الدينية الأولى في تطور الحياة المدنية لا يزال غامضاً وهو ليس متشابهاً في معظم الحالات، فالشعوب الكلتية في بريطانيا قبل قدوم الرومان، كان لديهم مراكز دينية خدمت كمواقع سنوية للتجمعات الدينية والسياسية، ولكن هذه المراكز لم تكن أماكن مدنية تغطيها المساكن الحضرية الدائمة. فهنالك مجموعات وتكتلات من الأبنية الحضرية الدائمة لبعض الشعوب مثل شعب الأكسمال Uxmal وشعب الشيشين إتزا Chichen Itza ولكن يُظن أن هذه التكتلات ما هي إلا بؤرات طقوسية محضة ربما لم تكن مسكونة بشكل دائم، بحيث لم تظهر المدينة بشكل طبيعي. ففي الهند الهندوسية نمت المدن حول الأماكن المقدسة ومنشآت المعابد ويمكن لهذه العملية أن تلقي الضوء على علاقة الدين والمراكز الدينية بالبدايات المدنية. إذ عندما تبدأ فكرة المدنية تنعكس العلاقات السائدة بين الأعمال والوظائف الدينية والأعمال والوظائف الأخرى. فالآلهة الحارسة للمدن اليونانية لم تكن إلا أفراد عائلة مشهورة في إحدى المدن البارزة. وبعد ذلك أطلقت على بعضهم بعض الوظائف والصفات الإلهية بينما بقيت العائلة هي الموجهة الوراثية لتلك الزمرة من الآلهة. هذا وقد نتج عن توسع بعض الأنظمة الدينية كالكاثوليكية في المسيحية والإسلام وامتدادها إلى أراضٍ جديدة، نتج عن ذلك خلق حوافز لتشكيل المدن حول المراكز الدينية. وقد خلقت الكنيسة في أوروبا الشمالية ابتداء من القرن السادس حتى القرن التاسع وفي أمريكا اللاتينية في القرن السادس والسابع عشر والثامن عشر، خلقت مراكز دينية كانت في نفس الوقت مراكز مدنية وثقافية ولا تتبع هذه المراكز الدينية في مختلف الأنظمة الدينية وفي ظروف نموها أي دور معين. فالمراكز الدينية المقدسة يجب تمييزها عن تلك المراكز التنظيمية أو العواصم الدينية. فمدينة الله أباد وبنارس والقدس تعتبر مدناً مقدسة بسبب قداسة موقعها بينما نجد أن القدس وروما وكيوتو وسولت ليك كانت جميعها أمثلة على العواصم الدينية رغم وجود بعض القداسة الدينية في بعضها.

ومعظم المدن الكبرى التي تعتبر مراكز دينية تظهر أنها مختلفة الوظائف وقد سنحت لها الفرص لتصبح مختلفة الوظائف لأسباب جغرافية ليس لها علاقة مباشرة بقداستها أو لدورها كعواصم دينية. فقد كانت القدس خلال جزءٍ من الألف الأول ق. م عاصمة للنظام الديني العرضي وعاصمة الدولة، وكان لها نظائر في مدن مثل بابل وطيبة وهما مركزان من المراكز الدينية العرقية وعاصمتان من عواصم الدول في الشرق الأدنى القديم. وقد كانت مدينتا تينوشتيلان Tenochtilan وكوزكو Cuzco وهما عاصمتان لأمبراطوريتي الأزتيك Aztec والأنكا Inca بالتوالي كانت هاتان المدينتان أولاً عاصمتين لنظامين دينيين تسببا في توسيع سلطتهما بتبرير ديني للعمليات الحربية. فقد ذكر كهنة الأزتيك الشعراء أن الحرب التي هي المصدر الرئيسي للتضحيات البشرية هي من الأهمية بمكان عظيم لعبادة الإله الشمس. وهكذا أصبحت تلك العاصمة الدينية مركزاً لشبكة أمبراطورية عسكرية. هذا وقد عملت بكين خلال الألف الأخير كعاصمة سياسية للصين الأمبراطورية وبنفس الوقت كانت مركزاً إدارياً للدين الرسمي في تلك البلاد.

وتعتبر مكة والمدينة في هذه الأيام بين المراكز الدينية والتي تؤلف مدناً كبيرة نسبياً وهي فريدة في نوعها لأن دورها الديني يؤلف ما يمكن أن ندعوه وظيفة مدنية فائقة. فهما مدينتان مقدستان لارتباطهما بالنبي محمد ﷺ ونشوء الإسلام. وتحتفظ مكة أيضاً بقداستها التي كانت تتمتع بها في عصور الجاهلية وما قبل الإسلام لوجود الكعبة فيها، وكانت مكة والمدينة في ذلك الوقت مركزين تجاريين على طرق القوافل التي تصل اليمن والحبشة بالهلال الخصيب عن طريق الحجاز ولكن هذه الأهمية التجارية قد اختفت منذ وقت طويل وبقيت هاتان المدينتان اللتان يبلغ مجموع عدد السكان فيهما حوالي (٣٠٠) ألف نسمة مركزاً من المراكز القدسة للإسلام حيث يتم الحج إليهما كل عام ولكن مكة لم تكن عاصمة دينية إذ أن مركز الخلافة الإسلامية انتقل منها إلى مدن أخرى بعد وفاة النبي محمد ﷺ بقليل.

وهنالك بعض الأماكن المقدسة التي لم تتطور بحيث تصبح مراكز مدنية مع أنها لم تَخل من الثروة والمهارات الفنية ـ وكأمثلة على ذلك نجد (ايسي) Ise التي تعتبر قلب الديانة الشنتوية النابض وجبل أبو Abu وهو المقام الرئيسي لديانة الجين Jain ودلفي المكان المقدس في تاريخ أثينا الكلاسيكي ويعزى افتقار هذه الأماكن للنمو والشهرة إلى موقعها ومركزها الجغرافي فقد كانت قداسة هذه الأماكن في السابق معتمدة على الألغاز والأسرار الموجودة في الأمكنة البعيدة. ففي بعضها مثل جبل أفوس وايسي Ise تقلصت التكتلات البشرية بسبب احتفاظ تلك الأمكنة باختصاصات دينية قديمة بائدة. ولكن بعض هذه المقامات المنعزلة ربما امتلكت أهمية رمزية كمراكز للدمج والتوحيد السياسي فقد كان موحى دلفي طبقاً لما ذكره المؤرخ ديفونتانيس Dephontaines أحد العوامل الرئيسية لتوحيد اليونان.

مواسم الحج:

هنالك أهمية جغرافية يتمتع بها المركز الديني بسبب انسياب النشاط التجاري إلى تلك المراكز وتشعب طرق المواصلات منها وإليها وهذه المراكز تتمتع بوجود مواسم دينية كمواسم الحج التي ينتج عنها حركة تجارية وتبادلات ثقافية وامتزاج اجتماعي وتكامل سياسي فضلاً عن بعض النتائج الثانوية الضارة كانتشار الأوبئة والأمراض.

ويمثل الحج الذي يقوم به المسلمون إلى مكة موسماً خاصاً ليس له علاقة أخرى بالمواسم الأخرى فالحج يمتاز بوجود مصادر هائلة لتغذيته تمتد من السنغال إلى سيليبس. وفي السنوات الماضية بلغ عدد الحجاج حسب التقديرات التقريبية حوالي (١٠٠) ألف حاج كل سنة[١].

ولقد تأمنت طرق المواصلات إلى مكة والمدينة بإقامة شبكات من طرق

---

(١) هذا الرقم قديم أما في السنوات الأخيرة فقد تجاوز العدد المليون (المترجم).

المواصلات، فزادت خدمات السفن البخارية من إفريقيا الشرقيـة والهند والملايو وأندونيسيا مع مرفأ جدة العربي وقد أنشىء خط حديدي، كان قصير العمر، من دمشق إلى المدينة المنورة وهنالك خطوط جوية دولية تصل سائر أنحاء العالم الإسلامي بجدة. هذا وقد استمرت القوافل التجارية القديمة في العمل رغم ضآلة خدماتها. وتنعكس الصفات العالمية على أهالي مكـة والمدينة الأصليين والدائمين فمع أن سكان هاتين المدينتين هم من المسلمين إلا أن أكثريتهم ليسوا من العرب.

ولقد كانت مواسم الحج مظهراً من المظاهر الهامة في جغرافية الهند الهندوسية. فقد كانت هنالك عدة أماكن مقدسة ومفرقة في جميع أنحاء البلاد. ويعتمد عدد الحجاج إلى تلك الأماكن على درجة السهـولة في المواصلات وكثافة عدد السكان في المناطق الداخلية، ومع ذلك فإن مستوى القداسة لأي مكان مقدس مع ما فيه من ملحقات من الرجال المقدسين والصوفيين يتناسب أصلاً مع الطوبوغرافيا المقدسة للهندوسية أكثر من قضية توزيع السكان.

وهنالك مواسم للحج غير رسمية تقع في بعض أقاليم الهند وفي جميع أنحاء الهند فهنالك عدة مراكز للحج في الهند مثل رأس كومورين Cape Comorin و (رامس وارام) Rames waram ويقع هذان المركزان في الحدود الجنوبية القاصية لشبه الجزيرة الهندية. وهنالـك (بادرينـات) Badrinath وكيدرانات Kedranth وهما واقعتان في جبال هملايا قرب منبع نهر الكنج وقد توجهت طرق المواصلات خلال القرون الماضية في الهند تجاه تلك المراكز المقدسة. وهذه المواسم الدينية للحج قد خلقت وغذت روابط المكان التي تجسدت في الفكرة القائلة أن الهند هي وطن الهندوس وهذه الفكرة غذّت الحركة الوطنية الحديثة.

أما في اليابان فهنالك مواسم للحج تعتبر إحدى مظاهر الأنظمة الدينية اليابانية ويعتقد اليابانيون أن آلهة الشنتو في اليابان يحجون كل سنة إلى مواطن

آبائهم وأجدادهم. أما في الصين فإن الحج لا يعتبر من المواسم الاقليمية الهامة رغم وجود الشريحة البوذية الدينية في تلك البلاد. فالحج كان ذا أهمية ثانوية لبناء المجتمع في الديانة البوذية والمسيحية اللتين تمتلكان شبكات أخرى منظمة كوجود الأديرة مثلاً وبعد أن فشلت البوذية في الانتشار في سهول نهر الكنج الشرقية في أوائل العهد المسيحي، بقيت جذوة البوذية كدين عالمي وبقيت المواقع المقدسة المرافقة لحياة بوذا في سبات لعدة قرون وظلت مواسم الحج في مناطق داخلية واتسمت بالاقليمية أكثر من البوذية القومية. والآن وبعد أن انتعشت البوذية كحركة عالمية بدأت الأماكن المقدسة البوذية في غايا Gaya وسارناث Sarnath تعمل كمراكز بوذية رغم وقوع هذه المراكز في أقاليم لا تدين بالبوذية.

وأما في أوروبا وفي العصور الوسطى فقد قدَّمت الكنيسة بشبكاتها المتعددة نظاماً دورياً خاصاً. وقد تطورت الطرق التجارية التي تصل البؤرات الإقليمية مثل مقام القديس جيمس في سانتياجو في اسبانيا. ووجدت مراكز مثل كانتربوري ورمسيس ذات صلات بحوادث مقدسة تاريخية والتي اشتهرت بدورها كمراكز إقليمية قديمة للإدارة الدينية ولكنها أصبحت مقامات قومية وأصبحت كانتاربوري بمرور الزمن بؤرة مقدسة من بؤرات الكنيسة الانجليكانية. هذا وهنالك مواسم إقليمية للحج في الإسلام بين الشيعة الذين يضيفون موسم الحج إلى مدينة كربلاء في العراق ومشهد في إيران فضلاً عن الحج إلى مكة المكرمة. فالمواسم الاقليمية هذه ربما نتج عنها تمازج وتكامل إقليمي ذي صبغة دينية أوسع.

أما مقام العذراء في مدينة «جودا لوب» Gaudalupe قرب مدينة مكسيكو. فقد أصبح البؤرة الشعبية المقدسة للشعب المكسيكي الكاثوليكي العرقي المختلط منذ القرن السادس عشر. وقد عزز هذا المقام وضع شبكة الطوائف الدينية والأيكروس المتمركزين في العاصمة المجاورة.

إن الأماكن المقدسة كمقام جودا لوب Guadulupe الذي بدأ يتطور

بشكل عفوي، ما هي إلا إحدى السمات المميزة للعالم الهندي والروماني الكاثوليكي. وعادة ما ترافقها تظاهرات خاصة تجذب أعداداً من الحجاج إليها. والعالم الهندوسي يعترف بشكل غير سمي بقداسة تلك الأماكن بينما العالم الكاثوليكي يطلب موافقة الكنيسة على ذلك ولكن لا تظهر أسباب الشعبية التي تتمتع بها تلك الأماكن بشكل واضح. ولقد اقترح بالنسبة لشهرة جوادالوب أنه كانت هنالك حاجة ماسة لسكان مدينة مكسيكو لإثبات شخصيتهم وشخصية المدينة ولقد نجحت عذراء جوادالوب في ذلك الصدد. ولكن ما خطب تلك المقامات المتفرقة في أنحاء كثيرة من البلدان الأوروبية وما الذي سبب انتشار شهرتها يا ترى؟ والحقيقة أن الأصول الاجتماعية والنفسية التي تحث الحجاج على الذهاب إلى تلك الأماكن هي خارج نطاق تفكيرنا وبحثنا ولكن خصائصها الجغرافية يمكن دراستها إذا لم تكن قد درست تماماً في السابق، إن حجم الزوار الكاثوليك يلفت النظر. ويأتي حوالي مليونان من الحجاج لزيارة مقام القديسة (آن دي بيوبر) Beaupre على شاطىء مقاطعة كويبك ويصل إلى لورديس في جنوب غربي فرنسا وليبوكس في نورمانديا أكثر من ملبون وقد أصبحت هذه الأرقام الكبيرة ممكنة بسبب حجم العالم الكاثوليكي في المناطق المجاورة، ورخص وسائل النقل من سكك حديدية وباصات، حتى إننا نجد الاختلافات الاقليمية في داخل فرنسا بالنسبة لزيادة أو نقصان عدد الحجاج لتلك المراكز لم تتأثر بعامل تكاليف قطع المسافات، فرغم تزايد عدد الحجاج والقداسة التي تعزى لهذه الأماكن فالمدن بأنفسها قد احتوت على بضعة ألوف من السكان.

وهنالك بعض الأديان مثل الديانة اليهودية وبعض الطوائف البروتستانتية الأمريكية التي لا تمتلك أية بؤرة ثانوية.

وتظهر بعض المراكز الدينية الضعيفة التطور في البروتستانتية. إذ تتمتع جنيف بجذب خاص بالنسبة للكلفنيين ولكننا لا نستطيع اعتبار جنيف مركزاً دينياً إلا إذا توسعنا في مفهوم الحج ليشمل مختلف أنواع السياحة الحديثة

المعاصرة. فالحج إلى الأماكن المقدسة لا يخلو من صفة السياحة والترويح عن النفس. ففي الشرق كما هو الحال في الغرب هنالك أنواع من السياحة المدنية إلى أماكن مقدسة لها صفات ومزايا تاريخية وأثرية ومنظرية أيضاً.

الدورات الثقافية والتجارية للأنظمة الدينية:

هنالك دورات ذات حافز ديني ولها أهميتها في نشر الأفكار ضمن الأقاليم المتدينة وهي التي قد نُظمت حول مراكز الدراسة الدينية ومن الممكن أن تكون هذه بؤرات ذات قوى جاذبية نحو المركز عندما تكون الشبكات الإدارية غير متطورة، ففي البوذية التي تفتقر إلى مثل هذه الشبكات نجد المراكز الرهبانية للتعليم في شمال الهند مثل (نالاندا) Nalanda وبيهار Bihar قد استطاعت جذب المتعلمين من أماكن بعيدة كشمالي الصين مثلاً خلال القرون المسيحية الأولى.

ولقد كان للإسلام تطورات مشابهة دقيقة في تلك الدورات الثقافية التعليمية دون وجود طبقة الكهنة أو أي منظمة مشيخية لها مكان معين. ولما كانت الايديولوجية الإسلامية تخترق عدة مظاهر من الحياة فإن دراسة النصوص الدينية لها علاقة بدراسة الشريعة ومن ثم تتفرع إلى التاريخ والعلوم. وهكذا أصبحت مراكز الدراسة الإسلامية الرئيسية في القرن السابع الميلادي تمثل الجامعات القديمة التي كانت متوضعة في المساجد الرئيسية في المدن الكبرى فكانت فاس وبخارى وقرطبة في اسبانيا هي المدن التي أسهمت إسهاماً فعالاً في نشر التقاليد الثقافية الإسلامية وتشتهر القاهرة أنها كانت مركز الأزهر المسجد والأزهر الجامعة وهو المؤسسة التي لا تزال بارزة في أهميتها في نشر التعاليم الإسلامية في هذه الأيام.

ولقد عملت مراكز الدراسات الدينية والدنيوية كمراكز لتعميم الدراسات العقلية في القرن السابع عشر والثامن عشر في أمريكا الشمالية وتوجت أعمالها بإنشاء مدارس مثل هارفارد Harvard وبرنستون Princeton على يد الكنائس

المستقلة والكنائس البريسبيرية بالتوالي وكانت هذه المدارس تهدف إلى إعداد وتدريب الأكليروس.

وهنالك نوع من أنواع التداول المؤسس على المراكز الدينية وهو تجارة الأصناف اللازمة للمؤسسات الدينية الطقوسية. إذ عندما كان السفر بطيئاً وصعباً كان الطلب على الأصناف المقدسة الطقوسية مغرياً للقيام بالتجارات التي تستغرق مسافات طويلة والطلب على الأصناف الطقوسية لا يزال سبباً في إبراز بعض النماذج الغربية التجارية، كما يحدث عندما يبدأ الغطاسون المسلمون في جوار جزيرة سيلان في جمع مئات ألوف أصداف المحار كل سنة لأن تلك الأصناف مطلوبة لإعداد بعض الأدوات المستعملة في المعبد الهندوسي والطقوس الأهلية في البنغال. ولقد شجع طلب خشب الصندل المستعمل كبخور في الطقوس الشرقية، شجع اختراق التجار للبحار البعيدة ووصولهم إلى الغابات الاستوائية القاصية، تلك الرحلات التي كانت تقودهم إلى جزر تيمور وهوايا.

وبعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية في الأمبراطورية الرومانية نشأت تجارة الصمغ العطري المستعمل كبخور في الكنائس في حوض البحر المتوسط وقد امتدت هذه التجارة حتى البحر العربي وكان الصمغ العطري والبخور والمر ينقل بالقوافل من مرتفعات جنوب بلاد العرب والصومال وقد كانت التجارة بالبضائع الطقوسية التي كانت تنقل عن طريق البر من اليمن إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط في القرن السابع كانت جزءاً من التجارة التي كانت تؤلف وتسبب الازدهار في مكة والمدينة.

وهنالك تداولات أخرى صاحبت مراسم الحج والتجارة في البضائع المقدسة ربما حملت بعض الأفكار الدينية المشابهة.

التنظيمات الأرضية للأنظمة الدينية:

تتصل المجتمعات المنفصلة ذات الدين الواحد بعضها بالبعض الآخر جغرافياً لتشكل مناطق جغرافية، فالبُنية المكانية للأنظمة الدينية لا بد وأن يتكون لديها مغزى وأهمية خاصة بالنسبة لقابلية تلك المجتمعات للسيولة والديناميكية وذلك من أجل ما تولده تلك التجمعات من حركة دورانية ومن أجل مقدرتها على تبني الشخصية الإقليمية ومن أجل طبيعة تفاعلاتها مع الأنظمة الدينية الأخرى وإن الكنيسة التي تصنع طقوساً عامة للمجتمعات المنفصلة من نفس الدين ما هي إلا شكل مألوف من الأشكال التنظيمية الدينية. وإن اتحاد المجتمعات المفردة المطلوب للتدريب على الاختصاصات الطقوسية وللاتفاق حول تعديل الطقوس ولنقل التقاليد العامة ولتحويل بناء وحدات مذهبية جديدة ما هو إلا عنصر من عناصر التركيب المكانية في الكنيسة. وإن دمج المجتمعات الدينية يمكن أن يحدث خارج المؤسسات الرسمية للكنيسة ومن خلال عناصر علمانية مثلاً أو من خلال الأشخاص الذين يقومون بممارسة الوظائف الدينية دون أن يكلفهم أحد بالقيام بهذه الوظائف وهذا ينطبق على وسائل نشر الدين في المجتمعات الإسلامية.

هنالك بعض الأنظمة الدينية التي لم تبلغ درجة التنظيم التي وصلت إليها أنظمة الديانة المسيحية وهكذا فهي لا تنشىء كنائس. وإن التنظيمات المكانية لهذه الأنظمة تتألف من خطوط الاتصال بين جميع أنواع الممارسات الدينية والشخصيات فضلاً عن علاقتها أي علاقة هذه الشخصيات بالمجتمع. هذا وإن الاختصاصات والوظائف الدينية تندرج من الشامان النبي إلى الرجل القديس الأسطوري إلى الناسك المترهب، إلى الكاهن إلى معلم الدين ثم أخيراً إلى الوكيل الذي يقوم مقام الكاهن.

وهكذا فإن النظام الديني القبلي الذي يتمتع به الشامان بالشخصية الدينية الرئيسية، هذا النظام يختلف تماماً عن دين القبائل الكلتية القديمة الكهنوتية التي تتطلب اختصاصات طقوسية مدربة. وليس معنى هذا أن الدين

ذا الطقوس العالية يتطلب طبقة خاصة من الكهنة. فدين الهوبي Hopi -وهو الدين المعقد ذي الطقوس الرسمية العالية التكوين، هذا الدين يعمل على أيدي مجتمع منظم مع عدم وجود كهنة هوبيين. وأما الهندوسية ففيها عدة أنواع من الوظائف الدينية وكلها هامة بـالنسبة للحيـاة الدينيـة في الهند الهندوسية، وكل منها يظهر به نموذجاً مختلفاً لتنظيم خاص ويمثل البراهما وهو أحد الاختصاصيين الطقوسيين بالوراثة إحدى هذه النماذج.

ويتألف المجتمع الديني من كلا العلمانيين والمتدينين المختصين ولكن هؤلاء يؤلفون عادة مجتمعاً منظماً يهتم بالحياة الدينية. فالبوذية والجانية والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية (إلى حد ما) هي أنظمة تعتبر فيها الحياة الدينية الحقيقية من أهم حياة جماعة الرهبان. ويعتبر المجتمع المانشي أن المقدرة الشخصية والكفاءة في ممارسة الحياة الدينية هي الأصل. فهناك الرجل المتنور أو الكامل الذي امتنع عن الزواج وعن أكل اللحم وعن امتلاك الأملاك وجميع أنواع الحياة الدنيوية وبعدها هنالك المستمعون وهم الذين عليهم اتباع الوصايا العشر وفي مثل هذه الحالات يصبح التنظيم المكاني للمجتمـع الرهباني هو العنصر الحاسم في تأمين توسيع الدين جغرافياً.

الحكم الذاتي والحكم المشيخي:

تندرج بُنية الأنظمة الدينية ما بين الحكم الذاتي المحلي وبين الحكم المشيخي المركزي وهنالك مجالات للشد فيما بين هذين الوضعين وهو ظاهر في عدة أديان فالأديان ذات الحكم الذاتي المحلي ربما يروق لها إيجاد تنظيمات أمنية على الأقل في بعض وجوه الأعمال والوظائف. بينما نجد الأنظمة ذات التنظيمات المركزية تواجه تحديات أولئك الذين يطمحـون بالحصول على الحياة الدينية المستقلة. ويشجع التماس الثقافي بين مختلف الأنظمة كل من هاتين النزعتين مثلاً نجد اليهودية التقليدية تفتقر إلى تنظيم كنسي ولكنها الآن أصبحت تمتلك مؤسسات كنسية وخصوصاً في أمريكا

حيث يتوقع منها ذلك، وفي اليابان بدأت الطوائف غير المسيحية في إنشاء الكنائس بعد أن حصل التماس بينها وبين المسيحية بينما نجد بعض اليابانيين المسيحيين الذين تعرفوا على البنية التنظيمية الرخوة للأديان الشرقية التقليدية قد أسسوا حركة تعتمد على عدم وجود كنيسة وهذا مظهر من مظاهر المسيحية اليابانية.

ظهرت الماسونية بشكل لتحل محل المشيخة الدينية والطقوس في بعض المجتمعات البروتستانتية ويعتبرون أن نظام الماسونية هو نظام أخلاقي عالمي يتمم الأنظمة الكنسية وهو لا يقل عن هؤلاء في تأمين وجود الطقوس المعقدة ولكن الكنائس الكاثوليكية واللوثرية عارضت الماسونية وقاومتها ويميل مذهب المورمون لدمج المجتمع الديني الديمقراطي مع الماسونية.

إن الكنائس المنظمة تميل إلى إخماد حركات التظاهر والمباهاة في الممارسات الدينية وأما المجتمعات الدينية التي تود إحلال الحكم الذاتي في المسيحية الغربية فقد صادفت العقبات والمنازعات مع الكنيسة الرسمية وتميل الحركات المعاصرة الكاثوليكية والبروتستانتية في الغرب لخلق مجتمعات حية نشيطة أفضل من المجتمعات الموجودة، تتميز بوجود الفُرص لإقامة ممارسات جديدة أخرى تختلف عن الممارسات الشديدة القديمة. وهذه الحركات قلما تسير دون معارضة، ففي أمريكا أثار ذلك السلوك غير المتناسق مع الأصول الدينية النزاع والخلاف مع الكنيسة البروتستانتية والإنجيلية وهو ما يدعى Glossolalia (أو الألسنة المتكلمة). وإن انتشار حركة الألسنة المتكلمة هذه تشير إلى المستويات المختلفة للأنظمة المكانية الواقعة ضمن الأنظمة الدينية وإن القنوات التي تنتشر عليها هذه الأشكال الجديدة من الممارسات الدينية لا تتصل أبداً بشبكة الإدارة والمالية في الكنيسة الانجيلية.

وفي بعض الأنظمة الدينية هنالك شبكات دورية غير رسمية تتسم بكونها ربما كانت أهم إن لم تكن الميكانيكية الوحيدة للتكامل المكاني. وينطبق هذا على الهندوسية تقريباً التي تعتبر ذات خصائص استثنائية عندما تطالب

بالممارسات الدينية الشخصية والمعرفة مع ممارسة الطقوس الدينية واعتبارها أعلى وأرقى أشكال النشاط الديني، وهذه النشاطات لا تقابلها أية معارضة جديدة في الطقوس البراهمية وإن انحراف هذا الموقف تجاه الممارسات الدينية ما هو إلا أحد الظواهر المميزة للدين الهندوسي المعقد. ففي الولايات المتحدة حيث تتمتع الديانات المنظمة بالاحترام، ينظرون إلى الممارسات الدينية شذراً وارتياباً.

هنالك طريقة مفيدة لفرز الأنظمة ووضعها بين الأنظمة المستقلة ذاتياً وبين الأنظمة المشيخية المركزية وهي تعتمد على درجة الاكتفاء الذاتي الذي يتمتع به المجتمع محلياً. فالمسلمون واليهود لديهم اكتفاء طقوسي ذاتي ولكن استقلالهم الذاتي ليس كاملاً وذلك لأن هنالك بعض مظاهر الحياة الدينية مثل الثقافة الدينية أو تفسير الشريعة يجب أن يعهد به للاختصاصيين (الملا أو الرباني) الذي ربما أتى من خارج ذلك المجتمع ويبقى للمجتمع حرية الاختيار في الرفض أو القبول لتفاسير أولئك الاختصاصيين الذين لم ينخرطوا في المشيخة المنظمة.

وفي بعض الأنظمة البروتستانتية الثانوية تجتمع قضية الاكتفاء الذاتي مع الاستقلال المحلي والشؤون العقائدية مع وجود تنظيمات مالية ذات كفاءة تهدف إلى دعم النشاط الديني التبشيري أو إيصال الآداب الدينية إلى درجة الانتشار لدى الشعوب. وعندما يشترك الرجال العلمانيون وإدارة شؤون الكنيسة تصبح مثل هذه الفئات الدينية مثل الـ Baptists (المعمدانيين) والمستقلين (يدعون الآن كنيسة المسيح الموحدة) والكويكرز كلها ذات صفات دينية تعاونية يتمتع كل فرد من أفرادها بالاستقلال الذاتي في الشؤون الطقوسية والدينية.

الأنظمة الدينية المستقلة محلياً: هنالك مجتمعات مستقلة محلياً بين جميع أنواع الأديان ابتداء من الأنظمة العرقية إلى الأنظمة العالمية. فالأديان العرقية البسيطة مستقلة محلياً (باستثناءات قليلة) والشخصية الدينية السائدة

هي شخصية الشامان وهو أقدم شخصية دينية في العالم. وهو عبارة عن رجل أو امرأة وهو عضو في المجتمع القبلي وليس من الضروري أن يكون شامان بالوراثة. وهو يتمتع بالنفوذ في المجموعة. ولا نجد طبقة الكهنة في هذه المجتمعات. ففي طبقة الكلت البريطانيين يتدرب الكهنة غير الوراثيين في مراكز خاصة فنظام الدرويد كان عليه السفر من مكان إلى آخر.

وفي الأشكال البسيطة من الأديان الوطنية يمكن الاحتفاظ بالأنظمة المستقلة محلياً. ففي المدن اليونانية والمدن الرومانية الأولى تعتبر الأديان المدنية القديمة امتداد للطقوس العائلية وهي لا تتطلب وجود منشآت مشيخية كهنوتية. ولم تظهر طبقة الكهنة المختصة والمتدربة التي لا يهمها إلا أداء الوظائف الدينية، إلا بعد تقديم الأديان السرية الشرقية وقد ظلت هذه الطبقة الكهنوتية منفصلة عن مجتمعها.

والكهنوتية ذات الطبقات المنفصلة لا تحتاج للتنظيم بشكل مشيخات أرضية منظمة، ففي الأنظمة العرقية المعقدة القديمة كان من الممكن أن نجد أي دين للدولة أو للمدينة في مركز منفصل. أما الممارسات المدنية المتحضرة كالطقوس الامبراطورية في الصين كانت تخدم السكان في الولايات وفي الريف الذين كانوا يزيدون عليها بعض الطقوس المحلية الوطنية.

لقد وجدت المشيخات الأرضية ذات الاختصاصات الدينية في بعض الدول القديمة والامبراطوريات القديمة. فدين الانكا Inka القديم قد حصل على العناية والاحترام على يد منظمة تشبه الإدارة الدنيوية. أما بالنسبة للثقافة المايانية Mayan culture هنالك بعض الشواهد التي تشير إلى أنه كانت تعقد اجتماعات للكهنة المسؤولين عن التقاويم والتابعين لثقافات مختلفة بشكل دوري في المكان الرئيسي للديانة، ولكن بنية النظام الديني الخاصة لم تكن تشبه الأنظمة الاقتصادية المحلية أو البُنية الإدارية. والاستقلال الذاتي شائع في الأنظمة الدينية العرقية المركبة. وقبل ظهور الأديان العالمية كانت الكائنات الدينية تبدو أقل ديناميكية وأقل حركة من الكائنات الاقتصادية والسياسية.

ويسود الاستقلال الذاتي في الأديان العرقية المركبة أو العالمية إذا كانت المجتمعات الفردية ملتزمة ببرنامج معين قدمته إحدى السلطات بشكل كتابي أو شفوي.

وحتى المجتمعات الفردية لأي دين عرقي موزع تستطيع الاحتفاظ ببعض المؤسسات الدينية لمدة طويلة من الزمن وينطبق هذا على اليهودية وعلى مشيختها الكهنوتية. وقد أعد العهد القديم البرنامج العام المقدس والتعليقات الأدبية عليه. وعند اتباع هذا البرنامج أو حسب هذا البرنامج تستطيع مجموعة من عشرة من الرجال البالغين تأليف مجمع ديني كامل من اليهود وليس هنالك من حاجة للرباني Rabbi (وهو معلم الشريعة) ليقوم بأداء الطقوس. وعند أداء الطقوس فالأفراد الذين ينتمون لعائلة كهنوتية قديمة (كوهين) ليس لهم أي دور رئيسي وهذا بعكس ما هو عليه الحال بين البراهمة. وعدا عن ذلك فإن فكرة المشيخات غريبة تماماً عن اليهودية.

وفي مثل هذه الظروف نجد المؤسسات الدينية تتحمل أقل ما هنالك من تكاليف ويمكن اعتبار كل مجتمع يهودي مجتمعاً ذا اكتفاء ديني ذاتي. وهنالك الاتصالات المتبادلة اجتماعياً وثقافياً فيما بين المجتمعات اليهودية في مختلف الأقطار، فيهود اليمن يعتبرون حالة استثنائية لهذه القاعدة لأنهم قد مارسوا قروناً عديدة من العُزلة عن اليهود الآخرين. وأما في الأمكنة الأخرى من العالم فقد أدّت العُزلة هذه إلى امتصاص اليهود أو تحولهم الجذري. ومثل هذه المجتمعات الذاتية نسبياً هي مثل يهود كيفينغ الصينيين أو اليهود السود في كوشين Cochin في جنوب غرب الهند واليهود البيني Bene في بومباي والفلاشا في الحبشة والخزر في جبال القفقاس وهؤلاء أصبحوا منقرضين تقريباً.

ويسود الاستقلال المحلي الطقوسي في الديانة الهندوسية. فالدين يُبرز ويفسر المجتمع المنغلق ويتم إنجاز كثير من الطقوس الدينية في داخل الطبقة المنغلقة. وهنالك كثير من الطبقات المنغلقة المنحطة والطبقات المنغلقة التي

نشأت عن بعض الطوائف الدينية مثل طبقة اللنجايات Iyngayat في ميسور Mysorer تقدم وتؤمن وجود الاختصاصيين فيها. كما أن معظم الطبقات المنغلقة تحتاج للحصول على خدمات كهنة البراهما ويصعب معرفة هوية البراهمي وتمييزه. ككاهن إذ أن ذلك ربما أوقع الإنسان بالارتباك إذ ليس هنالك من أي تنظيم ديني يوحد البراهما القادمين من مجتمعات مختلفة بل المناطق المختلفة. ففي معظم المجتمعات الهندوسية هنالك رجال اختصاصيون طقوسيون يدعون البروروهيت Purohit يعرفهم السكان المحليون ويقومون بتلبية خدمات السكان في تلك المناطق. والبرنامج المقدس الذي يتبعه هؤلاء متوارث من الأب إلى الابن وهم لا يغيرون مكان إقامتهم عادة ولا طريقة خدماتهم.

وتؤدي قداسة المكان هنا وهناك وازدحام السكان أو نفوذ الرجال الأغنياء أو الحكام إلى نمو وزيادة أعداد المعابد وسدنتهم من رجال البراهما والطقوس المستخدمة هناك. وفي مثل تلك المعابد تتمم الصلوات الدينية التي يقوم بها الناس في أمكنة سكنهم أو في طبقاتهم المنغلقة. وهكذا فإن كل مجتمع هندوسي محلي يقوم بأداء الواجبات الدينية أو مجموعات من تلك الواجبات ويضيفون عليها بعض الممارسات الطقوسية التي ترافق دورات الحج.

ليس هذا النموذج المحلي من الاستقلال الذاتي في الممارسات الدينية هو كل ما في الأمر بالنسبة للديانة الهندوسية. إذ هنالك عدد من الحركات الفلسفية والدينية الواسعة الانتشار منها القديم ومنها الحديث ومعظمها تهدف إلى رفع شأن الطبقات. وتنتقل هذه الممارسات عن طريق الدوران والتداول بين الجمهور من المستمعين الذين يسافرون المسافات الطويلة لسماع أقوال بعض الأساتذة من العلماء الدينيين (وليس من الضروري أن يكون هذا العالم براهمياً) وتنتقل بواسطة التداول الواسع وانتقال النُساك والمتزهدين وغيرهم من الرجال الأبرار المقدسين الذين يعيشون على الصدقات ويتمتعون باحترام الناس وتقديرهم. وتُعتبر مجتمعات الحج مثل الحج إلى كومفاميلا

Kumphmela الذي يحدث كل ١٢ عاماً فرصة سانحة لتبادل الأفكار الدينية بين عدة فئات من الهندوس. ولقد تحركت هذه التداولات والأفكار بحرية عبر الحواجز والعوائق اللغوية. وربما كان سبب هذا الاستعداد الفطري للهندوس لتقبل الأفكار الدينية. ولغة المحادثات الدينية أصبحت اللغة التي توحد العالم الهندوسي. ولهذا فإن انسياب المذاهب ذات الاستقلال الذاتي الممتزجة بأنواع من التداولات الدينية المختلفة تعتبر البُنية المكانية لذلك النظام المختلف النزعات والديناميكي داخلياً، ومع ذلك فهو نظام غير منتظم وهو ما يدعى بالهندوسية.

ويعتبر الإسلام وبعض أشكال البروتستانتية من الأديان العالمية وهو يتميز بوجود مجتمعات محلية مستقلة فيه. فالإسلام يصر على اشتراك كل فرد من الأفراد في المجتمع بشكل إجباري في جميع المظاهر والممارسات الدينية المختلفة ومع أن المسجد هو مكان العبادة بصورة عامة، إلا أن الصلاة نفسها غالباً ما تتميز بصفة خاصة استقلالية.

وتعاليم الإسلام بسيطة وواضحة في عدة نواحٍ ولكن تعليقاته وتفسيراته للحياة الاجتماعية والاقتصادية قد أنتج عدة مدارس فقهية تشريعية يعتبر رجالها أعظم الرجال الاختصاصيين في الإسلام. ويشترط البرنامج التقليدي الديني في الإسلام مراعاة هذه التشريعات خصوصاً وأن الدولة الإسلامية ومعها آلياتها البيروقراطية قد قامت بتنظيم هذه التشريعات دون الحاجة إلى وجود ما يقابل الكنيسة (في الديانة المسيحية) فالإسلام لا يشدد على الأفراد مراعاة المؤسسات الدينية والعمل على إراحة المُتعبين والبؤساء ولكنه يوجب إسهام الفرد بالأعمال والممارسات الخيرية وخصوصاً أولئك الذين يستطيعون ذلك. وهذا ما يدعى الزكاة وهو دفع ٢ ٪ سنوياً من مدخول الفرد للفقراء.

وبذلك فالمؤسسات الخيرية التي نمت على يد الزكاة وخصوصاً بما يختص بمساعدة المسافرين المنقطعين جعل السفر والدوران سهلاً في العالم الإسلامي. فالرجل المسلم يشعر بالارتياح في أي مكان يذهب إليه في العالم

الإسلامي المحيط به. ورغم عدم وجود المشيخات الدينية والمنظمات الرسمية الدينية المختصة بالأرض (كما هو الحال في الأديرة المسيحية) إلا أن هنالك فئات مسلمة منفصلة ولكنها تتصل بروابط قوية لا انفصام لها وهذه الفئات قد أنشأت مؤسسات عامة وتداولات مختلفة وتصون الفئات المختلفة أنفسها بإنشاء تدريبات عامة لأعضائها على المتطلبات الأساسية للإسلام وكذلك المتطلبات الأخلاقية. وبينما شاعت الاختلافات الثقافية والسياسية بين الشعوب الإسلامية إلا أن الإسلام لم يتأثر بوجود انشقاقات ونشوء أنظمة ثانوية فيه كما حصل في الديانة البوذية والديانة المسيحية وهكذا فقد أظهر العالم الإسلامي درجة ممتازة من التناسق والتماسك والالتحام.

ولقد ظهرت في الإسلام فئات منظمة بشكل خاص تحت ظروف معينة. ولقد أوجبت الحروب المتبادلة مع الصليبيين في حوض البحر الأبيض المتوسط نمو نظائر للأنظمة العسكرية الدينية المسيحية. وفي الوقت الحاضر هنالك بعض الأنظمة البورجوازية المتقشفة والزهدية مثل نظام السنوسيين (نظام الرباط) وهو نظام مشيخي أسهم في بعض النشاطات الإسلامية في شمال إفريقيا وهم يشددون بوجوب انصياع المسلمين من سكان المدن للأيديولوجية الإسلامية وإمداد النشاطات التبشيرية للإسلام بالعون الكافي.

الطائفة البروتستانتية المستقلة والمشيخية:

إن الطوائف البروتستانتية الأمريكية المؤلفة من مجتمعات مستقلة محلياً تمتلك شكلاً من أشكال التنظيم يدعى الابريشانية وهو تنظيم أبرشي ديني مستقل. والطوائف الرئيسية من هذا النوع هي المعمدانيون Paptists وتلاميذ المسيح والكنيسة الابريشانية المذكورة آنفاً، وهنالك أشكال متطرفة من الابريشانية توجد بين مجموعات صغيرة مثل الكويكرز Quaker واليناريننز Unitarians والأميش Amish. وتختلف هذه الطوائف المحلية عن الإسلام واليهودية وذلك لكونها لا تتقيّد تقييداً ببرنامج طقوسي عام. بل على العكس

فإن أشكال ممارسة العبادة عند المعمدانيين Baptists مثلاً ما هو إلا قضية اختيار واصطفاء لجماعة المصلين.

وحتى في تنظيمات الطوائف الابريشانية يعتبر الكهنة اختصاصيون عليهم القيام بالطقوس الرئيسية وممارسة السلطة الروحية كرعاة للأبرشية وظيفتهم حماية أرواح رعاياهم. وطبقاً لهذا الدور فهم يتابعون عمل المؤسسة المسيحية المميزة. وتمتلك الطوائف الابريشانية متطلبات مختلفة لتدريب الكهنة الأمر الذي ينتج عنه نتائج تستحق النظر. وفي أثناء القرن الماضي زادت الكنائس المعمدانية أكثر من زيادة الكنائس الابريشانية وذلك لأن رجالها الذين يطمحون في الحصول على منصب الكاهن كانوا يتلقون تدريبات قصيرة الأمد ومختصرة.

وإن البُنية المكانية للطوائف الابريشانية تتطور تطوراً ضعيفاً. فهنالك مؤتمرات للممثلين للطائفة في الاقليم وفي الدولة على صعيد قومي ولكن القرارات التي تتخذها تلك المؤتمرات لا ترتبط بها الكنائس الأعضاء. ويهتم الكويكرز Quakcr (الأصدقاء) Friend بالحصول على الإجماع بشكل ديموقراطي من خلال اجتماعات منتظمة مع الفئات الأخرى في نفس الإقليم أو المنطقة.

وهنالك الطوائف البريسبتيرية والأسقفية البروتستانتية وهذه تمتاز بكونها أكثر مشيخية وأكثر تشدداً في التنظيم المكاني. وتمتلك الطائفة البريسبتيرية وكنائسها شكلاً من أشكال حكومة المجالس وهذه تحتوي على قسيس وأعضاء علمانيين منتخبين ويخدمون في المجالس الحاكمة. وهنالك مشيخة أرضية تمتد ابتداء من الوحدات المحلية ثم إلى المشيخات ثم إلى مجالس السنودوس التي تحكم مناطق واسعة ثم إلى الجمعية العمومية ويُسام الكهنة على يد المشيخات وتؤثر البيئة والمحيط في أمريكا بالنسبة للمؤسسات السياسية على التنظيم لدى الطوائف وهذا يؤدي بالتالي إلى تبني المظاهر المشيخية على يد عدد من الطوائف الأمريكية الأخرى.

إن النظام الأسقفي الذي تستعمله الكنيسة الأسقفية وكذلك الكنائس اللوثرية وكذلك القسم الرئيسي من الميثودست Methodist، هذا النظام يمثل تعديلاً للشكل المشيخي للكنيسة الرومانية الكاثوليكية. أما في الولايات المتحدة، فتسمح هذه الكنائس للمشيخات المحلية بالسيطرة والانتخاب أكثر مما تفعل الأنظمة المشابهة في أوروبا. والتنظيم المكاني لهذه الكنائس أقل تزمتاً مما هو عليه في الأراضي المسيحية القديمة في أوروبا فالأراضي التابعة للأبرشيات وما شابهها لا تنظم اختيار الفرد للكنيسة التي يريدها فتصبح الكنائس حرة في تطوير مناطق الخدمات في حدود فضفاضة أشبه بمخازن البيع بالمفرق ومراكز الأسواق. وقد خلقت بعض الطوائف وأوجدت فئات للتخطيط لإعطاء الرأي والنصيحة حول أفضل موقع لبناء الكنائس الجديدة وطرق زيادة حجم خدماتها إلى الحد الأعلى في المجتمعات العالية الفاعلية والحركة، ويُعزى نجاح كنائس المثودست Methodist في القرن الماضي إلى التنظيمات المرنة للأراضي المجاورة على الحدود حيث يمكن خدمة المجتمعات المحلية على يد مُبشِّر علماني. وفي هذه الأيام نجد الميثوديست وبعض الطوائف البروتستانتية الأخرى تحاول تطوير نماذج من التنظيمات المطبقة في الأشكال المعاصرة للحياة المدنية. وتمثل الكنيسة ذات الخدمات الإضافية هذه النزعة. وهي تعمل في مناطق غير سكنية وتديرها طوائف مركزية وتمثل تجربة فريدة من التنظيمات المكانية للأنظمة الدينية.

ولقد أظهرت معظم الطوائف البروتستانتية الرئيسية المقدرة التنظيمية لعدة أصناف ذات علاقة وثيقة بالأغراض الكنسية وأما بالنسبة للنشاطات التبشيرية فقد كانت حتى الطوائف المشيخية تؤثر في التناسق المركزي للبعض مع البعض الآخر. وكانت إسهامات الأعضاء المالية تنحصر في أداء حصة العُشر أي أداء عُشر مدخول الشخص للكنيسة. وكانت هذه إحدى العادات اليهودية البائدة التي تسربت إلى المسيحية في أوائل عهدها وبعد ذلك تبنتها الكنيسة ونفذتها. وكانت المبالغ المتحصلة من جباية هذا العُشر تصرف في

الإنشاءات والبناء وفي أغراض التعليم والبرنامج الاجتماعي بالإضافة إلى الشؤون التبشيرية ومصاريفها مع بقاء كثير من الأموال التي استخدمت في استثمارات العمل. وتبلغ التبرعات السنوية التي تصل إلى الطوائف البروتستانتية في الولايات المتحدة حوالي ثلاثة آلاف مليون دولار. وإن هذه النشاطات المالية التي تربط كثيراً من المجتمعات المحلية ما هي إلا مظهر حيوي من المظاهر السلمية للكنيسة البروتستانتية.

الأنظمة الدينية المشيخية:

هنالك بعض الأديان الشرقية تمتلك مؤسسات تشبه الكنيسة دون حاجة إلى وضع شروط العضوية الذي تفرضه معظم الأنظمة المسيحية وتوجد مثل هذه المؤسسات الطقوسية في الديانة الرسمية للصين الامبراطورية (سابقاً) والطاوية والشنتو ومعظم أشكال البوذية. وتختلف هذه عن الطقوس البراهمية في كونها تمتلك بعض المؤسسات الرسمية الخاصة وهي ليست وراثية ما عدا بعض المناصب الكهنوتية العالية في الديانة الطاوية.

وتختلف هذه الأنظمة الشرقية في تطوير المشيخات الأرضية. فالدين الصيني القديم كان وراثياً وكان الموظف الحكومي القائم بالأعمال يقوم بتنفيذ الطقوس في المدينة وكانت تلك الطقوس موزعة طبقاً للمرتبة الإدارية لتلك المدينة. ولكن التنظيمات المكانية للبوذية الثيرافادية تتألف من مجموعة من الأديرة الاقليمية وكل مركز من مراكز الرهبانية في تلك الأديرة يقدم قطعة من الأرض حيث يعمل فيها الرهبان المقيمين في الدير ويشتركون في إنجاز الطقوس المعتادة، ولهذا تعتبر المنطقة من هذا النوع مشيخة محلية مستقلة. لكن هذه المشيخات ضعيفة ما دامت المراتب العليا لا تحتاج ولا تتطلب وجود قوة تنظيمية كبيرة.

إن شبكات الأديرة المذكورة يمكنها التدخل في الحياة السياسية في المجتمع القروي كما حدث في سيلان والفيتنام عندما كون الرهبان البوذيون

قوة سياسية. ولكن حدث في سيلان أن تأثرت حركات الكهنة البوذيين على يد النظام السينهالي المنغلق مما جعل عدة أنظمة منغلقة أخرى تنال الصدارة والهيمنة في عدد من الأديرة هنالك وذلك ضد رغبات ونوايا البوذيين القدماء.

وتحدث بعض الحركات المشيخية العامودية والأرضية في بعض الأديان العرقية الهامشية وتكون هذه الحركات مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس ضد التغيير أو المنافسة التي تبديها بعض الأديان الأكثر نفوذاً وقوة. ولكن مثل هذه المنشآت تصبح عرضة للتحجر والانغلاق فهنالك مذهب اللامات وهو نسخة عن البوذية الذي كان يسود في التبت ومنغوليا وهذا المذهب يختلف عن النماذج الشرقية ذات الأنظمة الضعيفة التنظيم، فهو يمتلك مشيخات متطورة قوية. ففي الأزمنة الحديثة انحرف أحد الأديان الشرقية الجديدة وهو نظام الكاوداي Cao Dai في جنوب فيتنام باتباعه بعض مظاهر المشيخات الرومانية الكاثوليكية.

وإن ظاهرة ديانة المورمون في أمريكا تقدم لنا فروقاً مشابهة بين الأشكال الديمقراطية للمشيخات الأمريكية التي خرجت منها المورمونية وبين الابريشانية الدينية الأخرى أي كنيسة القديسين المتأخرين. ونلاحظ أن المشيخات قد أذعنت ونزلت عند إرادة التقاليد الابريشانية رغم كون تلك المشيخات تمتلك السلطة والنفوذ. وتعتبر المارمونية مجتمعاً دينياً مؤسساً على الدرجات المتتالية والمراتب طبقاً لكفاءة ومقدرة العضو التنظيمية فهي تشبه كلا الماسونية والأديان السرية القديمة كالمترادستية. وتتوج الأنظمة المشيخية المورمونية بوجود مجلس إدارة ورئيس وهذا المجلس والرئيس لهما السلطة المطلقة على الكنيسة المورمونية بأجمعها.

ظهرت مؤخراً كنيسة جديدة في أمريكا تدعى كنيسة القديسين المتأخرين. وقد وضعت هذه الكنيسة أسس نظام جديد. وتقسم الأملاك المورمونية إلى أحياء أو دوائر في المدينة، ويعتبر الحي أو الدائرة مشابهاً للأبرشية ويبلغ مجموع السكان فيها حوالي ١٧٦٠ نسمة وتتجمع هذه الأحياء

المحاطة بالأوتاد ويشرف على إدارتها موظفون ذوي مراتب عالية ولكنها أصغر من الأبرشيات والأسقفيات الكاثوليكية والبروتستانتية التي يبلغ عدد سكان الواحدة منها حوالي (٥٠٠٠) نسمة. وتحدد هذه الأحياء بخطوط حمراء حتى يسهل معرفة الحصة النسبية للسكان في كل وحدة.

وإذا حدث أن اشترك العلمانيون في إدارة شؤون الكنيسة مع الإشراف التام للكنيسة فإن ذلك يُنتج مجتمعاً دينياً نشطاً. فنجد نشاط الكنيسة المورمونية ليس له مثيل في جميع الأنظمة الدينية الأخرى. فعدا عن الزيارات التفتيشية التي تأتي من المركز يُطلب من ممثلي كل المجتمعات المورمونية حضور مؤتمرات تعقد في مدينة (سولت ليك) Solt leke مرتين في كل سنة. وتجبى ضريبة العشر كاملة لصيانة الكنيسة بينما يطلب من الأعضاء الشباب الذكور حضور دورات تدريبية لمدة سنتين للتدريب على الأعمال التبشيرية خارج المجتمع المورموني وإن نشاطات هذه الفاعليات المورمونية التي تمتد إلى الخارج تجعل الكنيسة الجديدة المسماة كنيسة القديسين المتأخرين؛ نظاماً دينياً أمريكياً فريداً. فهي الكنيسة الوحيدة التي نظمت الأحوال الدينية الصحيحة في الولايات المتحدة الأمريكية.

والحقيقة أننا نجد في الكنائس المسيحية المشيخية القديمة ظاهرة ملاحظة في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. فهذه الكنيسة لا تفصل بين الأكليروس والعلمانيين كما هو الحال في الكنيسة الأرثوذكسية. فالمجتمعات المحلية لها الحق في انتخاب المطارنة وفي الشؤون المذهبية. وتختلف المشيخات الشرقية عن الكاثوليكية بكونها لا تمتلك سلطة عليا كالسلطة التي يتمتع بها البابا في الكنيسة الكاثوليكية. وقد تبعت الكنيسة الأورثوذكسية خطوات الكنيسة النسطورية قبلها وخطوات الكنائس التوحيدية القديمة، وقد تحولت هذه الكنيسة إلى كنيسة عرقية وذلك لأنها تسمح بدرجة من الاستقلالية المحلية. وإن هذا الميل لتشكيل فئات إقليمية متميزة ربما جعل المسيحية عرضة للامتصاص والابتلاع في الأماكن التي تسيطر عليها الكنائس الشرقية.

التركيب المكاني للكنيسة الرومانية الكاثوليكية:

توصف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بأنها أقوى مؤسسة دينية وجدت في تاريخ العالم. وهذه الكنيسة مسؤولة عن تنظيم أحوال الكاثوليك في العالم من تعليم الديانة، وتأمين الخدمات الطقوسية الدينية وتنظيم أخلاقيات المؤمنين. وإن تركيب هذه الكنيسة الإداري مشيخي في طبيعته وقد نظمت جميع الأصقاع الأرضية التي يمتد إليها نفوذ تلك الكنيسة بشكل وحدات إدارية كنسية وتعتبر الكنيسة الكاثوليكية أوسع كنيسة وأقدم كنيسة منظمة في العالم هذه الأيام.

ولقد امتدت فروع وشبكات الكنيسة الكاثوليكية الإدارية على مختلف المستويات فوق جميع الأراضي المسكونة على هذه الكرة الأرضية، خصوصاً في المناطق حيث المواصلات غاية في الصعوبة. وهنالك مجتمعات كاثوليكية مستقلة تدعم أنفسها تدعى المشيخات العادية وهذه تقسم عادة إلى أبرشيات.

ولقد أصبح من الواجب وجود مركز للإشراف على الأبرشية خصوصاً على شؤونها الإدارية وهكذا انشأت وظيفة الأسقف (المطران). هذا وقد اقتبست الكنيسة المسيحية الكاثوليكية جميع التنظيمات الإدارية من الامبراطورية الرومانية وتبنتها في جميع تنظيماتها الإدارية الخاصة. وهذا يدل على أهمية تلك الخلايا للمسيحية في أوائل عهدها ونحن نستطيع تقصي الفروق بين المدن التي تحولت إلى المسيحية وبين الريف الذي ظل على حاله ولم يتحول عند ملاحظة بعض الكلمات مثل الكلمة التي تعني (وثني) فهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية Pagus ومعناها الإقليم الريفي.

وتمتاز الكاثوليكية كالإسلام بالاهتمام بالحياة المدنية وتبني تلك الحياة. ولقد أصبحت التكتلات في المستوطنات جزءاً من برنامج مخطط للمسيحية كما هو الحال في برنامج البعثة التبشيرية الأغسطينية والجوزويتية في أمريكا الأسبانية التي خلقت عدة نوى شبيهة بالنوى المدنية. وتدعى Reducciones أو المستوطنات. ولقد ظهرت أشكال أخرى تنظيمية أكثر فاعلية. فالكنائس

الكلتية المسيحية في إيرلندة كانت أكثر نفوذاً وانتشاراً ومساعدة للمسيحية من المشيخات القديمة المتهاوية وسبب ذلك أن الايـرلنديين كـانوا مـوزعين ومنظمين قبليّاً بعكس سكان الولايات السابقة في الأمبراطورية الرومانية، ولكن عندما كانت المشيخات المؤسسة في المدن تتطور بنجاح، نجدها قد قدمت إمدادات من المتطوعين من الداخل وعديداً من الحوافز الثقافية من الوسط الذي أصبح يؤلف النظام الدوراني في الحضارة.

تعتبر الأسقفية الوحدة الرئيسية للمشيخة الأرضية ولكنها ليست أصغر وحدة وتقسم الأسقفية إلى عدة أبرشيات وأصل المعنى باليونانية: الجوار وكل أبرشية تكون في عهدة وعناية موظف من الكنيسة ويدعى الكاهن وهو مسؤول أمام الأسقف. وفي البلدان ذات الغالبية الكاثوليكية من السكان في أوروبا حيث البُنية الكنسية قديمة ومعقدة، يمكن أن تحتوي الأسقفية على عدة مئات من الأبرشيات ولكن في خارج أوروبا يبلغ معدل الكثافة الأبرشية حوالي ١٠٠ لكل أسقفية في أمريكا الشمالية و ٤٠ في أمريكا اللاتينية.

وتؤلف مجموعة الأسقفيات/ وعناصر كل عشر أسقفيات/ إقليماً كنسياً ويكون الإقليم تحت إشراف رئيس الأساقفة الذي يمتلك أيضاً مسؤوليـة الأسقف في إحدى الأسقفيات في إقليمه وتدعى الأسقفية الكبرى. وإن سلطة رؤساء الأساقفة على الأساقفة هي سلطة إدارية بينما نجد أن الأسقف يمارس سلطة إدارية وروحية فوق كاهن الأبرشية وهنالك بعض الأسقفيات وخصوصاً في إيطاليا المعفاة من إشراف رئيس الأساقفة ويعتبر المديرون الإقليميون والاختصاصيون الطقوسيون وهم الأساقفة بعد منزلة البابا مباشرة الذي يعتبر أسقف روما التي تعتبر مركز الرسل أو المركز المقدس.

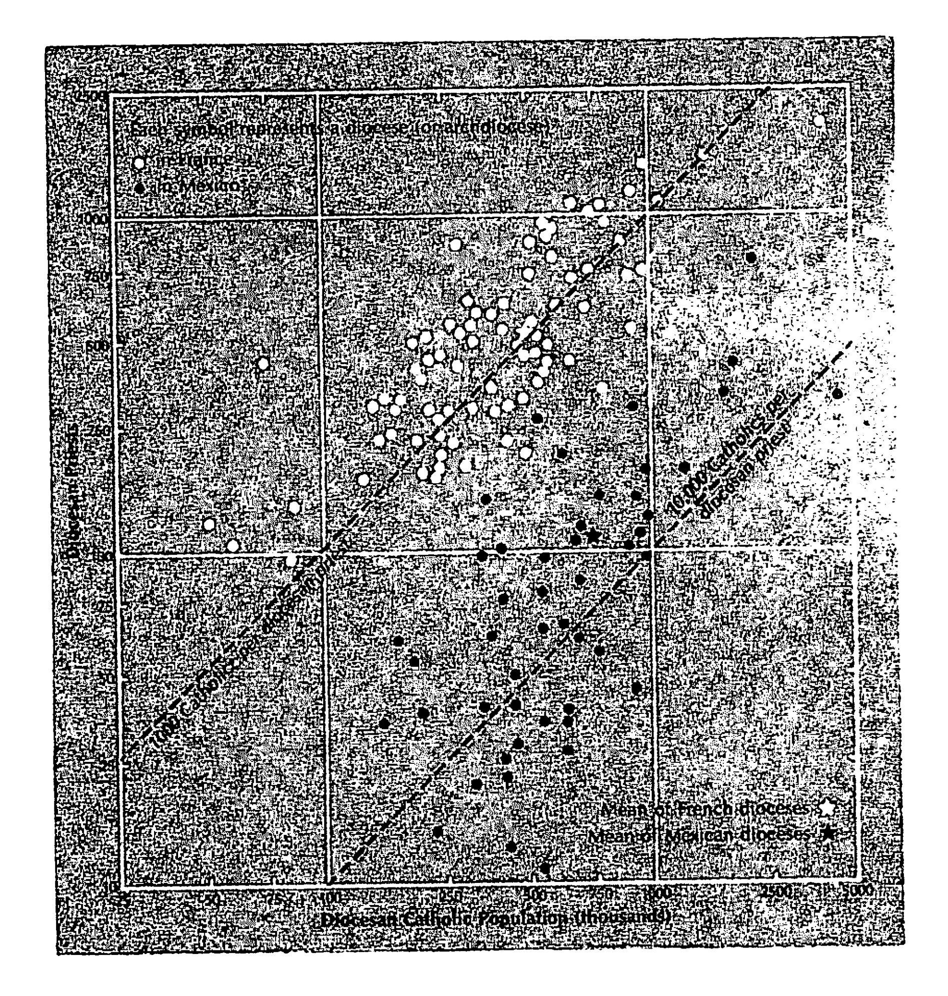
إن التنظيمات الأرضية الكاثوليكية مؤسسة على مبادىء جغرافية معيّنة ولكن التغيرات التاريخية والظروف الخاصة في بعض المناطق قد عدَّلت هذه التنظيمات. فالمبدأ المكاني الذي تأسست عليه وحدة الأبرشية هو أن سكان الأبرشية يجب أن يكونوا قادرين على إنجاز التزاماتها وذلك بحضور القداس

في يوم الأحد في كنيسة الأبرشية. وكانت مساحة الأبرشية بشكل تقليدي عبارة عن بضعة أميال مربعة وقد روعي هذا النموذج في جميع الأراضي الكاثوليكية وكان عدد الكاثوليك التابعين لكاهن الأبرشية لا يزيد عن ألف نسمة.

ولكن هذه المقاييس قد عُدلت في أراضي العالم الجديد، الذي كان مؤلفاً من سكان قلائل من القرويين الموزعين في مختلف المناطق. وقد أدى هذا إلى ابتكار وسائل وذرائع تشبه إيجاد الدسكرة الكنسية في البرازيل التي كانت تشغلها السكان في المزارع المجاورة في عطلة الأسبوع فقط أو من مناطق زراعة القهوة. وهكذا فقد ازدادت مساحة الأبرشية في الأراضي غير الأوروبية.

هنالك منطقة واسعة يظهر فيها بشكل واضح العدول عن التنظيمات الأرضية للكنيسة الكاثوليكية كما هي في أوروبا وغيرها من الأقطار الأوروبية كالولايات المتحدة والهند. وتتألف هذه المنطقة من الأمبراطوريات السابقة لأسبانيا والبرتغال. إذ نجد هنا أن عدد الكاثوليك الذين ينبغي على كل عضو من أعضاء الايكلروس رعايتهم وخدمتهم يزيد من خمسة إلى عشرة أضعاف العدد في اسبانيا والبرتغال أو معظم البلدان الكاثوليكية والنسب للسكان الكاثوليك الذين هم تحت رعاية أحد الكهنة هي ٩١٥ في أوروبا غير الشيوعية و ٧٣٠ في أمريكا الإنكليزية و ٤٩٥٠ في أمريكا اللاتينية انظر الشكل (٤).

وإن الانحراف الاقليمي هذا لا يمكن أن نعزوه لقلة عدد السكان. ويظهر أن السبب هو أن الاقليم كان فقيراً جداً ولم يستطع القيام بالخدمات الواسعة أو أن الكنيسة كانت تُظهر افتقاراً للمبادرة ورثته من الفترة عندما كانت تديرها: مؤسسة «الحماية الملكية للهنود الحمر» وهذا التصرف الخاص جعل معظم الإدارة الكنسية تحت إشراف ملوك شبه جزيرة ايبريا (أي الأسبان والبرتغاليين) الذين كانوا عادة من الأشخاص الكرماء ومحبي الأعمال الخيرية. ولكن ظل الحال على هذا المنوال مدة ثلاثة قرون تقريباً. ولا يزال الأكليروس



الشكل (٤) نسبة عدد الكهنة للسكان الكاثوليك في فرنسا والمكسيك عام ١٩٦٠ (مقياس الرسم لوغورتيماتي) المعلومات الواردة مأخوذة من Annuaria Pohtificio.

الأوربيون منذ تلك العهود يُهيمنون على الكنائس في عدة أجزاء من أمريكا اللاتينية وحتى في هذا القرن نجد كثيراً من الكهنة الأوروبيين.

وأخيراً نجد أن معظم الحكومات الأمريكية اللاتينية تعارض وتقاوم الكنيسة من زمن لآخر في فترة ما بعد الاستقلال ومع ذلك فإن تأخُّر المؤسسات الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية وخصوصاً في المناطق الريفية،

يعود إلى فترة الاستعمار. ففي عام ١٦٥٠ عبر أحد الجوزوتيين البرتغاليين عن شدة خوفه ورعبه من حالة الكنائس في البرازيل فقد كانت الكنائس والكهنة غاية في القلة والإشراف الأسقفي معدوماً. فهنالك عدد كبير من البرتغاليين الذين لم يذهبوا إلى القداس طيلة أيام السنة ولم يراع حرمة الأيام المقدسة إلا القليل.

وتحدث التجاوزات والخرق بالنسبة للتقاليد المتوارثة في الأبرشيات، عادة في المناطق الصناعية الكبيرة. وقد كان نمو تلك المدن الصناعية مؤشراً بعجز الأبرشيات عن القيام بعملها وخدماتها للسكان الكاثوليك خصوصاً في الضواحي الجديدة. ففي المدن الفرنسية مثل باريس ومارسيليا هنالك حوالي ألفي شخص كاثوليكي لكل كاهن في الأسقفية أما في مرسيليا فترتفع النسبة إلى ٣٦٠٠ نسمة لكل كاهن، ومن جهة أخرى فإن كل أسقفية تحتوي على ٥٠٠ كاثوليكي لكل كاهن موجودة في مناطق محافظة وراكدة ديموغرافياً مثل بريتاني في الشمال (والسفينيس) في جنوبي سلسلة الجبال الوسطى (الشكل رقم ٤).

وإن المجتمعات المدنية في هذه الأيام تقدم للكنيسة بعض المشاكل التنظيمية لم تكن في الحسبان بالنسبة لتلك البنى التقليدية. فالأبرشية ذات الممارسات القديمة أصبحت لاغية ومن الطراز القديم خصوصاً في المدن الأمريكية وفوق ذلك فهنالك طلبات متزايدة لتنويع الخدمات الدينية. وقد أصبحت الموارد الحالية الكنسية محدودة وضيقة خصوصاً في بعض النواحي كالتعلم الديني وهكذا فإن مؤسسة محدودة الموارد لا تستطيع إتمام واجباتها بشكل مُرْضٍ وقد أصبحت الطوائف البروتستانتية في تلك البلاد قليلة الارتباط بأي تنظيم تقليدي حازم فانتهزت تلك الطوائف الفرصة المناسبة بسبب مرونة الأنظمة لتمارس طرقاً أخرى لحل مشاكل مشابهة.

وتبقى الاختلافات الاقليمية ضمن بُنية الكنيسة الكاثوليكية كامنة ضمن حدود. فلقد تطورت بعض المبادىء خلال القرون وخصوصاً في الأماكن ذات

العدد الكبير المتزايد من السكان الكاثوليك. وقد نشأت أسقفيات جديدة وتعتبر السلطات البابوية هذه العوامل الجغرافية وتعترف بوجودها. وهذه العوامل تشمل حجم وتوزيع السكان الكاثوليك في الأسقفية المقترحة ثم التسهيلات الدينية الموجودة. مثلاً عدد الكهنة والكنائس والمدارس، ثم الموارد المالية التي كانت تتألف سابقاً من الواردات المتحصلة من الهبات ثم وجود مركز مدني ثم سهولة المواصلات ضمن المناطق. وفي القرنين الماضيين أخذت الدولة بعين الاعتبار الحدود السياسية والثقافية التي تختص باللغة مثلاً عند رسم الحدود السياسية للولايات. إذ أن معظم حدود الولايات هناك ما هي إلا حدود للأسقفيات أيضاً وهنالك بعض الأسقفيات الكاثوليكية التي تؤلف ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية.

يبلغ عدد الأسقفيات الكاثوليكية الموجودة حوالي (٢٠٠٠) فالأسقفيات غير الأوروبية أكبر حجماً من مثيلاتها الأوروبيات ولكن عدد سكانها أقل. ففي أوروبا تمتلك إيطاليا وذلك لأسباب تاريخية عدداً كبيراً من الأسقفيات. وتبلغ مساحة الأسقفية الايطالية حوالي (٤٠٠) ميل مربع بينما تبلغ مساحتها (٣٠٠٠) ميل مربع في أسبانيا.

وإن إعادة ترميم وتنظيم الأسقفيات يتطلب وقتاً طويلاً. وإن مزج الأسقفيات الموجودة من الصعوبة بمكان إذ أن ذلك أصعب من خلق أسقفيات جديدة وفي المناطق التي يزداد عدد السكان الكاثوليك فيها بسرعة يحدث تعديل للنماذج المكانية للمشيخيات وذلك لتأمين خدمات روحية ذات تأثير مباشر كما يظهر من الزيادة المعاصرة في عدد الأسقفيات في بعض البلدان كالولايات المتخدة مثلاً حيث زادت أعداد وحدات الأسقفيات من ٩٠ إلى ١٣٩ خلال الأعوام ١٩٠٠ ـ ١٩٦٥ وفي شبه جزيرة الهند هنالك الآن حوالي ٧٩ وحدة أسقفية بدلاً من ٣٠ وحدة كانت موجودة في عام ١٩٠٠.

وضمن الأسقفيات والأقاليم الكنسية تظهر المراكز الرئيسية في مواقعها داخل مجال الخدمات المحتملة في تلك الأراضي. ففي الولايات المتحدة

يقع المركز الكنسي عادة قرب حدود الأسقفية وحتى الجيران الوثيقي الصلة يمدون مراكز الأسقفيات المختلفة كما هي الحال في ولايات مختلفة وهذا يعكس النمو الأرضي للكنيسة الكاثوليكية التي تشكل كائناً مركزياً يقوم بعدة واجبات متتالية يقع وراءها ما يصبح بالتالي خدمات في المناطق النائية.

إن منظمات كهذه تحتاج شبكة من المواصلات والنقل الداخلي وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية دوماً تتصارع مع مشاكل المـواصلات وتحـاول السيطرة على تلك المشاكل الأمر الذي لا يسمح بتطور الكنائس العرقية أو الكنائس الاقليمية. وقد أدى هذا أحياناً إلى انقسامات إقليمية كما كان الحال عند الانقسام النهائي بين الكنائس الشرقية والكنـائس الغربيـة في القرن السادس عشر الميلادي وانفصال معظم أوروبا الشمالية عن روما في القرن السادس عشر الميلادي وكانت الأحوال والظروف التي تطورت ضمنها حركة الإصلاح الديني وانتشرت تشمل عوامل جغرافية كبُعد المسافة بين تلك المناطق وروما والاختلافات الاقليمية في القوة التنظيمية للكنيسة الكاثوليكية. وإن الجغرافية الكنسية لأوروبا في العصور الوسطى كانت تظهر مثل هذه التشوشات في التنظيم مثلاً قسمة سردينيا إلى ١٨ أسقفية وإيرلنده إلى ٣١ أسقفية. وفي الفترة التي سبقت حركة الإصلاح ظهرت نقاط الضعف في المواصلات الكنسية والتنظيمات الأرضية في أوروبا الشمالية إذ أن تطور تلك البلاد لم يستطع مجاراة نمو وتزايد السكان خلال العصور الوسطى.

إن ضعف وضيق أفق التنظيمات في أمريكا اللاتينية نتج عنه إضعاف التيارات الايديولوجية والاجتماعية التي كانت الكنيسة تحاول توليدها ويعتبر الناطقون بلسان الكاثوليكية والبروتستانتية هذا النقص في المواصلات سبباً رئيسياً لنجاح البعثات التبشيرية البروتستانتية في أمريكا اللاتينية منذ الحرب العالمية الأولى، ففي مدة ثلاثين عاماً نما عدد السكان البروتستانت في أمريكا اللاتينية من أقل من نصف مليون إلى تسع ملايين إنسان. وقد ازداد نشاط الحركات التنبؤية في حدود البرازيل وذلك بسبب قلة عدد الكهنة المسيحيين هناك.

وبعد تحسن طرق المواصلات استطاعت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية استعادة السياسة لأول مرة على بعض كنائسها الشرقية. وقد استطاع النظام الكاثوليكي امتصاص ما يدعى بالكنائس الموحدة في سوريا ولبنان وكنائس الكارالا Karala في جنوب غرب الهند وذلك بعد الاتصال المكثف بين تلك الكنائس وروما في زمن التوسع الأوروبي فيما وراء البحار.

وهنالك طريقتان لاستكمال الأسقفيات الكاثوليكية العادية: الأولى إعطاء البعثات التبشيرية شكلاً يزيد في أهمية الكنيسة، ثانياً تشجيع الأنظمة الدينية والفرق المستقلة التي تنجز أعمالاً دينية متخصصة كالتعلم وقد قامت هذه الأنظمة بإنجاز أعمال الايكلروس وقامت أيضاً بأعمال عسكرية ودينية مما أنعش المسيحية الكاثوليكية في أوروبا. وتنحصر هذه الفرق بالفرقة الأوغسطينية والدومينكان والفرنسيسكان التي انضم إليها الجزويت أخيراً وهم الذين ساهموا في أعمال تحويل وتثقيف السكان الوطنيين في الدين الجديد.

جغرافية العمليات التبشيرية:

يحتاج المؤرخ إلى جغرافية العمليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية وذلك للحصول على تقييم مناسب لدور المسيحية كعامل من عوامل الثقافة الغربية في العالم غير الغربي وخصوصاً منذ عام ١٨٠٠ م. ولسوء الحظ لا يجد الباحث خرائط وتفاصيل مسهبة حول مدى وشدة نشاط التبشير بالمسيحية.

إن نشاط العمليات التبشيرية قد وُجّه ضمن خطوط للتقدم وقد أُسس على قواعد متينة متميزة عن قواعد الجغرافية التجارية أو العسكرية. وسبب هذا هو أن البعثات التبشيرية الدينية في شكلها الجيد وغير الفاسد كانت تهدف للاتصال بالكائنات الإنسانية المتكاملة ولم تكن تبغي السيطرة على الموارد التجارية أو المواقع الأستراتيجية. وهكذا وبينما كان المغامرون الهولنديون يقومون بمغامراتهم التجارية بعد اتباع الطرق البحرية التي اختطها

المسلمون العرب، نجد البعثات التبشيرية المسيحية تحاول الانحراف عن تلك الطرق واختراق الأراضي الداخلية الوثنية والتغلغل فيها مع أن تلك الأراضي لم تكن ممتلكة أية جاذبيّة اقتصاديّة. وتحتاج البعثات التبشيرية دوماً أن تكون على اتصال بالمراكز الرئيسية التي تموِّلها وترسل لها التعليمات وكان على هذه البعثات فتح الطرق وإنشاء قواعد تبشيرية كما حدث في كاليفورنيا حيث أسس الفرنسيسكان سلسلة من النشاطات التبشيرية في القرن الثامن عشر. ولم يكن اندفاع حركة التبشير المسيحية ليخلو من اهتمام اسبانيا الأستراتيجي في الساحل الغربي من أمريكا الشمالية. وكان للحركة التبشيرية المسيحية فضل في اكتشاف بعض المناطق المنعزلة وإشراكها في النشاط الاقتصادي العالمي. وبعد الانقلاب الصناعي شعر الناس في أوروبا بأهمية الخدمات التي أدَّتها البعثات التبشيرية. وقد رجع دافيد لفنغستون إلى انكلترة بعد اكتشافه حوض نهر الكونغو كما تقول إحدى القصص ليطلب المساعدة والتأييد لعمله التبشيري من تجار الأقمشة والنسيج في مانشستر وادعى أن تحويل أهالي إفريقية إلى المسيحية سوف يخلق فرصاً لطلب الافريقيين الأقمشة والألبسة الأمر الذي سوف يفتح سوقاً جديدة كبيرة للأنسجة القطنية في لانكشاير.

وكانت إحدى النتائج الجغرافية لحركة التبشير المسيحية التوزيع غير المنتظم للبروتستانت والكاثوليك وكذلك للطوائف البروتستانتية في المناطق غير الأوروبية. وفي أثناء المائة والخمسين عاماً الماضية كانت غالبية البعثات التبشيرية كاثوليكية في الأراضي الخاضعة للاستعمار الفرنسي والبلجيكي، بينما كانت البعثات البروتستانتية سائدة في الأراضي الخاضعة للاستعمار البريطاني والهولندي. وهكذا ظهر أن هذين النظامين المسيحيين كانا يعملان في مجالات متساوية تقريباً في ميادين التبشير في السنوات الأخيرة بينما بلغ عدد المبشرين حوالي ستين ألف مبشر من العالم الغربي يشتغلون خارجه.

وكان هنالك نوع من التفاهم بين البعثات التبشيرية بالنسبة للمناطق التي

تنشط فيها كل بعثة. ففي آسيا الشرقية مثلاً نشاطات البعثات المعمدانية Baptist في بورما بينما نشط الميثوديست Methodists في الصين بينما نشط البريسبيتاريون في كوريا وتايوان.

اللغات المقدسة:

هنالك عامل هام في المؤسسات الدينية المكانيّة وهو استعمال لغات خاصة وكتابات خاصة كواسطة للتفاهم والاتصال. واللغة المقدسة المستعملة في إنجاز الطقوس أو نقل المعلومات والمعارف الدينية من جيل إلى جيل تهتم أيضاً بدمج وتوحيد الرموز. وتعتبر اللغات التي تسمى اللغات الميتة الوسائل المفيدة للاتصالات بين علماء الدين من نفس المعتقدات ويجب علينا عدم التقليل من أهمية تلك اللغات.

لقد أصبح انتشار المسيحية المبكر سهلاً وذلك باستعمال اللغة اليونانية الدارجة (Koine) كلغة التخاطب العامة في القسم الشرقي من الأمبراطورية الرومانية. أما في القسم الغربي فقد استعملت اللغة اللاتينية بينما استخدمت اللغة الآرامية، كلغة تجارية دولية في منطقة الهلال الخصيب وما بين النهرين. وكانت هذه إحدى محسنات الكنيسة النسطورية وإن انقسام الكنائس المسيحية إلى شرقية وغربية يعكس ذلك الانهيار الجزئي في نقل الأفكار ووجهات النظر والمصالح الأقليمية الذي تبع انقسام المسيحيين إلى فئة تستعمل اللغة اليونانية، وفئة تستعمل اللغة اللاتينية. وبعد أن ثبتت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية استعمال اللغة اللاتينية كلغة طقوسية، أصبحت هذه اللغة هي اللغة الرسمية المستعملة في إدارة الكنائس الكاثوليكية بين الكهنة وجميع أركان العالم الروماني حتى بعد أن لم تعد اللاتينية لغة لأي شعب حي. وقد كانت للغة العبرية الصفة الطقوسية بين المجتمعات اليهودية المتناثرة مع أنها لم تعد اللغة الأم لجميع اليهود في العالم. وهنالك اللغة البالية والسنسكريتية وهما لغتان مقدستان قد قدمتا وسائل الاتصال بين الأشخاص المختصين وأدوات لنقل التعاليم المقدسة.

وإن علاقة اللغة العربية بالإسلام هي علاقة حميمة. ولقد انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بصفتها لغة القرآن وأداة لنقل الحضارة الإسلامية. وابتداء من القرن السابع فصاعداً مكنتها هيبتها ونفوذها من إزاحة جميع اللغات الوطنية المختلفة للسكان المسلمين الجدد في الشـرق الأوسط، وبمرور الزمن بدأ معظم الجيران المسيحيين واليهود الباقين في استعمال اللغة العربية كلغة وطنية. وقد ساعدت اللغة العربية الواسعة الانتشار على إيجاد واسطة للاتصال بين مختلف العلماء المسلمين الذين كان لهم عدة لغات أخرى واستعملت الكتابة العربية كواسطة لكتابة بعض اللغات الشرقية كاللغة الفارسية والملاوية والتركية. وإن استعمال اللغة العربية كواسطة لنقل العلوم الإسلامية وكلغة للدين والتي لم تكن الشعوب غير العربية تفهمها تماماً، كل ذلك يُعزز أواصر الصداقة والقربى بين المسلمين. فالمسلمون يعارضون ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية إلا بشكل ملحق مرافق للنص العربي.

إن استعمال بعض الأشكال الرنانة على يد بعض المجتمعات الدينية غالباً ما يقدم رمزاً من الرموز التفاضلية في الأديان. وإن كتابة نفس اللغة بخطوط مختلفة وأحرف مختلفة على يد بعض المجتمعات ما هو إلا عنصر ثقافي يشير إلى غزارة المادة وتنوعها وهو مستعمل في شبه القارة الهندية. ففي شمال الهند يكتب المسلمون والهندوس نفس اللغة ولكن بأحرف هجائية مختلفة يستعملونها في كتابة كتبهم المقدسة ففي الوقت الحاضر هنالك السيخ والمسيحيون في مستعمرة (جوا) Goe في الهند واليهود في أوروبا الوسطى والعرب والكروات في يوغسلافيا كل هؤلاء يستعملون أحرفاً مختلفة ومتميزة لكتابة لغتهم الوطنية بسبب تباعد بعضهم عن بعض وهذه الكتابة تميزهم عن بعض الأقوام الذين يتكلمون نفس اللغة ولكنهم ينتمون إلى أديان مختلفة المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية.

إن الشكل الجغرافي للمؤسسات السياسية ولميادين النشاط السياسي يفرض تأثيرات متزايدة على خصائص الأمكنة البشرية. وهكذا فإن العلاقة بين

الأنظمة الدينية والمنظمات السياسية تؤلف علامات الاستفهام العريضة بالنسبة لجغرافية الأديان. وفيما يلي عرض موجز لهذه العلاقات.

الحكومة الدينية:

في الحكومة الدينية تقوم المؤسسات الدينية طريقة سير الحكومة والدول وتمارس قوة هائلة. ولكن الحكومة الدينية لم تنجح في السيادة أبداً بشكل واسع وحتى في الأديان العرقية القديمة فقد كان الحكام والكهنة منفصلين بعضهم عن بعض كما هو الحال في الأديان العرقية الحية كالشنتو والهندوسية.

ولقد أحرزت الأنظمة الدينية العالمية بعض أشكال الحكم الديني والسيطرة ضمن بعض المناطق مما أثر على النظام بشكل عام محلياً. ونجد مثالاً على ذلك في حالة التيبت. فالمشيخة الكهنوتية التي تطورت وخرجت من البوذية الماهايانية Mahayana حكمت هذه المشيخة البلاد مدة أربعة قرون تقريباً واتبعت نظاماً عرقيّاً وهو نظام اللامات، وأخيراً انتشر هذا النظام في القبائل المنغولية في الشمال.

ويمكننا اعتبار حكم المورمون في أراضي ولاية (أوتاوا) Utah في القرن التاسع عشر حكومة دينية رافقت النظام العرقي مؤقتاً وكانت المشيخة الدينية أيضاً مشيخة للحكومة المدنية وكان قانون المورمون الديني هو القانون المدني حتى حل محله وخلفه القبول بالتشريع الفيدرالي بما يختص بتعدد الزوجات. وبتطور المورمونية ظهر أن الشكل الديني للحكم ضرورياً لتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ولا تزال كنيسة القديسين الجُدد تعتبر نفسها حكومة دينية.

وفي جنوب أمريكا كان الحكم الجوزويتي في شرق باراغواي ومنطقة (بارانا) المجاورة ومركزها اسنسيون Asuncion حكماً دينياً مسيطراً على حوالي ١٠,٠٠٠ ميل مربع. وقد اهتم الجوزويت بالسكان الهنود وأسسوا

إرساليات حافظوا بها على علاقات وديّة ولكن حكمهم كان استبدادياً فقد كانوا ينظمون الشؤون الأخلاقية ويهتمون بها وكذلك بالاقتصاد. وكان همهم تأمين راحة السكان مادياً بشكل يفوق حالة المستعمرات الأسبانية الأخرى، ولكن ذلك النظام إنهار وسقط بعد طرد الجوزويت عام ١٧٦٧ م وقد عجل ذلك حالة الشك والارتياب بالجوزويت وكذلك نقمة المستعمرين الآخرين عليهم.

الديانات الرسمية أو ديانة الدولة:

تقدم المؤسسات الدينية أحياناً بعض الخدمات الطقسية وبعض الإجراءات الروحانية وتجعلها ملكاً للدولة وهكذا فالدولة بدورها تحمي وتصون وتحافظ على تلك الطقوس وقد كان تقديس الحاكم بشكل روحاني إحدى السمات العامة التي انتشرت في الماضي إذ اعتبر الحاكم إلـهاً.

وظلت هذه المعادلة في العلاقات بين الدين والدولة فالكنيسة تحترم الدولة وتقدرها. بينما تحمي الدولة الكنيسة بدورها نتيجة لذلك. فكنيسة انكلتره وهي الكنيسة الرسمية في البلاد لم تعد لتنال التأييد المادي من الحكومة ولكنها تستفيد من الهبات الكبيرة التي كانت تقدمها الدولة أصلاً ومقابل ذلك تخضع تلك الكنيسة لمراقبة الدولة بشكل أو بآخر. وهنالك ترتيبات مشابهة موجودة في الدانمارك والنرويج والسويد حيث تتمتع الكنيسة اللوثرية بكونها الكنيسة الرسمية. وفي تلك البلاد هنالك حرية دينية تامة ولكن في اسبانيا وفي بضع أقطار في أمريكا اللاتينية حيث الدين الرسمي هو الكاثوليكية، تحترم الأديان الأخرى بشكل محدود.

وفي الإسلام اكتسبت منظمات الدولة قيمتها واحترامها بسبب العلاقة ما بين الحاكم وبين مؤسس الدين الإسلامي وهو محمد ﷺ وكان الخليفة يقول أنه خليفة محمد وكان هذا أكثر من حاكم دنيوي، بل كان المدافع عن الدين. وفي أثناء غياب النظام البيروقراطي الديني الفعّال كان الخليفة هو المدير والمدبر للمؤسسات الدينية ولكنه لم يكن مساوياً للبابا في سلطته إذ أن تفسير

وتأويل القرآن الكريم كان يعتمد على إجماع علماء الدين وفقهائه. وحتى في الأزمنة الحديثة حافظت بعض الدول الإسلامية مثل سوريا وتركيا على الإشراف على بعض المؤسسات الدينية كالأوقاف.

وإن استعمال هيبة ونفوذ الحكومات لتأييد بعض الأنظمة الدينية كان له أكبر الأثر في التوزيع الجغرافي للأديان. وإن أكبر مثال على هذا القول هو الحادث العظيم الذي قام به الأمبراطور ثيودوس وكان له أكبر أهمية وأثر جغرافي وهو الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للدولة أي الأمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥ م.

وإن تحول الحاكم إلى أحد الأديان يمكن أن يتلوه تحول جميع أفراد شعبه إلى ذلك الدين وهذا يحدث في القبائل والدول الصغيرة القريبة من الأقاليم الدينية (انظر الفصل الخامس) وإن مسؤولية القرارات الدينية التي يسمح للحكام بإصدارها تظهر في تلك السهولة التي استطاع بها الملك هنري الثامن ملك انكلتره الانفصال عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رغم التأييد الطفيف الشعبي، وتأسيس كنيسة عرقية خاصة به.

وفي القرن السابع عشر تأسست بعض الأديان السماوية عن طريق عقد معاهدات تَلَتْ الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت. ففي ألمانيا في عام ١٥٥٥ م حدثت مصالحات سلمية في أوغزبورغ Augsburg واتفق على المبدأ التالي الذي عُبر عنه بالمعادلة الآتية: Cujus regio, ejus religio أي أن دين الحاكم يجب أن يكون دين المحكومين (أي الدين الذي يجب على جميع أفراد المحكومين اعتناقه). وقد تأكد نفس المبدأ في معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨ وهي التي تَلَت حرب الثلاثين عاماً المدمرة. وإن تطبيق هذه المعادلة كان مسؤولاً جزئياً عن التوزيع المرقع للمناطق البروتستانتية والكاثوليكية المشاهد الآن في ألمانيا الغربية.

الأديان المحرومة والأديان الممنوعة:

تحرم الدولة وتمنع بعض الأديان عادة لأن الدين الممنوع يؤلف تهديداً للدولة سياسياً. ويعتبر طرد المسلمين واليهود في اسبانيا بعد استعادة الأسبان لبلادهم عام ١٤٩٢ مثلاً واحداً من عدة أمثلة كثيرة لهذه الحالات. وقد طردت البعثات التبشيرية من الصين الشيوعية والسودان وفي عدة أقطار شيوعية تعمل الكنائس المسيحية بحرية ولكنها مراقبة. وتمنع نشاطات المذهب البروتستانتي. وبعثاته التبشيرية في اسبانيا وبعض أقطار أمريكا اللاتينية وفي أثناء حكم اسبانيا لأمريكا الجنوبية منعت جميع النشاطات غير الكاثوليكية في المستعمرات الأسبانية وتتهم كولومبيا وبيرو في الوقت الحاضر بتأييد النزعات من التمييز العنصري ضد جميع الفئات غير الكاثوليكية.

الدولة العلمانية:

لقد ظهرت بعض الحكومات الحديثة في الوقت الحاضر التي تفصل الكنيسة عن الدولة وهي تهدف بالتالي إلى إلغاء اعتراف الدولة بأي دين من الأديان وإن هذا العمل يخلق تعاوناً وتعاطفاً بين الأديان.

المجتمعات الدينية تشكل قوميات جديدة:

لقد خلقت بعض الأنظمة الدينية مجتمعات شكلت أسس قوميات جديدة أو أقليات قومية وإن أتباع نفس هذا الدين يشعرون بشخصية جديدة ويساهمون في خلق سمات جديدة تميزهم عن المجتمعات الأخرى في نفس المنطقة ولكن من الممكن حدوث عوامل غير مواتية في ثقافتين دينيتين من هذا النوع وهذا يؤدي إلى انفصال المجتمعين بعضهما عن بعض وكذلك من الممكن تطور المنازعات والخصومات التقليدية. وتحت ظروف من هذا النوع يمكن نشوء قومية جديدة قليلة العدد خصوصاً عندما تسود الثقافات الثانوية في بعض المناطق.

وعند تشكل القوميات الجديدة تعمل الفروق الدينية على تعزيز الدور الأساسي الذي تلعبه اللغة. وهكذا فإن النزاعات الموجودة في سيلان في الوقت الحاضر تنحصر فيما بين الأكثرية وهم السكان الذين يتكلمون اللغة الشينهاليزية Sinhalese والأقلية الذين يتكلمون لغة التاميل Tamil وجميع القوميات هذه تمتاز بأنها بوذية وهندوسية بنفس الوقت.

ومع ذلك يمكن للشخصية الدينية الخاصة أن تصبح بنفسها أساساً لحركة هدفها إظهار الشخصية المستقلة الوطنية وإن انفصال بلجيكا عن هولنده الذي حصل عام ١٨٣٠ كان سببه رغبة السكان البلجيكيين الكاثوليك بإظهار شخصيتهم المستقلة والانفصال عن هولنده الكلفنية.

وهنالك عدد من السكان العرقيين وهم الايرلنديين الذين انقسموا في هذه الأيام بسبب الاختلافات الدينية وأصبحوا مجموعتين قوميتين متميزتين الأولى المجموعة الكاثوليكية في جمهورية ايرلنده المستقلة والسكان الذين اعتنقوا المذهب البيريسبتري في شمال ايرلنده وهم جزء من المملكة المتحدة وقد فشلت كل محاولات جمهورية ايرلنده لإيجاد قاعدة عامة لغوية لوحدة الجزيرة بأكملها وذلك لأن وجود ايرلنده مستقلة قد أحدث بناء على ظروف تاريخية سببت التفريق وهي لغة ايرلنده العامة، بينما نرى لغة شمال ايرلنده وبقية الجزر البريطانية هي اللغة الانكليزية.

ففي فترة ما قبل الإصلاح الديني كانت كلمة ايرلندي تعني جاليك Gaelic وبعد الإصلاح الديني أصبحت كلمة ايرلندي Irish مقترنة باسم الروماني الكاثوليكي وذلك عندما التحم شعب الجليك Galis (وهم الايرلنديون القدماء) مع الانكليز والأسكتلنديين القدماء (وهم ما يدعون بالايرلنديين الجُدد) وأصبحوا جميعاً بابويين (أي تابعين للبابا) وذلك باتباع أساليب التمييز العنصري والقوة والبطش على قاعدة سياسية دينية. وهكذا تشكلت القومية الايرلندية الحديثة. ولكن هذه القومية الايرلندية الحديثة قد عبّرت عن نفسها ومطامحها باللغة الانكليزية.

ولكن اختلف الأمر بالنسبة للحركة العرقية للأسكتلنديين والويلزيين. الذين لم يتأثروا بالفروق اللغوية والتحموا واتحدوا بنظام ديني بروتستانتي قومي وهو نظام كنيسة أسكتلنده وويلز والبيريستبري Preshyterian في أسكتلنده والمثودست Methodist في ويلز. ففي ويلز استخدم الويلزيون الترجمة الويلزية للكتاب المقدس في القرن الثامن عشر فأصبحت اللغة الويلزية لغة وطنية خدمت بنجاح في تكوين القومية الويلزية أكثر مما خدمت اللغة الايرلندية (الجاليك) في ايرلنده.

الدين والأحزاب السياسية:

تشكل المؤسسات الدينية والمجتمعات الدينية في كثير من الدول العلمانية الحديثة الأساس الذي نشأت فيه الأحزاب السياسية. فهنالك أحزاب تمثل وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الدينية أو العضوية الفعالة لمجموعة من الكنائس فضلاً عن الأحزاب التي تمثل الأقليات الدينية القومية وإن الأحزاب من هذا النوع مثل الحزب المسيحي الديموقراطي في ألمانيا الغربية غير غريبة عن أوروبا بشكل عام.

وهنالك أحزاب ذات أغراض سياسية غامضة وهي تهتم بالقضايا الدينية بشكل مباشر فضلاً عن اهتمامها ومطالبتها بقوانين تجسد المتطلبات الدينية المتطرفة، فحزب ماهابها Mahabha الهندوسي في الهند وحزب مزراحي في الأرض المحتلة يمثلان أحزاباً للأقليات تمثل التطرف الديني. ولم يحدث أي تحد صريح لمثل هذه الأحزاب في بلادها وذلك لأن الشخصية الدينية للأكثرية في كلا البلدين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الدولة ذاتها.

والمؤسسات الدينية التي تعتبر أيضاً مؤسسات سياسية ليست نادرة الوجود، بل هنالك عدد من الطوائف الدينية الأسيوية والأديان الهامشية هي من هذا النوع. ففي جنوب فيتنام نجد المؤسسة المشيخية للدين المدعو كاوداي Cao dai والتي يبلغ مجموع أتباعها حوالي المليونين هي بنفس الوقت

مؤسسة سياسية. وهنالك في اليابان طائفة بوذية تدعى سوكاجاكاي Soka Gakai وقد بدأت بالتوسع بسرعة وأصبحت حزباً سياسياً ذا أرضية قومية.

الميول السياسية في الأقاليم الدينية:

قلما تمتلك المناطق ذات الأنظمة الدينية أية وحدة سياسية. والحقيقة أن كلا المسيحية والإسلام كانا يطمحان لخلق قوميات اجتماعية تحفظ رسالتهما الدينية وتنقلها إلى بقية البشرية. ويذكر العهد الجديد من الكتاب المقدس المجتمع المسيحي الذي يشكل أمّة مقدسة وشعب خاص، لم يكن شعباً في الماضي ولكنهم الآن أصبحوا شعب الرب (سفر بطرس ٢: ٩، ١٠) ولكن هذه الأماني لم تتحقق بالمعنى السياسي.

وبعد أن انحلت الأمبراطورية الرومانية بقي هنالك نوع من الوحدة المسيحية السياسية ضمن حدود المناطق الرومانية الكاثوليكية. ولما كانت السلطة الزمنية قد أصيبت بالضعف والهزيمة وعمت الفوضى في البلاد، لذلك استطاعت الكنيسة من خلال منظماتها المشيخية السلمية أن تمارس السيطرة السياسية على بعض المناطق الخاضعة لسلطتها الروحية. وفي الفترة ما بين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي اشترك العالم الكاثوليكي المسيحي في محاولة شملت سكان شمالي البحر الأبيض المتوسط وذلك للقضاء على النفوذ الإسلامي في الأراضي المقدسة واستبداله بالنفوذ المسيحي. وبعد ذلك بدأت إمكانية إيجاد مؤسسة سياسية موحدة في الأراضي التي يعتنق سكانها المذهب الكاثوليكي تزول وحل محلها حركة الإصلاح الديني.

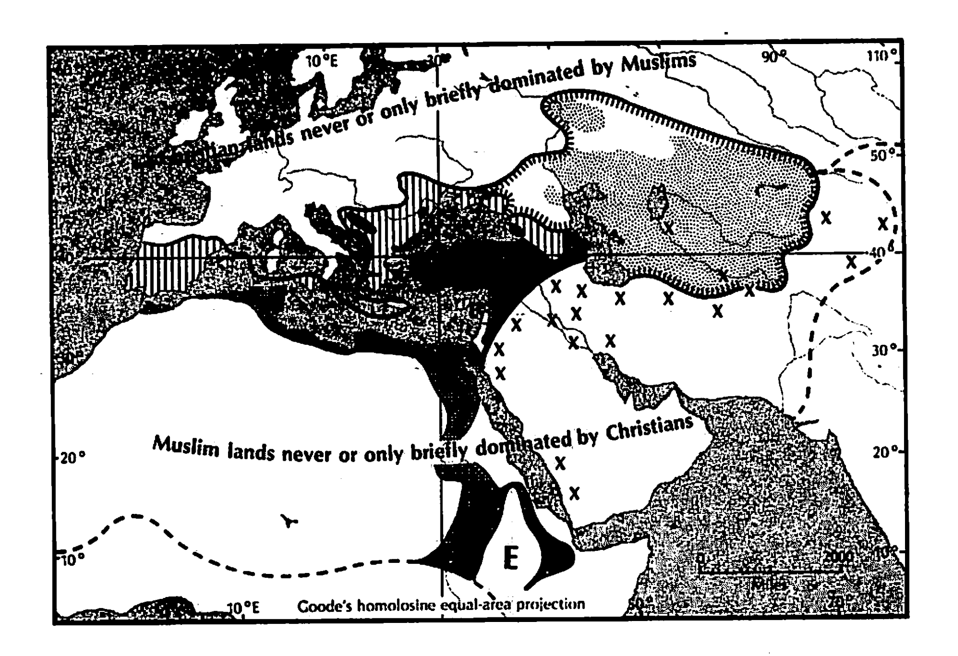
ومع ذلك فإن فكرة المعسكر المسيحي الذي كان مشغولاً في حروب باردة وساخنة مع المعسكر الإسلامي ظهرت بأنها عنصر حاسم في تطور المفاهيم في أوروبا كمعسكر ثقافي وبالأوروبيين كمجموعة مثقفة وقد ظل

اسم الأوروبيين بالنسبة للبلدان الإسلامية محتفظاً بلفظة الفرنجة أو الفرنج وتعني الشعوب الفرانكية وقد استعمل هذا الاسم للدلالة على الخليط العرقي الذي تألفت منه عناصر الحروب الصليبية التي حدثت قبل زمن طويل. وفي القرن التاسع عشر حدث بعض الاتحاد بين الدول المسيحية وكان كالصدى لفكرة أوروبا المسيحية التي انتعشت لوقت قصير عند مواجهة الأتراك المسلمين ولكن التأثيرات السياسية والقوة التي نتجت عن التزاماتهم بالشخصية المسيحية كانت بالحقيقة صفراً أو ما يقارب الصفر.

وفي القرن التاسع عشر أو قبل ذلك بوقت طويل كانت الوحدة الإسلامية القديمة قد اضمحلت سياسياً وأصبحت إمكانية أي عمل سياسي مشترك موجد للدول الإسلامية والعالم الإسلامي بعيدة الاحتمال وأما من وجهة محلية فالإسلام قد أصاب بعض النجاح في تكوين رابطة سياسية والحقيقة أن محاولة ربط شرق وغرب الباكستان لتشكيل قومية واحدة يمكن أن تعتبر إحدى انتصارات الإسلام.

وإذا نظرنا في أفق واسع نجد أن المحاولات التي حدثت في الجزء الأول من هذا القرن لتوحيد الأمم الإسلامية قد باءت بالفشل. ويعزو توينبي Toynbe سبب ذلك الفشل إلى أن الإسلام كنظام ديني لم يصادف أي تهديد جدي وأن نمو القومية في معظم الأقطار الإسلامية والعالم الإسلامي قد جعل نجاح خطط توحيد العالم الإسلامي أقل احتمالاً من السابق.

ولكن الإسلام قد نجح إلى حد ما في خلق أمة لا تزال تسعى للتعبير عن شخصيتها السياسية وهذه ليست الأمة الإسلامية بل الأمة العربية، التي نشأت بانتشار الدين الإسلامي في ربوعها وكذلك اللغة العربية المقدسة السائدة في مناطق ذات تنوعات عرقية سابقة والتي تحتوي على كنائس مسيحية عرقية أيضاً. وقد بدأ الشعور بضرورة الوحدة العربية من وقت قريب وفي هذا الجيل بدأت فكرة القومية العربية تجذب بعض بقايا العرب المسيحيين إلى حظيرة القومية العربية.

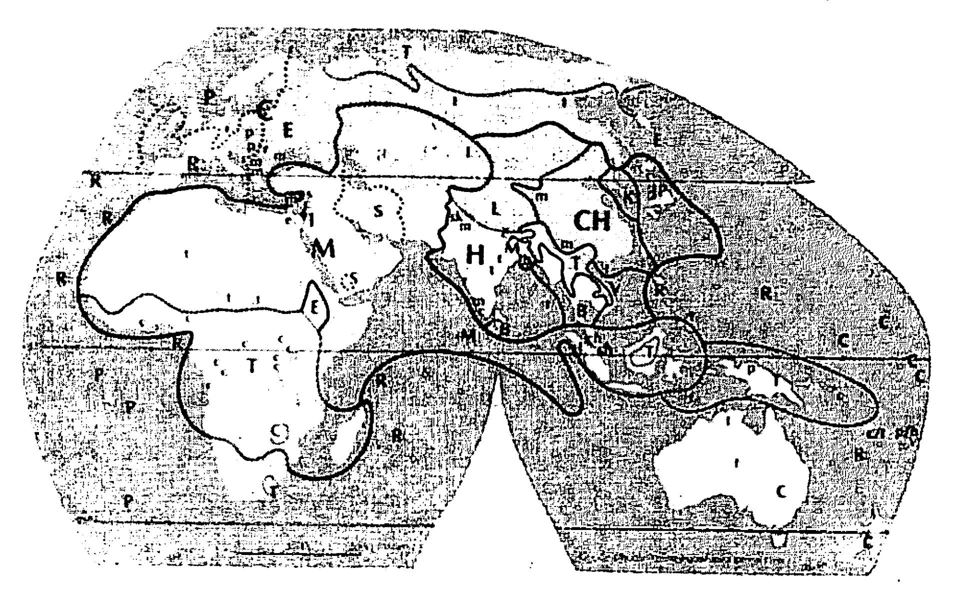


(الشكل ٥) جبهات المواجهة ما بين الإسلام والمسيحية في أوروبا والشرق الأوسط ابتداء من[1] القرن السابع عشر إلى القرن العشرين.

الفصل الخامس

توزيعات الأديان

ليس هنالك سوى بضعة أنظمة دينية حازت على قصب السبق في بلوغ مجموع مُعتنقيها ما يعادل ثلاثة أرباع البشرية. ويسيطر كل دين من هذه الأديان على مناطق واسعة تؤلف أقاليم دينية (الشكل ٦) وهنا تشمل التوزيعات المذكورة شعوباً ذات صلة اسمية بالأديان فضلاً عن بعض المناطق التي انتشر بها النظام الشيوعي.



الشكل (٦) توزيع الأديان في العالم القديم

إن أوسع وأكبر إقليم ديني وأكثر عدداً هو الاقليم المسيحي الذي يشمل أوروبا والأمريكيتين وقسماً كبيراً من شمال آسيا وجنوب أفريقيا وأستراليا والأوقيانوسية ما عدا بعض الأراضي القليلة السكان خارج أوروبا. وينقسم العالم المسيحي إلى أقاليم منفصلة كلياً يهيمن عليها أحد الأنظمة الثانوية. ويعتبر النظام الكاثوليكي أكبر هذه الأنظمة في أوروبا هنالك حدود متميزة بين المناطق التي يؤلف فيها النظام الكاثوليكي حوالي ٩٠٪ من السكان والمناطق التي يبلغ عدد أتباع النظام الكاثوليكي حوالي ١٠٪ فيكونون أقلية بسيطة هناك. وفي أوروبا الوسطى هنالك بعض الاستثناءات حيث توجد بعض المناطق التي يتفوق بها الكاثوليك عددياً في أماكن متناثرة مع وجود مناطق أخرى حيث هنالك توازن عددي بين البروتستانت والكاثوليك. ويؤلف الكاثوليك حوالي ٤٥٪ من سكان سويسرا و ٤٠٪ من سكان هولنده ولكن كلا البلدين مقسمان إلى مناطق كاثوليكية صميمة ومناطق بروتستانتية صميمة. والمناطق المحتوية على غالبية كاثوليكية في أوروبا هي إيرلنده وفرنسا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال وإيطاليا والنمسا والأقاليم السلافية والكرواتية والدالماسية في يوغسلافيا والأراضي التي يسكنها تشيكيون في بولنده وهم يعيشون الآن في المنطقة على طول بحر البلطيق التي كان يسكنها اللوثريون الألمان، وفي لتوانيا. وبالإضافة إلى ذلك هنالك غالبية كاثوليكية في جنوب الأراضي المنخفضة وغرب ألمانيا وخصوصاً في بافاريا والأراضي التي يحدها نهر الراين والموزيل Moselle وفي وسط وجنوبي سويسرا والسلوفاك في هنغاريا وفي أراضي رومانيا.

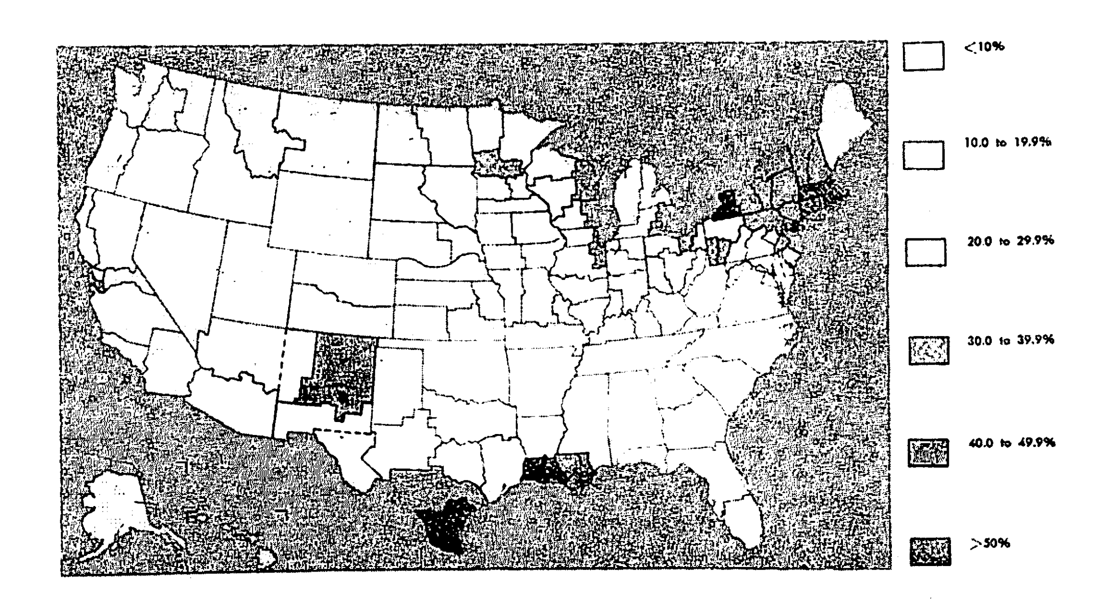
وأما بريطانيا العظمى ووسط منطقة ايرلنده الشمالية وشمال الأراضي المنخفضة وأسكندنافيا وفنلنده وأستونيا ومعظم سهول ألمانيا الشمالية ووسط ألمانيا شرقي الويز Weser فالغالبية العظمى فيها هي البروتستانتية. وتؤلف الكنائس الأورثوذكسية الشرقية الغالبية العظمى في شرق وجنوب شرقي الأقاليم الكاثوليكية في غاليسيا وشمال رومانيا بين هذه المجتمعات وروما

ولكن انفرط عقد تلك التحالفات مؤخراً تحت الضغوط السياسية.. ولهذا نرى أنظمة دينية مختلفة متداخلة بعضها ببعض حول منطقة جبال الكاربات. فتوجد هناك مجتمعات كاثوليكية وبروتستانتية ويونانية متحدة بما فيها بعض الأقليّات الكلفنية البروتستانتية في السهول الشرقية لهنغاريا شرق نهر تسزتا Teszta. أما في داخل أوروبا فتوجد بعض المجتمعات الإسلامية في معظم أراضي البانيا ومنطقة مصب الدانوب والبحر الأسود وتركية الأوروبية. وأما إذا اتجهنا شرقاً فنجد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التقليدية هي السائدة في الأراضي حيث تسود اللغة الروسية ومعظم منطقة قفقاسيا.

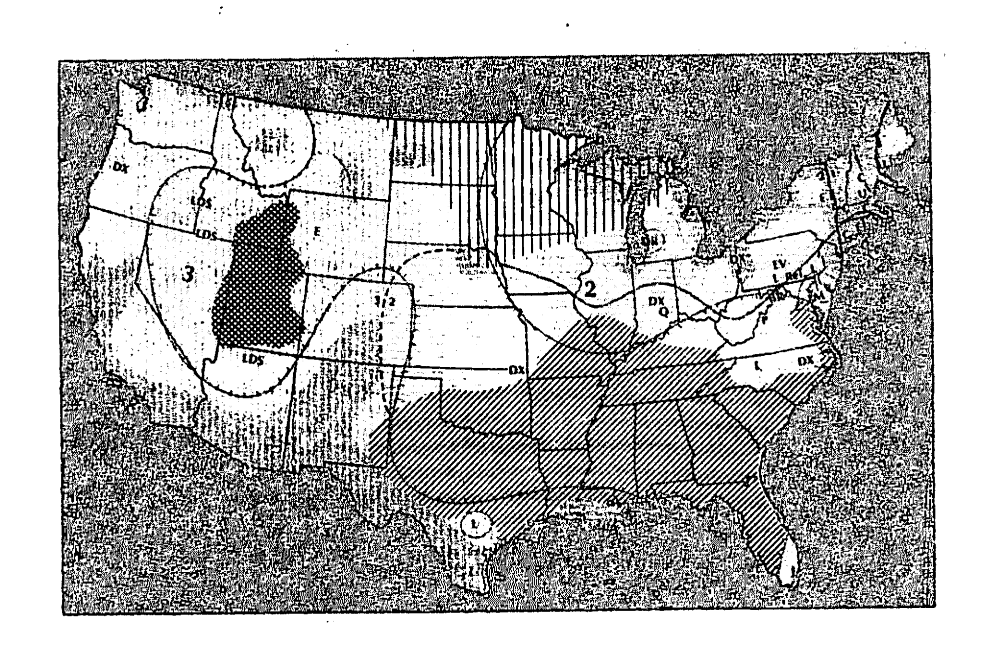
وتسود الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية ما عدا مناطق تسكنها بعض القبائل البسيطة وبعض أقطار غيانا والبحر الكاريبي التي تأثرت بالحكم البريطاني والهولندي. وأما في داخل أمريكا الشمالية البريطانية فتسود الكاثوليكية في كويبك حيث الثقافة الفرنسية. وهنالك بعض مناطق صغيرة يسود فيها الدين الكاثوليكي تشمل بعض المدن الشمالية الشرقية ولكن معظم الولايات المتحدة وكندا تحتوي على أقلية كاثوليكية تبلغ من ١٥ ـ ٣٥٪ من مجموع عدد السكان. انظر الشكل (٧) ولكن الاستثناء حين يصبح الكاثوليك أقلية صغيرة جداً في البلاد التي يسود فيها المذهب المورموني ما عدا جنوب لويزيانا وبعض أجزاء فلوريدا وتكساس التي تسود فيها الكنائس المعمدانية Baptists الشكل (٨).

أما في جنوب إفريقية فالغالبية الدينية هي البروتستانتية والمتكلمون باللغة الانكليزية في أستراليا والأوقيانوسية فيهم بعض الأقليات الكاثوليكية. وهنالك منطقتان موجودتان في العالم القديم:

الأولى: الأراضي ذات الغالبية الكاثوليكية في جزر الفلبين ثم في وسط الحبشة حيث توجد كنيسة مستقلة فعلاً.



الشكل (٧) الرومان الكاثوليك في الولايات المتحدة الأمريكية



الشكل (٨) المؤسسات الفرعية الدينية في الولايات المتحدة عام ١٩٥٠

وتبقى من المناطق الدينية، مناطق آسيا وإفريقيا. فالأقاليم الإسلامية هي أوسع تلك المناطق مساحة ولكن أتباعها أقل عدداً من اتباع الأنظمة الصينية الدينية وتزيد قليلاً على الهندوسية. وتمتد هنالك منطقة واسعة عبر شمالي إفريقية والشرق الأوسط إلى أفغانستان وغرب باكستان وتؤلف هذه المنطقة أقطاراً متجاورة حيث تسود الديانة الإسلامية ما عدا بعض المناطق في لبنان حيث تتلاقى المسيحية والإسلام منذ القرن السابع وتؤلف (السنة) الأكثرية العظمى من المسلمين. ويؤلف حوالي ٥٥ ٪ من مجموع السكان بينما نجد المسلمين بما فيهم الدروز يؤلفون ثلاثة أرباع المنطقة. وفي شرق الباكستان وفي جمهورية (كازاخستان) السوفييتية وفي الملايو وبعض الجزائر الخارجية في أندونيسيا يؤلف المسلمون نسبة تتراوح بين المعتدلة والأغلبية. وإن جزيرة (جاوه) التي تحتوي على ١/٧ مجموع عدد السكان المسلمين في العالم هي أيضاً ذات أغلبية إسلامية وتؤلف إيران وبعض السكان الريفيون في جنوبي العراق منطقة شيعية واضحة المعالم.

ويتألف النظام الديني البوذي من مجموعتين منفصلتين: البوذية الثيرافادية Theravada وهي منتشرة حول خليج البنغال وتنتشر في معظم سيلان وبورما وتايلاند ولاوس وكمبوديا بينما كانت المجموعة الثانية المدعوة مجموعة اللامات من البوذية الماهايانية Mahayana والتي أصبحت على وشك الانقراض كانت النظام السائد في التيبت وفي أجزاء من سينكيانج Sinkiang ومونغوليا وأما في المناطق الأخرى في جنوب وشرق آسيا فتسود هناك الأديان العرقية الشرقية.

وهنالك أديان قبلية بسيطة تسود في مناطق واسعة في المناطق المدارية الرطبة والمناطق الشمالية من الغابات وأراضي التُندرا في أمريكا الشمالية والاتحاد السوفييتي. ويقل عدد السكان في تلك المناطق ولكن في غرب إفريقية وجنوب شرقي أفريقية أيضاً في الملاوي وناميبيا وموزمبيق هنالك تجمعات لا بأس بها من السكان الذين اعتنقوا واحداً أو آخر من الديانات

العرقية البسيطة السائدة في المنطقة والتي تحتل كل منها منطقة صغيرة من الأرض.

وهنالك توزيع متناثر وهو بشكل مجتمعات قليلة العدد من المعتنقين لأحد الأديان الذي يفتقر إلى أرضية جغرافية وهذه تدعى حالة الشتات Diaspora.

وهنالك حالات شتات أخرى كحالة شتات الزرداشتية التي تتمثل بالبارسيس Parsis في الهند والمسيحيين الأرمن ويستعمل هذا المصطلح أيضاً للدلالة على التوزيعات المبعثرة لبعض أحوال الشتات الهندوسية في شرق إفريقية وجنوب شرق آسيا وجزر الهند الغربية وفي أمكنة أخرى.

عمليات النمو والتكاثر المكانية:

تنشأ التوزيعات الدينية بواسطة بعض عمليات التفاعلات المكانية كالانتشار والهجرة والمنافسات للحصول على الأمكنة المناسبة. وتؤثر على هذه العمليات كون تلك المفاهيم عرقية أو عالمية نسبياً وكذلك بساطة أو تعقيد الطقوس ثم مرونة أو تصلب وتزمت المؤسسات الدينية.

وإن انتشار الأديان له أهميته بالنسبة إلى الجغرافية الثقافية، وذلك لأن التحولات الدينية هي المفتاح المؤدي إلى انتقال واسع وتحركات في المادة الثقافية. فالأديان العرقية والعالمية كان لها دورها الرائد كفاعليات حضارية بين الفئات القبلية غير المنظمة وبين الدول الصغيرة. وبالنسبة لمثل هؤلاء الناس يعتبر التحول إلى أحد الأديان العالمية إيذاناً بدخول جذوة الأفكار الثقافية التي كانت ممنوعة الدخول في السابق كمواد غريبة لا يليق تقديمها إلى نظام المعتقدات الراهن.

الهجرة:

إن إحدى الطرق الفعّالة لنمو المؤسسات الثقافية هي الزيادة الطبيعية للشعوب التي تحمل تلك الثقافة فوجود الفروق في المبادىء الدينية

والمؤسسات الثقافية ينتج عنه وجود فروق في النسب الديموغرافية للمجتمعات الدينية، فالتوسع الأقليمي ينتج من نمو عدد السكان خصوصاً إذا صاحب هذا النمو تحركات شعبية عامة.

وإن هجرة الديانات العرقية البسيطة ينتج عنه تشكيل أنظمة عرقية جديدة. وقد نشأ الدين البولينيزي من العناصر العامة الدينية التي نشرها المهاجرون البولينيزيون في منطقة المحيط الهادي ولكن هذه الأنظمة لم تنشر نظاماً دينياً ولم تخلق شخصية عامة مستقلة بين أتباعها. وإن طبيعة الأنظمة العرقية المركبة والمعقدة تؤدي إلى درجة من التعثر في الحركة. إذ أن الأنظمة العرقية الدينية قد نمت ببطء وكان هذا النمو البطيء مصحوباً بهجرات بعض القبائل المجاورة من مسافات قريبة وأحياناً عن طريق امتصاص بعض السكان المجاورين من خلال التحول الديني لهؤلاء.

إن عهود الشتات ما هي إلا نوع من الهجرات للأنظمة العرقية الدينية وقد تحدث حركات مصطفاة على المدى الطويل وتشمل هذه المجموعات من الدفع والجذب كما حدث في الشتات اليهودي.

وإن (نفي) المتجمعات اليهودية من عالم البحر المتوسط كان من عمل اليهود أنفسهم، فالصناع المهرة من اليهود والتجار قد راقت لهم الفُرص التجارية التي خلقتها حالة السلم الروماني السائدة في الأمبراطورية الرومانية لذلك عمد هؤلاء اليهود لترك فلسطين قبل أن يجبرهم الرومان على تركها. وقد حدثت ظروف مشابهة أدت إلى استيطان اليهود في أمكنة أخرى في آسيا. ففي الأقطار الإسلامية احتفظ اليهود بشخصيتهم الاعتبارية بينما طُمست تلك الشخصية في المناطق الأسيوية غير الإسلامية. ولقد تعرضت المجتمعات اليهودية في أوروبا الغربية الذين امتازوا بدورهم في تطور الديانة المسيحية، تعرض هؤلاء لمزيد من التعذيب والطرد بالقوة. وقد طردوا من أنكلترة عام ١٢٩٠ م ولم يرجعوا إلا في القرن السابع عشر. وقد طردوا من اسبانيا كما طُرد المسلمون في نهاية القرن الخامس عشر ويقدر عدد المطرودين من

٢٠٠,٠٠٠ إلى ٤٠٠,٠٠٠ ونتيجة لذلك فقد منع المسلمون واليهود الذين اعتنقوا الديانة المسيحية حتى الجيل الثالث من الهجرة إلى الأراضي التي فتحها الأسبان والبرتغاليون في جزر الهند الغربية.

حدثت مجموعة من الفُرص الاقتصادية في أوروبا الشرقية خلال فترة العصور الوسطى حين انتشر النفوذ الألماني المدني شرقاً وصاحب ذلك زيادة العداوة المتأججة في صدور الغربيين لمدى حدوث الانتعاش في الكنيسة الكاثوليكية، مما جعل العمال المهرة من اليهود وأصحاب الحوانيت والتجار يشكلون أقليات كبيرة الحجم في المدن وفي أصغر المدن الريفية.

أما في بولنده ولتوانيا والمقاطعات الغربية الحدودية للأمبراطورية الروسية فإن القسم الأعظم من السكان اليهود بدأوا في الظهور في أوائل هذا القرن وقد حدث نوعان من التحركات الرئيسية للسكان إحداها موجة الهجرة إلى الولايات المتحدة التي تمركزت في المدن الشمالية الشرقية فمنطقة مدينة نيويورك الآن تحتوي على رُبع عدد اليهود في العالم وأما الباقون فقد هاجروا إلى فلسطين حيث هنالك اليهود الشرقيون الذين يؤلفون شريحة من اليهود الذين سكنوا فلسطين. وأما في أوروبا الشرقية فإن البرامج البولندية وبعد ذلك سياسة الإبادة العنصرية التي اتبعها النازيون في ألمانيا عملت على مسح وهجرة السكان اليهود من ألمانيا. ولا يزال حوالي مليونان من أصل يهودي يعيشون في روسيا وفي أجزاء أخرى من الاتحاد السوفيتي.

إن القوى المبعثرة للسكان اليهود في عصر الشتات كانت بسبب الهجرة الاختيارية اليهودية إلى المدن الصغيرة والكبيرة، وهنالك مجتمعات دينية أخرى قد احتلت مصائر أخرى عندما أجبرت على الهجرة. ففي الشرق الأوسط حيث الأراضي الجبلية والصحراوية غير الجذابة، أصبحت أماكن مناسبة للاجئين من الطوائف الإسلامية الذين حافظوا على شخصيتهم المنفصلة بقبولهم العيش في درجة من العُزلة.

وأما المجتمعات الدينية المحصورة (كالمانوية) التي انتقلت إلى

المناطق الزراعية حيث لقيت استقبالاً مناسباً واستطاعت الاحتفاظ بقيمها الاجتماعية الخاصة. واستقر بهم المقام في ولاية كنساس في الـولايات المتحدة وفي الباراغواي وعلى ضفاف نهر الفولجا.

وفي أنواع أخرى من الهجرات، استطاعت بعض الأنظمة الدينية التوسع والامتداد بسبب التفوق العددي للمهاجرين من الأراضي الجديدة. ولم تستفد البوذية ولا الإسلام من هذه العملية، التي يُعزى إليها التوسع المسيحي الهائل في الأزمنة الحديثة. فالتجمعات البوذية والإسلامية التي هاجـرت بشكل جماعي إلى الأراضي الجديدة كانوا من الرعاة الرُّحل المتحركين الـذين استقروا في بعض الأجزاء الجافة من آسيا أو شمالي أفريقية. وإن هجرة الأتراك السلاجقة الذين تحولوا حديثاً إلى الإسلام وتحركهم في الحوض الشبه القاحل لبلاد الأناضول حيث السكان المتفرقون خلال القرن العاشر والحادي عشر كانت إحدى النتائج المترتبة عن هذا المبدأ. وهكذا أصبح معظم الأناضول مسلماً بسبب تحول السكان المسيحيين هناك إلى الدين الإسلامي في القرى والمدن.

وإن هجرات الأقوام المسيحية قد أحدثت تغيرات درامية في خريطة الأديان في العالم فالتوسع الأوروبي قد مدّ في نفوذ المسيحيين أضعاف ما كان عليه ذلك النفوذ عام ١٥٠٠ م فقد انشأت أعداداً صغيرة من المهاجرين المسيحيين متجمعات مسيحية جـديدة من السكـان الفطريين عن طـريق تحويلهم إلى المسيحية وكذلك بتبادل الزواج كما حدث في عدة أجزاء من أمريكا اللاتينية، وفي أثناء القرنين الماضيين كانت هجرة واستيطان بعض السكان المسيحيين هي العملية الرئيسية التي نتج عنها توزيعات دينية جديدة. وبهذه الطريقة سادت المسيحية وانتشرت في شمال أمريكا تقريباً وفي البرازيل وفي أمريكا الجنوبية الاستوائية وأستراليا ونيوزلنده، وجنوب أفريقية حيث مستوطنات البوير وفي سيبريا والشرق الأقصى في المناطق التي سكنها الروس من الكنيسة الأرثوذكسية.

وفي الولايات المتحدة نجد توزيع المجتمعات المسيحية معقداً. إذ أن هناك حوالي (٢٢٥) طائفة بروتستانتية تعمل بنشاط، وسبب هذا العدد الضخم هو هجرة مختلف الطوائف إلى الولايات المتحدة وكانت كل طائفة تحمل كنيستها معها.

هنالك بعض الفئات الرئيسية المسيحية في الولايات المتحدة التي لم تتأثر قط بالكنيسة الانجيلية بقدر ما تأثرت بتبادل الزواج ولهذا فقد كان توزيعها ناتج عن الهجرات الداخلية. فالكنيسة الكاثوليكية واللوثرية والأرثوذكسية. ظلت جميعها مميزة عرقياً، وذلك لأن معظم أتباعها في الولايات المتحدة هم من أنسال مهاجرين غير إنكليز، وهكذا كانت حالة بعض المذاهب الدينية مثل الاميش Amish، وقد نشأ توزيع كثير من الطوائف الوطنية الأمريكية من الهجرات الداخلية وإن احتلال طائفة المورمون المهاجرة والقادمة من الشرق لولاية أوتاه Utah والولايات المجاورة يشبه إلى حد ما احتلال المسيحيين لأمريكا الشمالية.

ولقد زاد عدد السكان الكاثوليك في الولايات المتحدة بشكل ملاحظ عن طريق الهجرة خلال الـ(١٢٥) عاماً الماضية. وما عدا السكان الكاثوليك القدماء في الأراضي التي استخلصت من الفرنسيين والمكسيكيين وما عدا الكاثوليك الانكليز في مستعمرة ماري لند؛ فإن غالبية الكاثوليك في الولايات المتحدة قد أتوا من الهجرات الجماعية إلى الأقسام الشمالية الشرقية الصناعية تلك الهجرات التي بدأت عام ١٨٤٠ وهي التي جلبت الايرلنديين والبولنديين والايطاليين وأهالي بورتريكو. أخيراً إلى تلك البلاد وفي عام ١٨٤٠ بلغ عدد السكان الكاثوليك في الولايات المتحدة ٦٦٣٠٠٠ نسمة وهذا أقل بمقدار ٤ ٪ من مجموع عدد السكان، أما الآن فيبلغ عددهم ٤٥ مليون نسمة تقريباً وهذا يعادل ربع عدد السكان في البلاد.

التحول المباشر:

تتكاثر الأنظمة الدينية وتنمو عن طريق التحول المباشـر وهذا يتلو الاختلاط المباشر بين جماعتين خصوصاً عندما تكون الفئة المتحولة أقل ثقافة من الفئة الأخرى. وإن التماس المباشر الذي حصل بين الحضارات الهندية والصينية من جهة وبين الشعوب البسيطة القبلية كان من نتيجة تحضير وتحسن حالة المجتمعات القبلية. وفي كثير من الحالات حدث أن ذابت تلك القبائل في الهيئة الاجتماعية الكبيرة للحضارة السائدة التي استطاع نظامها العرقي الديني إزاحة الدين القبلي والحلول محله. وتقدم الديانات العرقية المتفوقة بعض المغريات للمجتمعات القبلية كالنفوذ والاعتبار والفوائد الاقتصاديـة والأمان الأمر الذي يعمل على إقناع أتباع الديانات القبلية البسيطة على الانحياز إلى الديانات العرقية المتفوقة ونرى أنه حتى الأنظمة الدينية العرقية المعقدة قد اكتسبت أعضاءً جدداً عن طريق التحول المباشر ويؤلف خدم البيوت والزبائن الآخرين المعتمدين اقتصادياً على غيرهم مصدراً عاماً من مصادر التحويل المباشر إلى الديانة الجديدة.

وكذلك تبادل الزواج الذي يجلب صهراً غريباً ويقدمه إلى الحياة الثقافية والدينية للمجتمع ما هو إلا جزء هام من التحويل المباشر إلى الديانة الجديدة أيضاً. ولكن المعلومات حول مثل هذه القضايا قليلة ومتناثرة ويظهر من المدلولات الديموغرافية والإنسانية والوراثية أن الزواج من الأباعد لم يكن شيئاً غريباً عن المجتمع اليهودي. ومن المحتمل أيضاً أن الـزواج من خارج المجتمع اليهودي ومن المجتمعات المسيحية والإسلامية المجاورة كان كثير الحدوث. وفي هذه الأيام انتشرت هذه النزعة في الولايات المتحدة نتيجة لخمود وتلاشي الأنظمة الدينية البالية. أما في إسرائيل فقد أوقفت بسبب صدور قوانين معاكسة صارمة حماية للعنصرية السائدة في فلسطين المحتلة.

إن دور تبادل الزواج بين الشعوب من أديان مختلفة يذكرنا بالعلاقة بين الأنظمة الدينية أنفسها. فالأنظمة العالمية تظهر ميولاً عرقية عندما يمنعون زواج

المؤمن من فتاة غير مؤمنة أو بالعكس. وعلى مدى السنين يخلق هذا المنع شعباً جديداً يمتاز بكونه مجتمعاً عرقياً.

وتنمو وتتزايد الأنظمة الدينية العالمية عن طريق التحول المباشر مع أن ذلك يحدث غالباً عن طريق نشاط البعثات التبشيرية، وعن طريق بعض الأشخاص الذين ينشرون الدين باتباعهم القواعد الحميدة التي تُحبب الغير إليهم وإلى دينهم وكذلك بالإقناع. ولقد اكتسب الإسلام مناطق واسعة. مكتظة بالسكان عن طريق التحويل المباشر المدعوم ببعض النشاطات التبشيرية لأشخاص علمانيين، فقد انتشر الإسلام عن طريق البحر إلى الأراضي المجاورة للمحيط الهندي بهذه الطريقة فقد استوطنت أعداد صغيرة من التجار المسلمين وتبادلوا الزواج في الموانىء التجارية على سواحل بعض الأقطار غير الإسلامية وبمرور الزمن توسعت مجالات نشاطهم التجاري وبالتالي مجالات انتشار الإسلام إلى داخل تلك البلاد. وهكذا نشأت أعداد جديدة من المتحولين إلى الإسلام الذين تابعوا رسالة الإسلام في مناطق أبعد. وإن معظم المسلمين القاطنين على سواحل أندونيسيا والملايو وجنوب جزر الفلبين هم من نتاج مثل هذه العمليات. وقد جرت عمليات مماثلة من التحويل المباشر إلى الإسلام عن طريق طرق القوافل التجارية في الأراضي الجافة الشمالية وخصوصاً في آسيا الوسطى والسودان.

وتتأثر عملية التحويل المباشر بعدة عوامل ثقافية. إذ ربما تأثر النظام الديني وحصل على المقام الأمثل والنفوذ عند تحول الحاكم أو الطبقة الحاكمة إلى ذلك الدين ويسبب انتشار الدين بسرعة. ففي القبائل والمتجمعات البسيطة كان يكفي أن يتحول شيخ القبيلة إلى دين ما، مما يؤثر على القبيلة بأجمعها فيتحول معظم أفرادها إلى ذلك الدين. وهنالك أمثلة حدثت في مناطق الهنود الأمريكيين على يد بعض الأكليروس الاسبان والتي كان تعميد زعماء الهنود الحمر كافياً لدخول الألوف من أتباعهم إلى حظيرة الديانة المسيحية.

وإن نفوذ ومقام الحكام المسلمين سواء الفاتحين أم الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي بعد الفتح، قد ساعد هذا النفوذ في انتشار الإسلام بالتأكيد. وكان هدف الجهاد أو الحروب المقدسة كسب الأعداد الكثيرة من المتحولين إلى الديانة الإسلامية. وقد تحول كثير من المسيحيين والبربر إلى الديانة الإسلامية بعد فتح العرب لشبه جزيرة إيبريا في القرن الثامن الميلادي. ومع أن المسلمين ظلوا أقلية في بلاد الأندلس، إلا أن عدد الاسبان المتحولين إلى الديانة الإسلامية فاق عدد المسلمين العرب أنفسهم وقد تبع فتح بلاد العجم تحول الكثيرين إلى الديانة الإسلامية حيث كانت الديانة الزرداشتية المحلية لا تحظى بالشعبية المناسبة. كانت بلاد البنغال وكشمير من أسرع المتجمعات التي تحولت إلى الدين الإسلامي في الهند بعد فتح المسلمين لتلك البلدان ولكن البراهمة وعلية القوم في ذينك البلدين لم يحذوا حذو الشعب ولم يتحولوا إلى الدين الجديد.

وأما في منطقة الشرق الأوسط، فإن تحول المسيحيين القدامى واليهود والزرداشتيين والمانويين قد حدث بشكلٍ أبطأ فلم يتحول إلا عُشر السكان إلى الديانة الإسلامية بعد مرور (١٥٠) عاماً على نشوء الإسلام. وحالما تأسست الحضارة الإسلامية زاد عدد المتحولين. ولم يأت عام (١٢٥٠) م إلا وقد تحوّل معظم السكان إلى الدين الإسلامي وأما في جاوه فقد تحوّل معظم سكان تلك الجزيرة إلى الدين الإسلامي بعد تلك الخطوة الحاسمة بإقناع النخبة والصفوة من سكان الجزيرة بالتحول إلى الدين الإسلامي وهكذا فتحت طريق التحول أمام بقية الشعب.

وفي الولايات المتحدة عملت العوامل الاجتماعية والثقافية على التأثير في قبول الطوائف للالتزام بشكل واع. فالكنيسة الانجيلية التي يُعتبر أعضاؤها من ذوي المستويات العالية في المجتمع، قد مارست هذه الكنيسة ارتفاعاً سريعاً في عدد أعضائها والمنتسبين إليها خصوصاً في عهد الازدهار الذي تلا الحرب العالمية الثانية حين شمل امتدادها بعض الضواحي التي يسكنها ذوو

الدخل المحدود وقد كان لنفوذ الكنيسة الاجتماعي اليد الطولى في هذا الانتشار.

وإن من حسنات الأنظمة الدينية العالمية وأسباب جذبها أنها تقدم لأعضائها تفسيراً شاملاً للكون ومكان الإنسان فيه. هذا وإن تلك الأديان العالمية أصبحت أكثر جذباً عندما ظهرت هشاشة الأديان القبلية البسيطة وعدم القدرة على الدفاع عنها بسبب تغير العلاقات المكانية بالنسبة لتلك الأديان. فالأشخاص الذين هم في حواشي وأطراف الديانات العالمية لا يلتحقون بتلك الأديان لإظهار شخصياتهم. فالعملية تكون مألوفة عندما يكون أولئك من مجتمع قبلي ويمكن أن تحدث ضمن مجتمع منظم ومعقد كما هو الحال بالنسبة لبعض الفئات الخاصة في الهند والولايات المتحدة في هذه الأيام. ففي الهند الهندوسية كان أفراد الشريحة الاجتماعية من المنبوذين في ولاية ماهارتشترا Maharashtra في غرب الهند يبحثون عن وضع يجعلهم أكثر احتراماً من وضعهم كمنبوذين هندوس وبنفس الوقت كانوا يتجنبون الانتساب إلى الإسلام أو المسيحية. فبدلاً من ذلك وجدوا حلاً باعتناق الديانة البوذية التي لم يكن لها وجود في تلك الولاية لعدة قرون. وفي الولايات المتحدة كان الأمريكيون من أصل أفريقي يبحثون من خلال حركة المسلمين السود لاعتناق الديانة الإسلامية ويرى هؤلاء في الإسلام الدين الموافق لهم أكثر من المسيحية الأمريكية التي يعتبرونها ذات سمة بيضاء عرقية غير جذابة ومكروهة.

وتقوى حركة التحول المباشر عندما يتوقع المتحولون فوائد اقتصادية من مساعدات مالية وتعليم أو توظيف أو فُرص للعمل. وهنالك اصطلاح يقصد به الحط من قيمة الشخص وهو «أرز المسيحيين» ويستعمله الشعب في الشرق في وصف أولئك الذين اعتنقوا الديانة المسيحية لأسباب مادية في المناطق التي يحكمها المسيحيون.

البعثات التبشيرية المنظمة:

لقد استعملت الأديان العالمية مختلف الوسائل لتحقيق أغراضها التبشيرية. ففي البوذية هنالك البيكشو bhikshu أو الراهب وهو عضو في إحدى الفئات المتخصصة بالبوذية وهو الذي يعلم مبادىء الدين للعلمانيين. وهكذا أصبحت منظمات الرهبان الواسعة لصيانة الدين والعامل الرئيسي في انتشاره. ويحتاج النظام الكنسي المسيحي بعض الأكليروس لصيانته. وهؤلاء عبارة عن أشخاص قد حفظوا الطقوس وأصبحوا موجهين لبعض التجمعات الخاصة وأصبحت الطموحات التبشيرية تتحقق من خلال الفاعليات الثانوية. أما في الإسلام فلم يكن هنالك مؤسسات مشيخية من المختصين أبداً، لهذا لم تظهر في الإسلام بعثات تبشيرية ونجد أن هذه الطرق المختلفة قد أثّرت على الطريقة التي انتشر بها كل دين.

وكانت النشاطات البوذية التبشيرية موجهة نحو تأسيس أخوات رهبانية تدعمها مجتمعات علمانية وقد انتقلت هذه التجمعات من المنشأ الذي بدأت فيه في شمال الهند واتخذت طابعاً عالمياً دولياً على يد الأمبراطور البوذي أذوكا Azoka ولكن تعاليم البوذية القديمة وبصورة خاصة بشكلها المدعو تيرافادا Theravada لا تصر على الإعلان اللفظي بالتعهد باعتناق تلك الديانة. ولذلك نرى أن البوذية ظلت دين الأقلية في الهند والصين رغم تأييد كثير من المتنفذين لها، فقد بقيت دون تنظيمات مشيخية مركزية عالية وصادفت صعوبات جمّة في اختراق بعض المناطق المقاومة لها وفي كسب رضا الجمهور في أراض جديدة.

استبدل هذا الدين الطبقي في الهند وحلت محله المؤسسات الشعبية النشيطة للهندوسية البراهمية. ولكن البوذية ظلت الدين الشعبي الناجح في سيلان وبورما وتايلاند، وقد كانت تلك البلاد غير متطورة نسبياً عندما ظهر المبشرون البوذيون هناك وهم يمثلون حملة الحضارة الهندية العالية. وكان من المتوقع أن تحظى البوذية الماهايانية Mahayana بنجاح في اليابان أكثر مما

صادفت في الصين لأن ظهورها في اليابان كان يمثل حضارة التانغ Tang في الصين. ومع ذلك فإن تقدم البوذية وانتشارها في المناطق القبلية الصرفة مثل المناطق المرتفعة في جنوب شرق آسيا كان بطيئاً نسبياً. وسبب ذلك أن النظام البوذي كان عليه الاعتماد على دعم منظمات سياسية واقتصادية معقدة خلاف المؤسسات الموجودة في المجتمعات القبلية.

أما الديانة المانوية فقد تأثرت بالبوذية وكانت تحرص كالبوذية على عدم الزواج بين مجتمعها سعياً وراء كسب أعضاء أشداء متفرغين لنشر الدين.

أما المنظمات الهادفة إلى تحقيق المُثل التبشيرية العليا في الإسلام فهي ضعيفة التطور. وكما هو الحال بالنسبة للمؤسسات الإسلامية الأخرى، فقد ارتبط نشر الدين الإسلامي بالمنظمات السياسية. ومنذ بداية الإسلام ظهر أن الفُرَص لنشر الدين ونموه قد اعتمدت على امتداد واتساع القوة الإسلامية. وقد أخطأ الكثيرون من الكتّاب في وصف هذه السياسة عندما قالوا أن التحويل إلى الديانة الإسلامية قد حدث بحد السيف أي بالإكراه أو الاختيار بين التحول إلى الدين الإسلامي أو الموت والحقيقة أن التحول بالتهديد كان نادراً في الإسلام وأقل بكثير من مثيلاته في الديانة المسيحية وقد منعه القرآن منعاً باتاً.

ولقد كان انتشار الإسلام في البلدان المفتوحة بطيئاً في أول الأمر. فالنشاطات التبشيرية كانت تتألف في أول الأمر من محاولات فردية غير منظمة رافقتها أحياناً تحركات ذات صبغة دينية حماسية. ويعزو المؤرخون المسلمون نجاح الإسلام في البنغال الشرقية وفي بعض أجزاء جزيرة جاوه إلى القداسة والتقوى التي كان يتمتع بها بعض الأشخاص الورعين من المسلمين الذين ذهبوا وعاشوا بين الكُفّار وكسبوا تأييدهم للدين بالطريقة الهندية التقليدية وهي كونهم من أولياء الله العارفين.

وأما الأعمال التبشيرية في الديانة المسيحية فقد كانت منظمة بشكل

عالي التنظيم. ولم تنقطع تلك الأعمال التبشيرية إلا في حالة تعرض الكنيسة للهجوم الشديد أو عندما تصبح الكنيسة وقد اكتسبت صفة عرقية أو طبقية. وهذه حالات شاذة وظروف غير واردة. فقد رأت المسيحية في حدودها المتاخمة بعكس الإسلام مناطق تستحق الجهد لإرسال بعثات تبشيرية، لتحويل السكان فيما وراء تلك الحدود إلى الديانة المسيحية وقد أنيطت تلك المهام بالكنيسة. وتمتاز المحاولات التبشيرية المسيحية بالعمل الدؤوب والتنظيم المركزي والمدى الأرضي العريق.

وفي القرون الأولى مارست الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أعمال التبشير بصورة مباشرة وقد عينت الكنيسة الأساقفة الذين كان من واجباتهم الأولى تحويل البرابرة الشماليين إلى الديانة المسيحية وتقريبهم من المشيخات الدينية. وهكذا كانت طبيعة مهمة الأسقف الروماني أوغسطين الذي ذهب في القرن السادس الميلادي لتحويل شعب (الأنجلز) الوثنيين والسكسون في انجلترة. ولكن حتى في ذلك الزمن الماضي كانت النشاطات التبشيرية الكاثوليكية تتم على يد أخويات ورهبنات مُختصة.

ومنذ القرن الثامن عشر انشأت عدة كنائس بروتستانتية مجالس تبشيرية كان عملها ينحصر في تنظيم تدريب وإرسال الكهنة من كلا العازبين والمتزوجين كمبشرين للنظام البروتستانتي الذي يتبعونه في إحدى المناطق غير المسيحية. والصفة المميزة لهذه المنظمات كانت وفرة الإمدادات المالية التي كان يتلقاها هؤلاء المبشرين من جمهور البلدان التي أرسلتهم.

أما في القرن التاسع عشر فقد خلقت حركة التوسع الأوروبي فيما وراء البحار واستعمار الأراضي غير الأوروبية، بالإضافة إلى تحسين طرق المواصلات، خلقت هذه فُرصاً لا مثيل لها لزيادة النشاطات التبشيرية. ففي عام ١٧٩٢ قام القسيس وليم كاري Carey بالإجابة على التحدي الذي واجه المؤسسات التبشيرية البروتستانتية وذلك بالقيام بإحصاء عدد السكان المعتنقين لجميع الأديان في العالم. ومع أن تقديراته كانت خاطئة إلا أنها لا تخلو من

بعض المُتعة وقد حولنا هذه الأرقام الواردة في الجدول رقم (٢) إلى نسبة مئوية للمقارنة مع الأرقام الحقيقية.

الجدول رقم (٢)

	المعتنقون للدين بالمليون	النسبة المئوية لسكان العالم عام ١٧٩٠	النسبة المئوية لسكان العالم عام ١٩٦٣
الوثنيون	٤٢٠	٥٧,٤	٤٧,٢
المسلمون	١٣٠	١٧,٨	١٤,٠
اليهود	٧	٠,٩	٠,٤
المسيحيون	١٧٤	٢٣,٩	٣٠,٠
الكاثوليك	١٠٠	١٣,٧	١٧,٧
الكنائس الشرقية	٣٠	٤,١	٣,٦
البروتستانت	٤٤	٦,١	٨,٧
شعوب بدون انتماء ديني وهم من أصل مسيحي			٨,٤
المجموع	٧٣١	١٠٠	١٠٠,٠

الجدول رقم (٢) عدد السكان في العالم وانتماؤهم الديني عام ١٧٩٠ (الأرقام بالمليون)

ومع ذلك فإن زيادة عدد المسيحيين وزيادة المساحات الأرضية التي يحتلها المسيحيون التي نتجت من جرّاء الأعمال التبشيرية خلال الـ ١٥٠ عاماً الماضية، ما هي إلا أرقام ضئيلة إذا ما قورنت بنمو وتوسع السكان المسيحيين

من أصل أوروبي. وقد أصبحت الأعمال التبشيرية توجه على مستوى شخصي أكثر منها إلى الفئات الكبيرة كما كان الحال في القرون الماضية. هذا وقد أحجمت الدول الاستعمارية عن مساعدة التبشير والتحويل الإجباري بسبب الميول العلمانية الطارئة في تلك الدول وأصبح التحويل الجماعي للسكان غير الأوروبيين كالذي حدث في أمريكا الأسبانية عملاً من الأعمال التي أصبحت في ذمّة التاريخ.

والحقيقة أنه من بين نصف المليون الهنود في الولايات المتحدة، لا نستطيع أن نعتبر أن نصفهم فقط قد تحولوا إلى الديانة المسيحية رغم الجهود الهائلة التي بذلها كل من الكاثوليك والبروتستانت في هذا السبيل. وفي إفريقية يؤلف المسيحيون حوالي نصف السكان في منطقة نيجيريا ويعتبر هذا نجاحاً للحركات التبشيرية ولكن في غانا وسيراليون (يؤلفون حوالي ١٠ ٪ في غانة) و(٣ ٪ في سيراليون). وفي معظم الأقطار الأسيوية حصلت تعديلات لا بأس بها على التركيب الديني للسكان وذلك على يد النشاطات التبشيرية المسيحية الحديثة. وقد انحصرت هذه التغيرات في قطرين من الأقطار المحاذية لمناطق نفوذ الديانة الصينية العرقية حيث هنالك مزيج من الديانات العرقية المتميزة. وهاتان المنطقتان هما كوريا وفيتنام حيث يؤلف المسيحيون ٥ ٪ و ١٠ ٪ من عدد السكان بالتوالي.

وكانت النشاطات التبشيرية في الولايات المتحدة في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر تنحصر في الداخل وامتازت بحماستها ونجاحها وذلك لأن الكنيسة كانت تفوز بانضمام أعضاء جُدد إلى صفوفها دون مساعدة الدولة. وكانت النشاطات تنحصر في إرجاع أولئك الذين انقطعوا عن المجيء إلى الكنائس وكانت الطوائف التي أحرزت أعظم نجاح خصوصاً في مناطق الحدود هي المعمدانيون والميثودست الذين كانت ايديولوجيتهما وتنظيمهما بشكل أو بآخر تمتازان بالسماح للحماس الديني والارتجال الموفق، بينما كان ذلك مفقوداً من طائفة البرسبيتيرين والـ Congregationa lists. وقد نجح

المعمدانيون والميثودست في تحويل الشعب الزنجي الذي تحرر من العبودية بعد الحرب الأهلية وهذا يمثل تحويل بعض السكان غير الأوروبيين إلى المسيحية تحت ظروف خاصة.

النماذج الجغرافية للتفاعلات ما بين الأديان

إن خريطة العالم الصغيرة للأديان تخفي في ثناياها وجود بعض الأديان للأقليات ضمن المناطق الجغرافية الكبرى وتخفي التمازج المشترك للمجتمعات الدينية في مناطق الانتقال وهذه العمليات والنماذج التي تظهر في الخرائط الكبرى ما هي إلا منتوجات العمليات المذكورة آنفاً وهي خاضعة للطرق المختلفة التي تتفاعل بها الأديان بعضها بعضاً.

وتمتاز التفاعلات بين الأنظمة الدينية بوجود ثلاثة أنواع:

(١) التعايش السلمي المشترك (٢) عدم الاستقرار مع المنافسة (٣) عدم التسامح والنبذ وعند النظر في هذه الأنواع يجب أن لا يغيب عن بالنا أن نماذج السلوك المعروضة ليست هي من نتائج المفاهيم الدينية. إذ ربما تنتج عن ممارسات وخبرات تاريخية طويلة الأمد التي تعيش في ذاكرة الشعوب ذات العلاقة حتى ولو كانت المعتقدات الدينية والممارسات الدينية قد انخفضت أسهمها.

التعايش السلمي:

يُقصد بالتعايش السلمي التوازن المصحوب بالشعور المشترك المتبادل بالاحترام وعدم المبالاة والعطف والتعاطف. فالأنظمة العرقية البسيطة وغيرها من الأنظمة المعقدة، ولكونها مرتبطة بروابط وثيقة بالقبيلة، والمكان لا تهتم كثيراً بالمعتقدات والممارسات التي تقوم بها الأنظمة الأخرى وهذا هو نموذج من نماذج العلاقات بين الطبقات الهندوسية المنغلقة. وإن هنالك تسامح متبادل بالنسبة للتشريعات الدينية للطبقة أو القوانين الأخلاقية وذلك لأن تلك

الطبقات عبارة عن طبقات منغلقة. ولهذا فإن التسامح هو الذي يميِّز العلاقات الهندوسية عن الأنظمة الدينية الأخرى. وإن الخروج عن هذه القاعدة كان سبباً في حدوث تفاعلات معاكسة سببتها بعض الأديان الأخرى.

وعلى العموم نجد أن الأنظمة الدينية الشرقية بما فيها الأنظمة البوذية العالمية تعتبر من الأديان المتسامحة فالعمليات القمعية لإخماد جذوة البوذية في الصين التي بدأت في القرن التاسع الميلادي، لم تكن تشبه أبداً الاضطهادات الدينية التي كانت شائعة في تاريخ أوروبا الغربية. ففي أثناء فترة الاضطهاد والتعذيب التي قام بها الصينيون ضد الطائفة الماهايانية البوذية، وفي أثناء فترة الاضطهاد والتعذيب الذي قام به اليابانيون ضد المسيحيين في القرن السابع عشر وفي أثناء طرد الجوزويت وإرسالياتهم التبشيرية في الصين عام ١٧٠٦ لم تُثر أبداً قضية صحة أو بطلان المعتقدات الدينية. فقد اعتبرت الحكومة الصينية حينذاك وجود الأديرة البوذية غير المنتجة في الأراضي الصينية مصدراً من مصادر الضغط على الموارد والثروة الوطنية وبالتالي خطراً على توازن الدولة. وبنفس الطريقة كان اضطهاد الكنائس المسيحية في اليابان سببه تحدي هذه الكنائس للسلطة والدولة.

إن أسلوب التسامح الديني الذي يتخلل العالم الشرقي قد أجبر الكثيرين لاتخاذ انتمائين دينيين أو أكثر. ففي أقطار الشرق الأوسط يحضر الناس الاحتفالات الدينية في معابد تخص عدة أنظمة دينية مختلفة. وفي عدة مناسبات في السنة يشترك الصيني في طقوس تقوم بها الفئات البوذية والكونفوشوسية والطاوية وبعض الأديان الأخرى الشعبية. فعناصر الأديان الشرقية توجد في مزيج متحد ثقافياً خلال المنظمة بأكملها. (الشكل ٩ أ) وفي اليابان ليس هنالك من أماكن محددة يسكنها ويتوزع فيها البوذيون وطبقات الشنتو كما هو الحال بالنسبة لتوزيع البروتستانت والكاثوليك في أوروبا أو الشيعة المسلمين بالنسبة للسُنّة في الشرق الأوسط.

كانت ازدواجية الانتماء الديني شائعة أيضاً في العالم اليوناني الروماني.

فقد كان منافسو المسيحية من الأديان الشعبية ذات الأسرار لا يطالبون بممارسات خاصة مقصورة على أديانهم ولا بإيمان مقصور عليهم فقط. بينما نجد المسيحيين يصرُّون على الإيمان المقصور عليهم الأمر الذي أدخل مفاهيم جديدة إلى إيديولوجية الأنظمة العالمية. وقد ظهر أن هذه المفاهيم قد عززت المسيحية ببعض القوى التكتيكية.

وهنالك شكل من التعايش السلمي بين الأديان قد ميَّز الحياة في الشرق الأوسط ونعني بهذا إعلان الأتراك عن فكرة (ألملة) وكلمة الملّة هي كلمة عربية تركية يعني بها المجتمع الديني وهي عبارة عن وجود وكينونة قانونية شرعية في الأمبراطورية العثمانية ذات استقلالية فعلية في الشؤون الدينية والاجتماعية. وكانت كل (ملّة) تمتلك زعيماً دينياً مسؤولاً لدى الدولة عن دفع الضرائب وتطبيق النظام على يد الشعب في مجتمعه. وفي المدن كانت الملة تعيش ضمن أمكنة محددة غالباً ما تُحيط بها الأسوار والبوابات كما هي الحال في الاسكندرية وأنطاكية واسطنبول (الشكل ٩ ب) وكان اليهود واليونان الأرثوذكس والأرمن والكاثوليك والموارنة المسيحيين وغيرها من الفئات غير الإسلامية تتمتع بوضع الملّة القانوني وكان المسلمون غير السنيين يعاملون أيضاً بشكل (ملّة) ويعيشون في أحياء خاصّة. ولما كانت هذه المجتمعات مقصورة على فئات قيادية في الشؤون الدينية، لذلك لم يكن تعايشهم السلمي النسبي مصحوباً بالخصائص الاصطفائية للشرق الأوسط ولكنها كانت رغم العزل والفصل مكانياً تمتاز بوجود الاستقلال السياسي والاقتصادي المتبادل. وكان التوازن والانسجام بين المجتمعات شبه المستقلة يتم بواسطة قوة الشرطة في الدولة، والتي كانت من المسلمين السنيين. فالأنظمة الدينية الأخرى كانت تعتبر أقل شأناً ولا يجوز لأفرادها دخول سلك الشرطة. أما من وجهة اقتصادية فكان هنالك بعض المجتمعات الأفضل حالاً من السنيين اقتصادياً ولم يَخلُ الأمر من وجود بعض الملل التي حازت على امتيازات اقتصادية خاصة وهكذا أصبح التعايش السلمي معها في المدن أمراً مرغوباً فيه.

وهنالك حالة خاصة من قضية ازدواج الملة وهي حالة الغيتو اليهودي في أوروبا الغربية تلك الحالة التي كانت قد بدأت بسبب الميول للعزل والفصل بالنسبة للمجتمعات الدينية وهي تكمن فيما وراء الترتيبات المكانية لنظام الملّة العثماني. ومع ذلك فإن الانعزال الطوعي يتميز عن الحصر بالقوة الذي امتازت به الأنظمة التي كانت مُتبعة في أوروبا ابتداءاً من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ومع ذلك فقد كانت مجتمعات الغيتو اليهودية معرّضة في البلدان المسيحية للخطر وفقدان الأمن أكثر من الملل اليهودية والمسيحية في الأراضي الإسلامية. وبالإضافة إلى حافز تجنب التلويث كانت هنالك ميول خاصة بين المجتمعات الدينية تعمل بشكل أدوات قوية لإقرار العزل أو الفصل. ويظهر الكاثوليك والبروتستانت هذه الميول في مدن إيرلنده الشمالية فالانفصال ملاحظ عادةً ضمن طبقات العمال في بلفاست والتي هي إمّا بروتستانتية صحيحة أو كاثوليكية صحيحة.

ولقد زاد نظام (الملل) القوة الداخلية للمؤسسات الكنسية لكل مجتمع ديني وهكذا بعث فيهم بعض الحماس في داخل الأنظمة الراكدة ففي المجتمعات الدينية اللبنانية السورية يعتبر المطران ذا القرار الحاسم حول قضايا الزواج والإرث والأملاك والقضاء وقلما تحدَّى أحد سلطته بالالتجاء إلى المحاكم، وهنالك وجه آخر من أوجه هذا النظام وهو الفتوة السياسية لبعض زعماء المنظمات الدينية مثل المطران مكاريوس في قبرص.

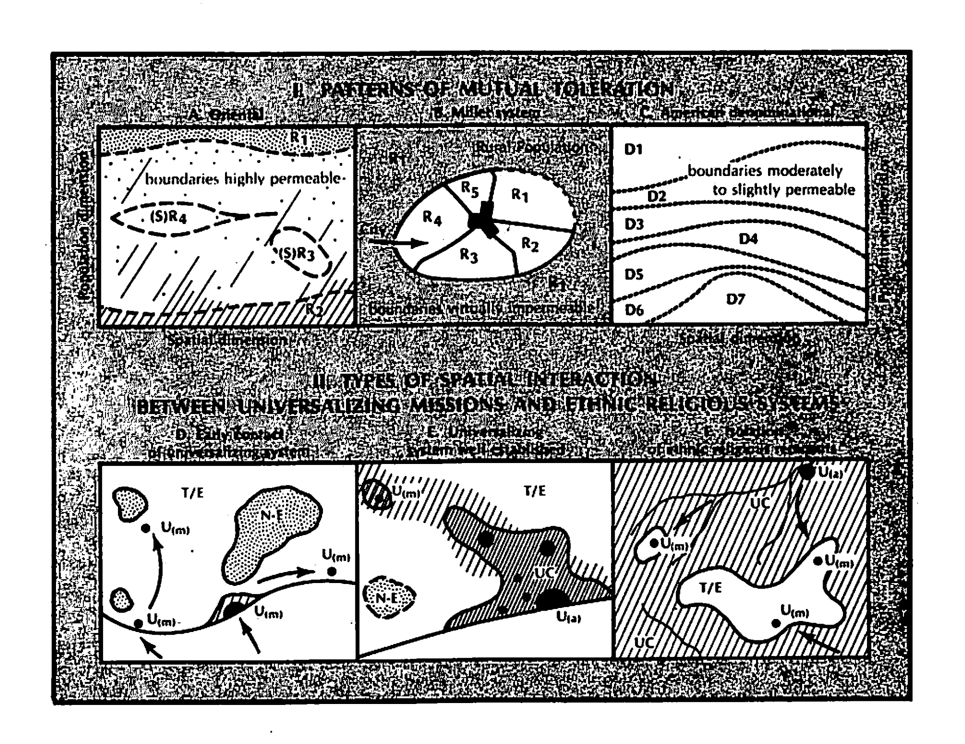
وهنالك نوع آخر من التعايش السلمي بين الأنظمة الدينية وهو موجود تحت رعاية الدولة وخصوصاً عندما لا توجد كنيسة رسمية معترف بها أو سائدة نظراً لتزايد عدد الأعضاء العاملين فيها. وتمثل الولايات المتحدة هذه الحالة التي سببت ظهور الطوائف فهي تعلن مسؤوليتها المحددة بالنسبة لخير ومصلحة أعضائها بينما تترك جميع ميادين وشؤون الحياة الأخرى للمجتمع والدولة. وفوق ذلك فالبروتستانتية هي واحدة من عدة أنظمة دينية ثانوية تملك كل منها دوراً مقبولاً وتعترف كل منها بأدوار الآخرين.

وهكـذا فقد رسخت هـذه الأفكار في عقـول الأمـريكيين حتى أن الكاثوليك يميلون للاعتقاد أن كنيستهم ما هي إلا طائفة تعيش جنباً إلى جنب مع الطوائف الأخرى في تناغم وتناسق يتناسب مع الحياة الأمريكية.

إن الظروف التي أحاطت بقيام هذه الطوائف المعقدة الثانوية تشمل عناصر كثيرة مثلاً تعدد الانتماء الاقليمي في فترة الاستعمار وعدم وجود كنيسة رسمية زمن تأسيس الدولة وطبيعة الشعب المتحركة مكانياً واجتماعياً وتعدد الكنائس التي وجدت عند حدوث موجة الهجرة من أوروبا إلى أمريكا في القرن التاسع عشر وقد حدث نتيجة لذلك نقص أو لنقل نضوب في الميول للمعتقدات الدينية بالمقارنة مع الحالة غير المستقرة والمقلقلة في السنوات الثمانين الأولى لتأسيس تلك الدولة. ولهذا فقد نمت طـوائف جديـدة: المورمون، الجيوهوفا والوتنس Witnesses الخ. وهذه قد أصبح لها أتباعها ومعتنقوها في المجتمعات المسيحية الأخرى.

ولقد ظهرت علاقات مكانية مميزة في الوضع الأمريكي ولكن لم يظهر أي تفوق لأي مجتمع ديني هناك ولكن ظهرت بوادر الرغبة في الاتحاد بين الطوائف المختلفة (الشكل ٩ جـ) وهؤلاء يؤلفون حوالي ٥٠ ٪ من مجموع الطوائف.

إن التطور الطائفي في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر قد امتاز بوجود ظاهرة الانقسام والانشطار النشيط وقد حصلت حركة رد فعل لهذا الانقسام تتسم بإعادة تنظيم وتجميع الفئات الدينية ووضعها في أنظمة دينية كبيرة وهو ما يدعى (بالعمل المسكوني) ولكن لم يظهر حتى الآن سوى اندماج لبعض الطوائف وخلق نوع من التعاون والاتحاد بين المنظمات الدينية أكثر من ترميم تام لأي من الأنظمة الدينية الثانوية وكان لبعض أنواع هذه الاندماجات حوافز عملية: كالتأثير على الاقتصاديات وإحراز ما يمكن أن نصفه بالتضامن بين الطبقات ونبذ الأفكار العرقية التي ساهمت في تفريق الفئات الدينية وانفصالها سابقاً.



الشكل (٩) نموذج من التفاعلات بين الأديان

وتشير المسكونية في نطاقها الواسع لحركة تهدف إلى التعاون الواسع فيما بين الأنظمة الدينية المسيحية التي شعرت بالحاجة إلى التعاون والعمل معاً في الشؤون التبشيرية. وقد تبع ذلك إيجاد مجلس الكنائس العالمي وهو عبارة عن جمعية تضم كثيراً من الفئات المسيحية بالإضافة إلى بعض الكنائس الأورثوذكسية الشرقية. وهذه الجمعية لا تلزم أعضاءها بالاتحاد. وتعمل الجمعيات المسكونية من هذا النوع على ربط الفروع الوطنية للطوائف البروتستانتية مثل البريسبتارية. وإن إضفاء صفة المسكونية أو العالمية على

هذه الحركات لم يظهر أية إشارات تدل على تطور مظهر الرؤية أو امتداد الجذور العميقة ضمن الكتل الدينية التي تمثلها هذه الحركات.

هذا ولقد أظهرت الكنيسة الكاثوليكية اهتماماً بالحركة المسكونية ونفذت برامجها حسب شروط تلك الحركة وكان أول مجمع مسكوني فاتيكان II عقدته قد حصر اهتماماته في الشؤون الداخلية للكنيسة ثم حصلت مجادلات حول علاقات الكنيسة مع غيرها من النظم الدينية مثلاً مناقشة قضية إمكانية توحيد العبادة وطقوسها مع البروتستانت تحت ظروف خاصة.

المنافسات وعدم الاستقرار:

هنالك نوع آخر من التفاعلات فيما بين الأنظمة الدينية وهو المناقشات التي يتميز بها أحد الأنظمة بالضعف وعدم الاستقرار. وترافقت عمليات التحويل المباشرة بمثل هذه الأحوال. وقد سبب التوسع الأوربي ابتداء من القرن الخامس عشر فصاعداً تماساً واحتكاكاً مباشراً مع عدة أنظمة دينية أخرى وفي احتكاكها مع المسيحية أظهرت الأديان العرقية البسيطة منتهى الضعف والعجز وعدم الاستقرار. وإن هذا العجز ينقص عندما يبدأ احتكاك المسيحيين بالنظام العرقي الهندي والأنظمة العرقية في شرقي آسيا والبوذية ويختفي لدى الاحتكاك مع الإسلام.

وفي خارج نطاق النزاع القديم ما بين الإسلام والمسيحية (الشكل ٥) لم يحدث كثير من التحول بين المسلمين إلى الديانة المسيحية ولا العكس، ومع ذلك فإن هذين النظامين الدينيين ظلا في تنافس مستمر نشيط كنتيجة لاحتكاكهما بالأديان الأخرى وبصورة رئيسية الأديان القبلية البسيطة في أندونيسيا والهند وإفريقية. وفي إفريقية سبب امتصاص الإسلام والمسيحية للأديان القبلية البسيطة حدوث الاحتكاك فيما بين هذين النظامين العالميين على طول جبهة من حدود غابات السافانا جنوباً إلى الصحراء الكبرى وقد نتج عن هذا الاحتكاك كما حدث في إقليم جزر الملايو نوع من التوتر السياسي.

كان على المسيحية أن تتكيف طبقاً للعلاقات السياسية والاقتصادية المختلفة بين الشرق والغرب في نضالها مع الأديان الشرقية كما يظهر من استعمال عدة سياسات استراتيجية تبشيرية في مواجهة تلك الأديان. وقد جرت العادة قبل فترة الانقلاب الصناعي في أوروبا اتباع استراتيجية موقتة بالنسبة للتبشير وهي التبشير للمتنفذين وعلية القوم من رجال الحضارات القديمة في الشرق طبقاً لتقاليدهم وممارساتهم. ولكن أوقفت تلك العادة وذلك لإحجام السلطات الكنسية عن الموافقة على إلباس الثقافة الأوروبية المتعاظمة لباساً شرقياً أسيوياً على حساب المسيحية. ومع ذلك فقد كانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية أكثر مرونة في تقبل التعديلات الثقافية للممارسات الأوروبية المسيحية كاستراتيجية تبشيرية من الطوائف البروتستانتية التي كانت تعتبر أقل تزمُتاً من الكاثوليكية.

ثم بدأ المبشرون في اتباع استراتيجية مختلفة وهي تركيز الجهود على المستويات الاجتماعية والاقتصادية الضعيفة ولكن هذه السياسة لم تَخْلُ من بعض المساوىء. ففي الهند مثلاً سمحت الطبيعة المقلقلة للمجتمع للمبشرين بإحراز نجاحات كاسحة في التحويل إلى الديانة المسيحية في ما بين الطبقات المسحوقة اجتماعياً وثقافياً ولكن هذا النجاح بين الطبقات المسحوقة أعاق النجاح بين المستويات العالية التي شعرت أن هذا الدين مناسب للطبقات المسحوقة وغير مناسب للطبقات العالية.

أما في الصين فقد كان ارتباط المسيحية بالغرب، عاملاً على إعاقة عمل المبشرين. ولقد حدثت استثناءات بالنسبة لظاهرة الخوف من الأجانب ومقاومة المسيحية تبعاً لذلك، بين طبقة من الرجال الجدد الذين كانت لديهم علاقات تجارية وعلاقات عمل وعلاقات سياسية مع الغرب فلم يهتموا بالحفاظ على الأنظمة القديمة. وقد بدأ العجز الديني وعدم القدرة على المقاومة بين الصينيين واليابانيين الذين تعرضوا للتبشير بالمسيحية خارج أوطانهم. ففي الولايات المتحدة كان حوالي خُمس الجيل الأول الياباني

وحوالي نصف الجيل الثاني قد تحولوا إلى المسيحية في عام ١٩٣١. مع أنه وحتى في عام ١٩٥٠ لم يتحول سوى ٧ إلى ٨٪ من الصينيين القاطنين في الولايات المتحدة إلى الديانة المسيحية.

ولقد استخدمت واستغلت البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية وبنجاح، حالات عدم الاستقرار الاقتصادي، كما يبدو في الفروق ما بين الشعب البرازيلي الفقير وما بين الطبقات البرازيلية الغنية والطبقات الغنية في أمريكا الشمالية بصورة عامة. فهنالك حوالي أربعة ملايين نسمة من البروتستانت في البرازيل التي تعتبر بلاداً كاثوليكية ومعظم هؤلاء البروتستانت من الطبقات الدنيا المسحوقة مع وجود بعض المتحولين من الطبقة الوسطى في المدن وكانت إحدى نتائج تحولهم إلى البروتستانتية هو تبدل حالتهم بالنسبة لوجهة النظر العالمية فضلاً عن ازدياد ثقافتهم ومحوهم الأمية وهكذا بدأت الطبقات الدنيا المسحوقة ترتفع لتصبح في عداد الطبقة الوسطى.

وتساعد النزاعات السياسية على بذر بذور عدم الاستقرار الديني في المناطق التي تسود فيها الأنظمة العرقية الدينية وقد كان نجاح المسيحية الموقت في اليابان في القرن السادس عشر معزواً للتوتر الذي كان سائداً بين الحكومة المركزية والولايات الجنوبية حيث تقدمت المسيحية بسرعة وبنجاح. ولكن بعد أن نجحت الحكومة المركزية في القضاء على البلبلة التي كانت سائدة في الولايات الجنوبية، بدأت في محاولة لمحو المسيحية نظراً لأنها كانت مساهمة في حركة البلبلة والفُرقة.

وإن التفاعلات التي تسبب عدم الاستقرار في أي نظام ديني، لا ينتج عنها دوماً انتقال علني من الولاء الديني بل تحول مُقنع مخفي. إذ يمكن أن يتبنى الناس عناصر كثيرة من نظام الدين الغريب ولكن ليس الدين ككل. وإن مقاومة تغيير الهوية الدينية يرافقه عادة بعض المثاليات العرقية أو شبه العرقية وكراهية فطرية للنظام الآخر بسبب التجارب التاريخية فالهنود الأمريكيون الذين اختاروا الدين البيتوني Peytism أو دين المخدرات وفضلوه على الديانة

المسيحية، إنما فعلوا ذلك لأن المسيحية تقترن باسم البيض الممقوت لدى الهنود الأمريكيين وإن مقاومة اليهودية للمسيحية في الأزمنة الحديثة يتفق مع نفس المقولة، مع أن اليهودية في أمريكا قد تأثرت إلى حد كبير بالبروتستانتية وتماسها معها فقد ألغى اليهود بعض الطقوس واستعمال اللغة العبرية وهذا نتيجة لذلك التفاعل.

ويحدث عكس ذلك عندما يتكون هنالك تحول سريع أو اسمي إلى دين عالمي خصوصاً عندما يكون ذلك التحول مصحوباً بالتهديد باستعمال القوة. عندها يتحول الناس إلى الدين الجديد ولكنهم يظلون محتفظين سرًّا بالدين القديم. ويمكن المحافظة على التوازن بين الدينين بحيث لا يحدث تحول عميق في الأفكار والقيم الدينية. ففي جاوه حدثت تغطية على الدين القومي للشعب بغشاء رقيق بـالدين الإسـلامي وفي الهند تغيـرت بعض الأخلاقيات الاجتماعية المسيحية والإسلامية بناء على إصرار بعض الطبقات المنغلقة في المجتمع الهندي. وفي أمريكا اللاتينية أذعن الكاثوليك ولم يطبقوا أعمال محاكم التفتيش على الهنود هناك وقد كان هؤلاء مسيحيين إسمياً.

إن إحدى نتائج التفاعل على طول جبهة موصوفة بعـدم الاستقرار والضعف هي نشوء أديان جديدة فالديانة السيخية ما هي إلا تبلور التفاعلات ما بين الإسلام والبوذية. وقد ظهرت أشكال جديدة على طول جبهة المواجهة ما بين المسيحية (أو نظام الغرب الحضاري المسيحي) وبين الأنظمة الدينية في المشرق. وبين هذه الأشكال يقف دين المخلص الذي بشّر بها المتمردون في Taping في منتصف القرن التاسع عشر وكذلك الكاوية في جنوب فيتنام ودين الشندوكوي وهو دين كوري بدأ به أحد المبشرين الكاثوليـك عام ١٨٥٩.

وفي مجال المواجهة ما بين المسيحية والأديان العرقية البسيطة نجد أحد ردود الفعل التي تحدث في الأديان العرقية وهو التشديد على التحول وهذا

الأمر ربما يصادف نجاحاً في إنشاء الاستقرار برهة من الزمن كما حصل بين الهوبي Hopi وأحياناً تحدث حركات وتنبؤات للخلاص. ويشعر المتحولون إلى الأديان العالمية بشعور الخسارة ذلك الشعور الذي يسبق تحولهم ولكن التحول إلى الديانة المسيحية لا يؤلف شعوراً جذاباً، إذ يبدو أنه من الصعب أو ربما من المستحيل إحراز شخصية اجتماعية واقتصادية مرموقة مع ممثلي الديانة المسيحية.

وبينما نرى الميسيانية Messianic ومذهب (النبي المخلص) تمثلان رد فعل محلي على الضغط الذي مارسته الحضارة المسيحية على الأديان البسيطة، إلا أننا نرى أن بعض عناصر هذه المذاهب والأديان قد انتشرت انتشاراً واسعاً. وهنالك بعض السمات الظاهرة ضمن منطقة ثقافية عريضة مثلاً المنطقة الغربية من الولايات المتحدة وغربي أفريقية وجنوب أفريقية وماليزيا وتظهر في كل من هذه المناطق عناصر خاصة مميزة مثل «رقصة الشيطان» لدى الهنود في شمال أمريكا وحمولة الأشياء الطيبة التي ينتظرها الميلانيزيون، خصوصاً في ايديولوجية وأساطير الأديان في تلك المناطق. وقد ظهرت أسطورة الحمولة الطيبة في أماكن مختلفة على السواحل القليلة السكان في مالينيزيا وسلاسل الجزر هناك.

وإن توزيع حركات «النبي المخلص» التي ظهرت بين شرائح معينة لمجتمع بسيط موزع تحت الحكم الاستعماري، تعبر عن النماذج الجغرافية المرافقة لجبهة التفاعلات بين الأنظمة الدينية. (الشكل ٩/ د) وتميل المؤسسات التبشيرية عندئذٍ لخلق نموذج من الخلايا النووية التي لها امتدادات بشكل أصابع اليد مع وجود شبه ظل لالتحام بسيط حول المراكز الوسطية (الشكل ٩/ E) وإن خريطة المسيحية في جنوب آسيا هي خير مثال على هذا النموذج. وفي مرحلة متقدمة من مراحل التفاعل تلتحم النوى ويعبر عن الجبهة بنماذج ممزقة من الدين الذي أصبح في موقف الانسحاب والانحسار مع وجود بعض جيوب للمقاومة هنا وهناك (الشكل ٩/F) وترى

مثل هذه الصورة في أي خريطة مكبرة لوسط جنوب أمريكا التي تظهر وضع التقدم والنجاح الكاثوليكي ضد الأديان البسيطة للشعب الهندي.

عدم التسامح:

تؤلف ممارسة التعصب الديني النوع العام الثالث للتفاعلات فيما بين الأنظمة الدينية. وبينما نرى أن الأنظمة الدينية الشرقية كان يتخللها بعض مواقف عدم التسامح أو عدم المبالاة بالنسبة للأديان الأخرى، إلا أننا نرى أن كل دين من أديان العالم القديم: اليهودية والمسيحية والإسلام، قد أظهرت العداوة والبغضاء تجاه جميع الأديان الأخرى. وقد خلق هذا الموقف فئات بين الأنصار والموالين للأنظمة الدينية الشرقية. وإن النضالية والروح القتالية التي أظهرها السيخ والهندوس في البنجاب ما هي إلا رد فعل لنضالية الإسلام هناك. كما كانت الروح العدائية السياسية الأخيرة للبوذيين في جنوب فيتنام مناظرة ومساوية للتعبيرات السياسية الحماسية التي أطلقتها الفئات المسيحية. وهكذا فإن سجل التعصب الديني في كثير من البلدان كان سجلاً طويلاً وموحشاً وغالباً ما كان مُريعاً ومخيفاً ينطبق عليه ما قاله لوكريتوس: «كم من شرور قد أثيرت باسم الدين».

وحيث تستعمل القوة لدعم الدين تُظهر خريطة الأديان نموذجاً من الكتل المتجانسة مع وجود حدود بارزة تميز مدى سلطة ونفوذ القوى الدينية المختلفة. وحتى وبعد أن خفت حدة التعصب الديني القديم نجد أن الانتقال الجغرافي الفجائي من هيمنة أحد الأنظمة الدينية إلى دين آخر يشمل في معظم الظروف حالات من التصلب والعناد.

إن طبيعة الأديان العرقية البسيطة تكون بشكل لا يسمح بوجود أي نوع من التسامح. وقد ظهر نوع من التعصب وعدم التسامح الديني في العلاقات فيما بين الأنظمة الدينية القديمة التي كان مصيرها يتوقف على نتائج الحروب. ففي أقطار الشرق الأوسط القديمة كانت الآلهة القديمة تستلم

نصيبها من الإذلال كنتيجة لاستيلاء الجيوش الأجنبية على بلادها. وعندها كان أتباعها ومعتنقوها يهجرونها ويبادرون إلى عبادة الآلهة الجديدة العرقية المنتصرة. ولكن كراهية الحروب وسفك الدماء في شمال الهند حيث كان نفوذ البوذية طاغياً، حكم على الفتوحات واستعمال القوة ودحضه واعتبره واسطة لنشر الدين الجديد وهكذا تغلغلت هذه الفكرة في معظم أقطار آسيا الجنوبية والشرقية.

يظهر الشيء القليل من هذا الموقف الشرقي في ايديولوجية الأديان الغربية العالمية. وذلك لأن فكرة النضال الخارجي ما بين القوى المتصارعة (الخير والشر) لها جذورها البابلية ولكنها ظهرت بوضوح في الديانة الزرداشتية التي أثّرت بدورها على اليهود في عهود ما بعد النفي. ويميل المؤرخ تونبي Toynbee للاعتقاد أن عناصر التعصب وعدم التسامح في المسيحية التي توجد بشكل أقل في الإسلام ما هي إلا مظاهر كانت موجودة في اليهود في فترة ما قبل المسيحية. وسواء كانت اليهودية قد تأثرت على هذا الصعيد بوجهات نظر العالم الفارسي أم لم تتأثر، إلا أن مظاهرها التعصبية تبدو بأنها امتداد لفكرة مختلفة وهذه الفكرة تقول أنه يجب فصل الشيء المقدس عن الشيء المدنس وخصوصاً في الأوضاع المكانيّة.

وإن العلاقات المكانية الناتجة عن الإصرار على هذا الفصل يمكن رؤيتها على مقياس ضيق في مجتمع الطبقات المنغلقة في الهند فالبراهمي الصميم يسعى لفصل الطبقات المنغلقة النجسة وإبعادها عن بيته أو عن الحي الذي يسكنه في القرية، وقد حدث في جنوب الهند أن كان المنبوذون وهم من أحط طبقات المجتمع لا يطلب منهم المعيشة في مكان قصي في القرية فحسب بل يجب أن يبتعدوا عن الأمكنة التي تسكنها الطبقات العليا وأن يأخذوا الماء من بئر منفصل خاص بهم، والأنكى أنه كان يطلب منهم أن يتنحوا عن الطريق التي يسكنها هؤلاء أو حتى أن يغيبوا عن أنظارهم. وفي فلسطين في فترة العهد القديم كان اليهود ينظرون إلى الأديان الأخرى بنفس

تلك النظرة ويعتبرونهم مدنسين ونجسين كهؤلاء. وهكذا قضى اليهود عليهم بالإبادة من الأرض التي يعتبرونها مقدسة. وعندما فشلوا في إبادتهم قرروا تجنبهم وحرمانهم. وإن مثل هذه العلاقات بين الأديان القديمة تدعو لعدم الارتياح وهي التي تجسدت في ايديولوجية المسيحية العالمية وكان لها نتائج وخيمة العاقبة قاسى منها اليهود أنفسهم.

ولقد استعمل الزرادشتيون الحكام في بلاد فارس القوة السياسية لفرض نظامهم الديني على رعاياهم ونجحوا في تأمين سيادة ذلك الدين ضمن حدود دولتهم. وقد تمتعت الديانة المسيحية بنفس هذا النوع من النجاح بعد أن فُرضت كديانة رسمية في الأمبراطورية الرومانية بعد أن كانت دين الأقلية، وذلك في القرن الرابع الميلادي. وهكذا انتهى عهد التعايش السلمي للأنظمة الدينية المتنافسة وذلك بنشوء مجتمع ديني عالمي لم يَر معتنقوه رسالته قابلة للتطبيق لدى جميع أفراد البشرية فحسب بل بالإضافة لذلك رأوا أنفسهم شعباً مُميّزاً معادياً للأديان الأخرى وأعلنوا أن دينهم هو الحق وأن عليهم التخلص من الأديان المنافسة.

إن استعمال الضغط السياسي للتغلب على الأديان المنافسة قد صحبه إبادة وتحطيم الديانات الأخرى عن طريق الفتوحات وامتداد السيطرة السياسية بما فيها التحول عن طريق مختلف وسائل الضغط.

وقد قام المسيحيون بإعداد عدة حملات استعمل فيها العنف ضد الأديان الأخرى وضد المذاهب الهرطقية التي ظهرت في داخل البلاد المسيحية. ولم يكن هنالك في البداية أي تعايش سلمي بين الطوائف والذي أصبح سائداً الآن في أمريكا. ففي ولاية أنكلترة الجديدة البيوريتانية حصلت ممارسات تعصبية من عدم التسامح واستخدمت قوة الشرطة في الولاية لمهاجمة الانحرافات الدينية. ولم يؤسس مذهب الحرية الدينية للفرد حتى عام ١٦٦٣ في المستعمرات الشمالية عندما أسس روجر ويليامز المزرعة الاقتصادية في ما يدعى الآن رود آيليند Rhode Island.

وإن توسيع الإسلام لأملاكه عن طريق الجهاد ضد الكفار يتبع تلك السياسة التي أعلنت والتقاليد الإسلامية. فهنالك دار الإسلام ودار الحرب أي الميدان الذي على المسلمين أن يجاهدوا به ولقد تغلغلت الجيوش الإسلامية في الأراضي المسيحية والزرادشتية في الشرق الأوسط ولكن الشعوب المغلوبة سمح لها بمزاولة أديانها بحرية باعتبارها مجتمعات خاضعة للإسلام والحقيقة أن التعصب كان قليلاً ضد (أصحاب الكتاب) من غير المسلمين وقد سُمح للمسيحيين باحتلال أرفع المناصب.

وهنالك وجه آخر من وجوه آثار ونتائج التوسع العسكري الدائمة. وهذا ينحصر في فتح المسلمين للهند عن طريق تتابع الغزوات الإسلامية التي دخلت إلى أقصى حدتها في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي. وكما حدث في وقت سابق في الشرق الأوسط استفاد النخبة والمتنفذون من العرب قبل الإسلام أكثر مما استفاد أمثالهم من المسيحيين بعد الانتصارات المسيحية في القرن السادس عشر. ففي جنوب شرق آسيا انتصر الإسلام دون حملات عسكرية. وهنالك انتعش مفهوم الجهاد بشكل متقطع عندما اخترقت الجيوش

الغربية المسيحية العالم الإسلامي في القرن السادس عشر. وقد حدثت مصادمات في البحار ما بين البرتغاليين والمسلمين في الملايو وكان لهذه الاصطدامات طبيعة حرب العصابات والمناوشات في حرب دينية وقد كان كل فريق يتهم الآخر بأنه ملعون بسبب اختلافهما الديني. وفي جنوب الصحراء الكبرى كانت الشعوب الإسلامية من الإفريقيين مثل شعب الفولاني Fulani يثيرون حروب الجهاد ضد الإفريقيين الوثنيين.

لا تزال مظاهر الكراهية الدينية التاريخية تفسد الإنسانية في هذا القرن. إذ مع أن التمايز الديني عنصر من عناصر التفريق الثقافي، إلا أنه في بعض الحالات أساس المنازعات لدى الدول التي تبغي إثبات هويتها وشخصيتها الوطنية على أسس وخصائص ثقافية متجانسة وإن تلك الحوادث التي حدثت في القرن العشرين كتقسيم ايرلندة واقتلاع واستئصال الشعب الأرمني المسيحي من وطنه وأراضيه في تركيا وطرد اليونان من تركيا وتقسيم الهند وتشريد الملايين كنتيجة لذلك ومشكلة قبرص المزمنة ونشوء إسرائيل وتشريد عرب فلسطين وقضية كشمير وسيلان وفيتنام كلها تظهر أن الايديولوجيات الوطنية لم تستطع تحمل الاختلافات الدينية. فالفكرة القومية التي ظهرت في الغرب قد ورثت التعصب الديني وعدم التسامح الغربي بأقصى مظاهره.

ديناميكية الأنظمة الدينية العالمية

إذا قارنا مراحل نمو الأديان العالمية الثلاثة تظهر لنا عدة قضايا واستنتاجات حول الديناميكية النسبية التي ترافق تقنيات التوسع المختلفة وأشكال التفاعلات مع الأنظمة الأخرى. فالنظام الأول الذي يسترعي الانتباه كنظام سائد هو نظام البوذية الثيرافادية Theravada وقد انتشر هذا النظام ونشأ عنه ربما في جنوب غرب الهند نظام الماهايانا Mahayana الذي تغلغل في معظم أقطار آسيا الشرقية ولكنه فشل في اختراق حدود النظام الزرادشتي إلى الغرب.

لقد كان التوسع في النظام البوذي من عام ٣٠٠ ق. م حتى ٧٠٠ م بشكل غير مطرد فقد نال هذا النظام القبول لدى شريحة من المتنفذين في المجتمع ولكنه فشل في التوصل إلى عامة الشعب وتؤلف الأقاليم التي ظلت على ولائها (الشكل ٦) جزءاً بسيطاً من دائرة النفوذ القديمة لهذا النظام وظلت في حالة ركود طيلة الألف سنة الماضية. وقد تمتع فرع الماهايانا Mahayana البوذي بانحياز عدد من الأتباع وبكثير من النفوذ ولكن أخيراً طغت عليه وامتصته وأزاحته الأنظمة العرقية الدينية في شرقي آسيا. ولقد أصبحت البوذية النظام شبه العرقي السائد في التيبت وفي نظام اللامات وأسهمت في إيجاد بريق من الديناميكية التنافسية في تاريخ الأديان وذلك بامتدادها وتوسعها وسعيها لتحويل الشعوب البدوية الوثنية في الشمال إلى البوذية.

لقد كان تطوير البوذية لمجتمع الأديرة تقدماً فريداً من نوعه بالنسبة للأنظمة في المؤسسات الدينية وكان فصلها ما بين المجتمع الديني والسلطة الدنيوية، عاملاً على جعلها أكثر ديناميكية وإلى حد ما أكثر شعبية ولكن هذا الفصل أضعف قواعدها. فالأنظمة الأخرى التي اعتمدت بصورة رئيسية على المؤسسات الرهبانية (مثل المانوية) وإلى حد أقل الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية قد ثبت ضعفها وتعرضها للإبادة تحت الضغط الاجتماعي أو الاقتصادي المتوسط المدى. وعلى العموم، فقد كانت البوذية أقل ديناميكية وأقل مقاومة للضغط من الأديان العالمية الأخرى وذلك لرفضها وإدانتها لاستعمال القوة كأداة سياسية.

وعند تقصي مراحل نمو المسيحية يلاحظ المرء أن عليه معالجة نمو عدة أنظمة تختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذرياً بمرور الزمن. ولقد تبع فترة نمو المسيحية وتوسعها بفروعها الرئيسية الأربعة فيما بين القرن الثاني والقرن السادس الميلادي، نكسة حادة قاسية وهي خسارتها في القرن السابع الميلادي لمعظم المناطق الخاضعة لنفوذها في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقية عند ظهور الدين الإسلامي بشكل قوي ومفاجىء. وابتداء من القرن

التاسع حتى القرن الرابع عشر الميلادي بدأت المسيحية في التقدم شمالاً وشرقاً في الأراضي الأوروبية خارج حدود الأمبراطورية الرومانية القديمة. ولكن وبنفس الوقت وفي حوالي أواخر تلك الفترة، بدأ السكان المسيحيون في آسيا الصغرى وجنوب شرقي أوروبا في الخضوع للحكم الإسلامي وحدثت خسائر أخرى للمسيحية بتحول مجتمعات بأكملها إلى الديانة الإسلامية وخصوصاً في آسيا الصغرى.

ولكن حدث أن بدأت أوروبا بالتوسع في نفوذها، إلى خارج حدودها في نهاية القرن التاسع عشر وقد ساعد هذا على نمو النفوذ المسيحي في مساحة أراضيه وفي عدد سكانه. ومنذ ذلك العهد ورغم ظهور النزعات العلمانية والحركات شبه الدينية إلا أن التغيرات السياسية ألجمت وأعاقت النشاطات التبشيرية في عدة مناطق ويقال أن استمرار التغيرات السكانية لوحده سوف يقلل نسبة عدد السكان المسيحيين إلى حوالي خُمس عدد سكان العالم في عام (٢٠٠٠) م.

والكنيسة التقليدية التي ظلت محافظة على ديناميكيتها خلال هذه الظروف هي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ولقد تعرضت بُنية تنظيماتها ومؤسساتها للتحجر ولكن الفئات الدينية المتخصصة أعادت باستمرار وبتكرار النشاط والحيوية للكاثوليكية وذلك بتشجيع الاكتشافات التقنية الجديدة وبتقديم فكرة المستوطنات الرائدة وبنشر النظام بين الشعوب غير المسيحية. وإن عسكرتها واستعمال القوة لإدخال الدين والمحافظة على التناغم والتناسق في بعض الفترات، بدت كل هذه الإجراءات وكأنها محاسن تكتيكية، وإن التأكيد المتزايد على أهمية الكثلكة يُظهر أن تفوق هذا النظام على الأنظمة المسيحية الأخرى سوف يتزايد بمرور الزمن رغم جهود البروتستانتية في أمريكا اللاتينية.

ولقد حاولت البروتستانتية لتوسيع إسهام قاعدة المجتمع الديني بشكل حر حتى تصبح الأمة بكاملها منخرطة في الحياة الدينية. وإن أحد عناصر هذه

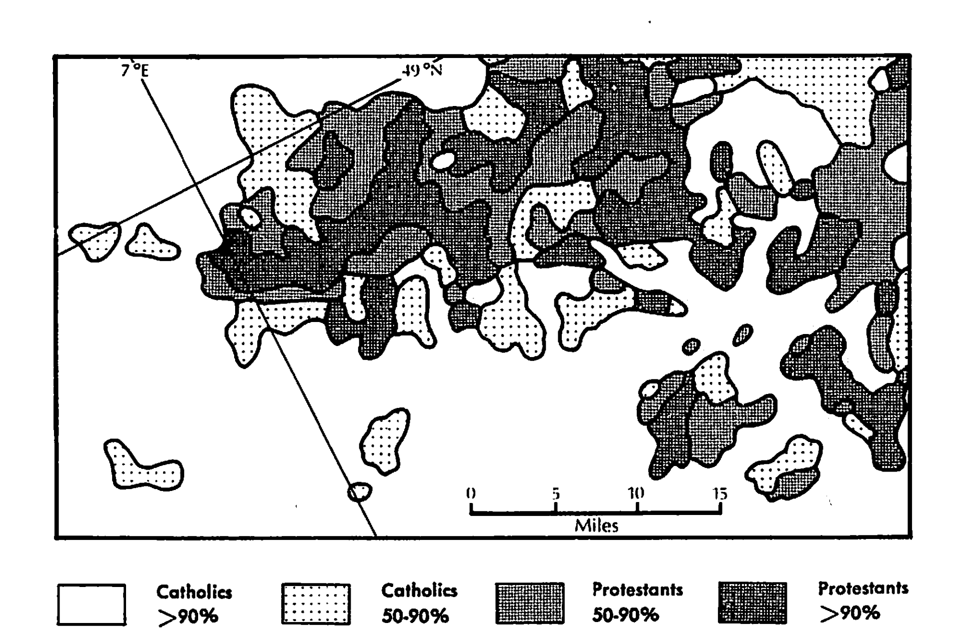
المحاولة هي السعي لمحو الأمية وقد كثرت البدع والأشكال الجديدة المميزة التي خلقت أنظمة ثانوية مستقلة جديدة. وعلى العموم نجد أن مجموعة الأنظمة الثانوية البروتستانتية قد اتخذت قاعدة عرقية أضيق من قاعدة الكنيسة الكاثوليكية، ناهيك عن العرقية التي أظهرتها المنظمات والهيئات الوطنية مثل كنيسة انكلترة. ومن الراجح أن المجتمع البروتستانتي هو مجتمع أوروبي صميم وليس هنالك من شواذ فيه سوى السكان الزنوج في شمال أمريكا وجنوب أفريقية وإن نمو وازدهار الحركة البروتستانتية نتيجة للعمليات المعقدة الاقتصادية والاجتماعية فيه قد أسهمت في نجاح بعثاته التبشيرية وإعجاب الناس بها.

ويساهم الإسلام أيضاً في إضفاء المسؤولية التامة في الحياة الدينية للفرد، ورغم عدم وجود مؤسسات كنسية وبعثات تبشيرية في الإسلام، إلا أنه قد أتيحت له الظروف والفوائد لصيرورته مجتمعاً متكاملاً منفرداً وهذه الفكرة الأخوية قد أعطت للإسلام رابطة وفكرة موحدة قد خدمت في تعزيز وتقوية المكاسب التي أحرزت عن طريق سياسة الفتوحات والتسامح النسبي المرتبطة مع الازدهار المادي والهيبة التي ساعدت البروتستانتية على النمو والازدهار (الشكل ٥).

في القرن الخامس عشر كان الإسلام أكثر الأنظمة الدينية تنظيماً في التوزيع في العالم. فقد ساد على معظم المناطق الأرضية في العالم القديم وسيطر على الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب بتوسطه في نشر الثقافة فيما بين الجبهتين الشرقية والغربية. وبعد أن عملت القوى الأوروبية على تحدي الإسلام وانتزاع تلك الطرق منه تغيرت أوضاع الإسلام وثرواته. ومع ذلك وبينما حصل الانحطاط الاقتصادي والسياسي ضمن المناطق العربية، أحرزت الدول الإسلامية في العجم والهند وتركيا نشاطاً ملحوظاً وقد ربح الإسلام متحولين جدد في آسيا الوسطى وأندونيسيا وغرب إفريقيا. ومنذ ذلك العهد بدأ الإسلام في خسارة بعض الأرضيات السياسية ومعها خسر الوسائل لجذب

الأجانب بأعداد كبيرة. وقد كانت تجارب الإسلام في القرنين الماضيين عكس التجارب البروتستانتية. فالانحطاط الاقتصادي والتغير النسبي في معظم العالم الإسلامي قد حرم الإسلام من جاذبيته القديمة. ولكن تماسكه في هذه الفترة من الكسوف السياسي والاقتصادي أمر ملفت للنظر. ففي القرون الثلاثة الماضية ثبت أن عدد المسلمين المتحولين إلى الديانة المسيحية صغير جداً لا يكاد يذكر.

وفي نهاية القرن الثامن عشر لاحظ أحد رجال الدين الزيادة في عدد المنتمين إلى الطائفة المعمدانية Baptists وقال أنه إذا اتخذنا العدد دليلاً على صدق حقيقة الدين، فماذا نقول بالنسبة لزيادة عدد المعمدانيين فضلاً عن زيادة أتباع محمد ﷺ. وإن الانتقاص من قيمة الأرقام يؤدي إلى نتيجة ذات قيمة. فأعداد المعتنقين فقط لا يمكن أن يدل على الأهمية التاريخية لأي نظام ديني أو المعنى الذي يفرضه في نفوس الأفراد فالمسيحية والإسلام معاً قد أثرا على التقاليد الدينية التاريخية للحضارة الغربية ولكن يجب ألا ننسى أن هنالك حوالي نصف عدد سكان العالم الأحياء هم من الذين لا ينتمون إلى أي من هذين الدينين. فالفتوحات والتحولات الدينية التي حدثت خلال قرون عديدة لا تزال تسمح لنا بالتمييز والبحث بين السطور عن نماذج توزيع الأديان في العالم القديم كما كان قبل ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ عاماً مضت. إذ لا نزال نذكر الحضارة الايجية في حوض البحر الأبيض المتوسط والمراكز النهرية لحضارات العالم القديم في الشرق الأوسط، ونذكر مركز نهر الكنج المقدس بالنسبة للحضارة الهندية ونذكر الحضارات الصينية وكل منها عبارة عن بؤرة من بؤرات الأقاليم الدينية المعاصرة.



الشكل (١٠) توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أواسط أوربا عام ١٩١٠

الفصل السادس

الاعتبارات الجغرافية الدينية المعاصرة

لقد حاولنا حتى الآن الإحاطة بشؤون الإخلاص والأمانة في الممارسات لدى أولئك الأشخاص الذين يمتلكون عقائد دينية. ولقد أخذنا بعين الاعتبار سلوك كل مجتمع ديني على حدة دون النظر إلى القناعات والإيمان الراسخ لأولئك الذين نشأوا وترعرعوا في ظل دين معين. ومع ذلك فالإخلاص والأمانة هما من الأمور المحرجة بالنسبة للأنظمة الدينية. ولذلك فعلينا النظر بعين الاعتبار إلى الأنظمة شبه الدينية ودورها في السياسة. وأشباه الأديان هذه تستطيع أن تحل محل الأديان التقليدية كقوى مرشدة اجتماعياً مع أنها لا تستطيع القيام بهذا الدور علناً وبصراحة.

نماذج من الإخلاص والولاء الديني:

تنحصر المعلومات التي لدينا حول الإخلاص والولاء الديني في بعض الممارسات السطحية كالالتـزام بالامتناع عن الطعام مثلاً. وأما بالنسبة للبلدان الغربية وخصوصاً البروتستانتية هنالك بعض المؤشرات التي أمكن الحصول عليها خلال القرنين الماضيين والتي استعملت لتقدير نماذج الولاء والإخلاص الديني. فهنالك خريطة رسمها (هيوم) في القرن التاسع عشر أو بالأحرى منتصف ذلك القرن (وهي ممثلة في الشكل ١١) وهي نوع قديم من الخرائط يُظهر نماذج من عدد الحضور إلى الكنائس. فضلاً عن عمليات الاعتراف.

وفي القـرن الثامن عشـر انتشرت في أوروبـا الغربيـة روح الشك بالمعتقدات الدينية التقليدية كنتيجة للحروب الدينية التي سادت في القرن الذي سبق ذلك القرن وكنتيجة للتوسع العلمي والتقدم السريع في المعارف حول الإنسان والعالم المحيط به. فقد شعر السواد الأعظم من الشعب في ذلك العصر بشعور من عدم المبالاة الممزوج بالملل والإرهاق حول الديانة التقليدية. وهكذا لم تكن الحرية الدينية فقط هي المطلب الوحيد في أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر. فقد طلب الكثيرون تحرير الدين من الأنظمة والتنظيمات في المعتقدات والممارسات. وقد أصبح معظم الأمريكيين يميلون إلى عدم الانتماء إلى أية كنيسة بغض النظر عن معتقداتهم الخاصة. ففي عام ١٨٠٠ قدر أن عدد المنتمين إلى الكنائس لم يتجاوز سُدس السكان. وسرعان ما بدأت الطوائف البروتستانتية في حشد المتطوعين بنشاط، بينما ساعد أولئك المهاجرون من أوروبا إلى أمريكا على زيادة عدد المنتمين إلى الكنيسة. ولم يَأتِ عام ١٩٠٠ إلا وأصبح ثلث السكان منتمين إلى الكنيسة وأصبحت النسبة الآن ثلثان.

ويختلف ارتباط الطوائف المختلفة بالكنيسة طبقاً للتقديرات السائدة المؤسسة على الانتماء الكنسي وعلى حضور القداس. وتمتاز الكاثوليكية بعدد الحضور الضخم في كنائسها. فهنالك حوالي ٧٠ ٪ من الكاثوليك الأمريكان من الذين يحضرون القداس بانتظام. ولما كان معظم هؤلاء يعيشون في المدن والأماكن الصناعية، لذلك يظهر الفرق واضحاً بين حضورهم وبين حضور الكاثوليك واشتراكهم الضئيل في المدن والأماكن الصناعية في البلدان الأوروبيـة الكاثـوليكية. وتشيـر المعلومات والإحصـاءات في المجتمعات الأمريكية الأخرى أن نسبة الحضور إلى الكنائس تبلغ ٤٥ ٪ بين الإفريقيين السود في أمريكا و ٣٥ ٪ بين البروتستانت البيض و ١٧ ٪ بين اليهود. وبالنسبة لليهود هنالك معايير أخرى تشير إلى مستويات أشد انخفاضاً في معدل تقيدهم بالحضور الديني. ضمن الطوائف البروتستانتيـة الرئيسيـة هنالـك الطائفـة

الانجيلية التي تمتاز بانخفاض عدد الحضور إلى الكنائس فيها بينما يمتاز المعمدانيون بارتفاع نسبة الحضور إلى الذروة.

ومع أن اتساع نفوذ الكنائس وتعاظمها يُعزى إلى الحوافز الاجتماعية، إلا أن هنالك كثير من التفكير والبرمجة وإجراء التجارب بالنسبة للأشكال الجديدة في المسيحية الغربية فهنالك البعثات التبشيرية العاملة للكاثوليك. ومغامرات البروتستانت في الحياة الرهبانية والمحاولات للرجوع إلى العمل المشاعي القديم في العبادة في أبنية وأقبية تحت الأرض في المدن ثم حركة تحديث الكنيسة الكاثوليكية وجعلها عصرية وفق الزي أو الأسلوب العصري، كل هذه المحاولات هي جزء من البحث والاستقصاء عن إيجاد حس العصرية والحداثة في الأديان التقليدية.

وفي أمريكا تسود محاولات للتقريب بين بعض الأنظمة الدينية وإيجاد نوع من التماثل والتطابق بينها. فهنالك حوالي ٩٧ ٪ من الشعب الأمريكي في الولايات المتحدة ينتمون إلى نظام ديني رسمي أو آخر. والتماثل والتطابق المطلوب يميل لأن يكون متوازناً وغالباً ما يكون مؤشراً لأصول ثقافية واجتماعية معينة.

وفي معظم البلدان المتقدمة تقنيّاً نجد أن التنقلات الهائلة بين السكان التي رافقت الحياة الصناعية وأحوال المعيشة المدنية، قد عزّزت الشعور بالفتور وعدم الافتتان بالأديان الموجودة. فكلا البروتستانت والكاثوليك في أوروبا الغربية وخصوصاً المناطق الصناعية قد انخفض مستوى ولائها وانتمائها الديني إلى الحضيض.

وهكذا نجد أن كثيراً من الأوروبيين (وهذا لا ينطبق على الأمريكيين) قد انخفض تقيدهم والتزامهم بالانتماء الديني لأي نظام من الأنظمة الدينية المعروفة. ففي عام ١٩٥٠ كان هؤلاء غير الملتزمين يؤلفون ١٧ ٪ من سكان هولندة. وأما في شبه جزيرة أسكندنافيا فقد عمدت الكنائس اللوثرية إلى تسجيل معظم السكان في عداد المُنتمين إليها. ولكن الاشتراك والاهتمام

بالشعائر الدينية هناك أقل بكثير منه لدى البروتستانت الأمريكيين. وأما في اليابان فهنالك حوالي ٣٥٪ من السكان يعترفون بالانتماء إلى أحد الأديان التقليدية بينما في الولايات المتحدة نجد حوالي ٨٠ ـ ٩٥٪ من السكان (إذا اعتمدنا على نفس المعايير).

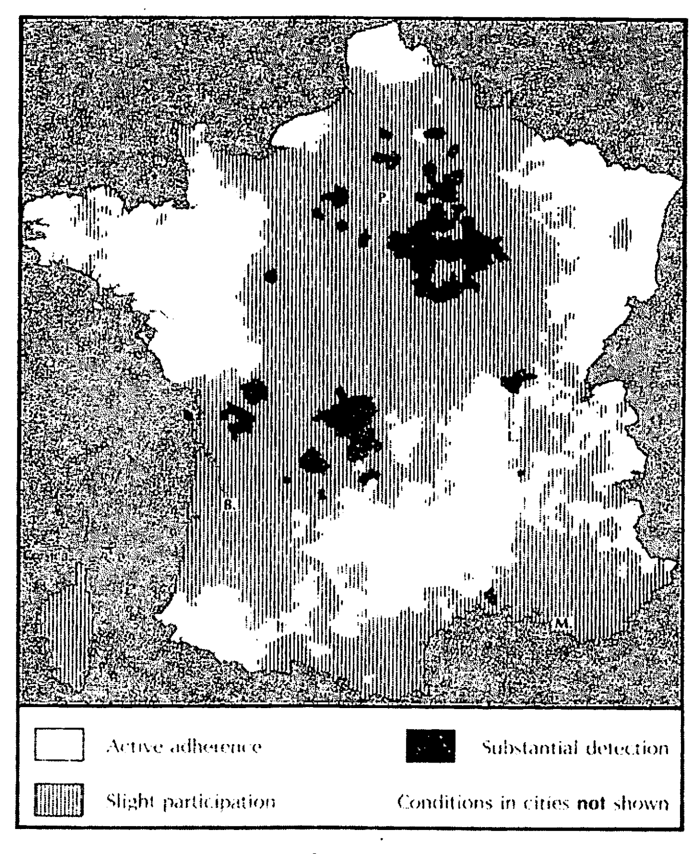


الشكل (١١) التقيد بالممارسات الدينية في انكلترة وويلز عام ١٨٥٠

وفي الاتحاد السوفييتي ومعظم البلدان الاشتراكية، نجد معظم السكان لا يعتقدون بأي دين من الأديان التقليدية. ولكن هذا لا يعني أن السكان غير متمسكين بالعقيدة الماركسية اللينينية التي أصبحت شبه دين بالنسبة إليهم وأصبحوا يحترمون تلك العقيدة الماركسية اللينينية كما يحترم الأوروبيون الغربيون المسيحية.

وأما في فرنسا فالكنائس تؤيد وتدعم الدراسات الجغرافية الاجتماعية تحت اسم «علم الاجتماع الديني» وتهدف هذه الكنائس إلى إجراء القياسات

ورسم الخرائط لتفسير وتوضيح حالات الالتزام الديني في الممارسات الدينية المختلفة. ويظهر من تلك الإحصاءات أن حوالي ٥ ٪ من الشعب الذين هم من أصل كاثوليكي يرفضون الكنيسة بشكل سافر لدرجة رفض التقيد بطقوس العماد والدفن بينما هنالك حوالي ٦٠ ٪ قلما يتقيدون بتلك الطقوس وأما الـ ٣٥ ٪ الباقون فهم يتقيدون بتلك الطقوس بشكل منتظم. وهناك الدراسات التي قام بها بولارد Boulard عن الفروق ما بين التزام واشتراك البالغين والأطفال بالممارسات الدينية. وفي هذه الدراسات تظهر ثلاث فئات بالنسبة للالتزام الشعبي بالشعائر الدينية انظر الشكل (١٢) وتتلخص هذه الفئات الثلاثة (١) المشتركون الفعليون بالشعائر الدينية (٢) السلبيون (٣) المرتدون.

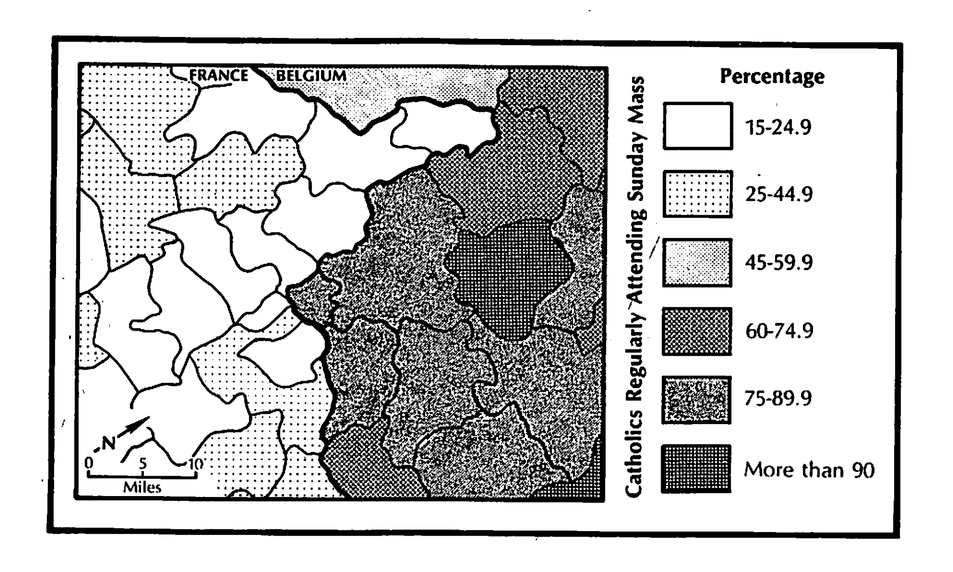


الشكل (١٢) التزام الكاثوليك الريفيين بالشعائر الدينية الكاثوليكية عام ١٩٥٠

وتعتبر الكنيسة مناطق المرتدين ضمن اختصاص البعثات التبشيرية التي يجب أن تعالج على يد فعاليات وتقنيات خارجة عن نطاق فعاليات وتقنيات المشيخات الإقليمية. ولا يناقش بولارد مستوى الخدمات التي يجب على المشيخات القيام بها ولكنه يعتقد أن هذه الخدمات يجب أن تكون على مستوى الاشتراك والتقيد الفعلي بالشعائر الدينية (انظر الشكل ٤) فالتقصير في الاشتراك يقلل الإمكانات المادية والجسدية وهذا بدوره يُضعف قدرة الكنيسة على الاحتفاظ بولاء وإخلاص الرعيّة. فالمناطق الريفية المحافظة مثل إقليم بـريتاني وغسقـونية وسيفـانيس Cevannei هي من المناطق الكـاثـوليكيـة الصميمة. بينما نجد المناطق الصناعية مناطق مرتدة ولكن العلاقات الدقيقة معقدة تماماً فهنالك نزعات تعود إلى ما قبل عهد الثورة الفرنسية تؤثر تأثيراً بالغاً في الالتزامات الدينية ويبدو أن التأثيرات العقلانية التي أتت بها الثورة الفرنسية قد كان لها الأثر البالغ في استنزاف وإضعاف قوة الكنيسة في المناطق الريفية في حوض باريس في القرن الثامن عشر. وبانتشار النزعات الفردية والتجارية للزراعة هنالك زادت أفكار عدم الاكتراث وعدم المبالاة بالكنيسة حتى أصبحت الكنيسة تعتبر تلك المناطق مناطق من الواجب على البعثات التبشيرية الاهتمام بها. وإن دراسة نسبة الحضور إلى القُداس تظهر مستويات مختلفة للاشتراك في تأدية الشعائر الدينية على كلا جانبي الحدود الفرنسية البلجيكية مع وجود نسبة أعلى في الجـانب البلجيكي من تلك الحدود (الشكل ١٣). ولا يظهر الفرق واضحاً في الداخل بعيداً عن السواحل حيث هنالك نسبة عالية من الحضور للقداس في المناطق التي تتحدث باللغة الفلامنكية في شمال غرب فرنسا وإن هذه الدراسات الفرنسية تظهر كيف أن تسرب الأفكار ووجود مناطق ثقافية تعمل بشكل ميادين مميزة للاتصالات وأن الفروق الاقليمية في التنظيمات الدينية كلها تستطيع التأثيـر على حيويـة الأديان.

ويقول هيربرغ Herberg أن النشاطات الدينية المعاصرة في الولايات المتحدة قد تفوقت من حيث حيويتها على نشاطات غربي أوروبـا حيث

انتشرت ظاهرة عدم المبالاة للأديان الرسمية وذلك لأن الميول الأمريكية الدينية الحديثة والمعاصرة باعتبار أي دين من الأديان شيئاً جيداً ومرغوباً فيه. وهكذا أصبح التسامح والتعايش السلمي سائداً بين الكنائس والأديان العرقية قاطبة.



الشكل (١٣) نسبة حضور القداس في منطقة الحدود الفرنسية البلجيكية

الأنظمة شبه الدينية:

يُعتبر الدين الأمريكي الموحد الطريقة الأمريكية للتصرف في هذه الحياة والمبنية على المفاهيم النموذجية للأنظمة الحديثة التي كانت ولا تزال سائدة في العالم الجديد. ويظن الأمريكيون أن هذا الدين الموحد ما هو إلا دين عالمي لأنه قد أثبت وجوده في العالم الجديد بنجاح مُلبياً المطالب العرقية والمذهبية في تلك البلاد. وطبقاً للمفهوم العالمي يعتبر ديناً عرقياً لا يمكن الحصول عليه بالقبول الشفوي البسيط. مثلاً تظهر قداسة الأمكنة وهي إحدى

العلامات المتميزة للأنظمة العرقية في تكريس المحاولات لإرجاع الموتى الأمريكيين إلى تراب الوطن.

إن هذا الإيمان بالطريقة الأمريكية المتبعة في الحياة ما هو إلا قضية خاصة لمختلف الجنسيات التي اتسمت واتخذت شخصية الأنظمة الدينية العرقية. إذ أن هنالك عنصراً دينياً من القومية ذاتها أو بالحري أن القومية بحد ذاتها ما هي إلا دين من الأديان. وإن وجهة النظر التي تقول أن بعض الأنظمة الاجتماعية المتكاملة كالقومية والشيوعية ما هي بالحقيقة إلا أنظمة دينية قد أصبحت عامة وشائعة بشكل متزايد ما دام أنها تتفق مع معظم التعاريف الشاملة للأديان بما فيه المتطلبات التي تستلزمها الأفكار التي لم تصل إلى درجات التجارب العملية بعد. ويعتقد البعض أن ما يميز هذه الأنظمة عن الأديان هو غياب مراسم العبادة. ولكن سواء دعونا هذه الأنظمة أدياناً أم لم نَدْعُها، فلا شك أنها تعتبر كأنها أنظمة دينية من قِبل الكثيرين وذلك لاعتبارات جغرافية ويمكننا تصنيفها كأديان تقليدية وهكذا يمكننا دعوتها والرجوع إليها باسم أشباه الأديان.

إن الإيمان بالقومية يشمل الاعتقاد بالأهمية المتزايدة للأمة. وهنالك بعض المجتمعات التي تمتلك ديناً عرقياً تقليدياً ولكن عندما تنتعش الحركات القومية في تلك المجتمعات بعد نيل المقومات الاقتصادية والثقافية، عندها يصبح الدين العرقي التقليدي عنصراً هاماً في القومية الجديدة. فقد تقمص دين الشنتو في القومية اليابانية في القرن التاسع عشر بشكل كلاسيكي، هذا وفي بعض الحالات يمكن اختراع دين قومي رسمي أشبه بالدين كما حدث في ألمانيا النازية.

وفي بعض الحالات تسمو أشباه الأديان القومية وتبلغ مبلغاً كبيراً من الأهمية تقارب حدّ العبادة والقداسة إلى حدّ ما في العالم المادي وإن استعمال أشباه الأديان هذه لكلمة «مقدس» أو أرض الأجداد المقدسة ليس شيئاً من أمور المحسنات اللفظية فحسب.

هذا وإن النظام الشيوعي الذي أخذ بالانتشار السريع، قد أحرز آثاراً واضحة على الأرض وهو منظم تنظيماً بديعاً تقليدياً وهنالك عدد من الصفات المشتركة والفلسفية بينه وبين بقية الأنظمة والأفكار رغم اتساع الفروق بينه وبين تلك الأفكار ولكن هنالك خطر على النظام الشيوعي بحدوث انقسام بين الشيوعيين الأوروبيين والشيوعيين غير الأوروبيين كما حدث في الانقسامات في الديانة المسيحية. وقد شقت الشيوعية طريقها كنظام عالمي وليس كنظام عرقي: يا عمال العالم اتحدوا! وهكذا أصبح معتنقو النظام الشيوعي من الطبقات المسحوقة اقتصادياً. وقد توسعت الشيوعية وانتشرت من خلال انتصارات حربية تبعها نوع من الضغط للتأكد من التحويل. وهكذا امتصت الشيوعية كثيراً من الأقاليم والشعوب التي كانت تابعة لأحد الأديان أو الآخر، فامتصت الدين العرقي في الصين وكذلك البوذية. وتنادي الشيوعية بالتعايش السلمي بين الأمم وهذا يذكرنا بمعاهدة وستفاليا التي وضعت حداً للحروب الدينية في أوروبا.

ورغم المدة القصيرة التي ظهر فيها النظام الشيوعي وازدهر إلا أنه قد بدا للعيان أن هذا النظام أصبح مقبولاً كنظام للحكم من قِبل أعداد كثيرة من الناس لا تقل في كثرتها عن العالم المسيحي بأجمعه ولكن رغم انتشار الشيوعية السريع إلا أن بعض الأديان العرقية القديمة لا تزال مقاومة لذلك النظام كالأنظمة الدينية في الهند والصين التي قاومت انتشار المسيحية أيضاً ولقد كانت مقاومة هذه الأديان للمسيحية ناشطة وفعّالة قبل عام ١٧٥٠ م. عندما كانت المجتمعات الشرقية لا تزال في حالة تكافؤ وتعادل مع المجتمعات الغربية المسيحية في الأحوال التقنية والاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك الزمن.

النزعات المستقبلية:

لقد أخذت الأديان التقليدية تميل للتقارب فيما بينها في الأيام الأخيرة وذلك كرد فعل لعدم المبالاة التي بدأت تظهر بالنسبة للأديان مؤخراً. ولقد

أصبحت الرغبة أكيدة لتجنب الاحتكاكات فيما بين الأديان. ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى حدوث تفاهم أفضل فيما بين المجتمعات والأنظمة الدينية المختلفة فضلاً عن تأثير الحربين العالميتين الماضيتين على التفكير الديني وخصوصاً في الغرب. ومنذ عام ١٨٩٣ عقدت عدة اجتماعات للبرلمان العالمي للأديان في شيكاغو واشتركت في تلك الاجتماعات عدة مؤسسات وجمعيات دينية مثل الكونغرس العالمي للأديان وكان الهدف من هذه الاجتماعات ربط جميع الأفراد من مختلف الأديان بنوع من المحادثات علهم يجدون مناطق أو نقاطاً توصلهم إلى الاتفاق وخصوصاً بالنسبة للقضايا الاجتماعية والسياسية المطروحة.

وربما كانت هذه الاجتماعات (وإلى حد ما) حركات تؤيد توقعات المستشرق ماكس مولير Max Muller الذي قال بأنه ينتظر أن يشكل أتباع الأديان التقليدية المختلفة في يوم من الأيام نواة لكنيسة جديدة. ويرى بعضهم أن هنالك ضغوطاً في العالم المعاصر سوف تؤدي إلى حدوث محاولات سوف ينتج عنها إحداث دين جديد أو تعديل دين قديم بإضافة مؤسسات وتنظيمات ناجحة إليه بحيث يروق للأنظمة الأخرى ويتنبأ الآخرون بأن العالم سوف يتمسك بالأديان القديمة والرموز القديمة ويستمر هنالك نوع من التعايش السلمي بين الأديان، وهذا الأمر أكثر احتمالاً من نشوء دين جديد عالمي. وتبقى أشباه الأديان التي تطمح بأن تصبح عالمية وربما تتوقع أن تصبح كذلك في المستقبل.

والآن دعونا نتذكر كيف نمت الأنظمة الدينية وترعرعت ثم انتشرت ولقد انتهت تلك الفترة المقيتة من النزاعات الدينية التي تخللها الفتح العسكري والإكراه على تغيير الدين والتحول إلى دين آخر، ليس نتيجة لمعركة فاصلة كبرى، بل غالباً ما كان ذلك بسبب الابتذال والصمت وعدم المبالاة. فهل يا ترى هذا هو الطريق الذي سوف تسلكه أشباه الأديان المتناحرة في هذه الأيام. ففي الماضي، كما هو الحال في الحاضر وجدت أحوال مناسبة

وناضجة لإقحام عناصر ذات قيمة حقيقية في الأنظمة الدينية القديمة، ولكن هل تظل هذه العناصر قادرة على الاقتحام في هذه الأيام؟ ولقد حدثت قبل الآن تغيرات في بعض الأديان العرقية جعلتها أدياناً عالمية ويتساءل المرء فيما إذا كان بالإمكان تحول بعض أشباه الأديان المادية الأمريكية بحيث تصبح أدياناً عالمية باصطفاء عناصر مناسبة من البيئة الأمريكية. ويمكننا أن نقوم ببعض التنبؤات حول هذه المواضيع وحول غيرها من البدائل عندما نستطيع تحليل الخصائص المكانية والبيئية للأديان المعاصرة. وإن هذا العمل يعتبر من أولى واجبات جغرافية الأديان.

فهرس الكتاب